قضايا معاصرة
في الدراسات اللغوية والأدبية

- تجديد النحو وتيسيره
- مجال صراع الفصحى واللهجات
- اللغة والقومية
- البلاغة بين منهجي اللغة والأدب
- القصة التربوية بين الفن والغاية
- من دواوين الشعر الحر والملتزم

الدكتور محمد عيد

أستاذ النحو والصرف والعروض

بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

١٩٨٩م

الناشر

عالم الكتب

٣٨ عبد الخالق ثروت - القاهرة

قضايا معاصرة في الدراسات اللغوية والأدبية

المؤلــــف : الدكتور محمد عيد
الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩م
الناشـــر : عالم الكتب
٣٨ شارع عبد الخالق ثروت - القاهرة
ص . ب ١٦ محمد فريد ت ٣٩٢٦٤٠١

إهداء

إلى اللغة العربية الفصحى

تلك التي قدمت لها ما فات من عمرى بإخلاص وأنا عازم على أن أقدم لها مابقى من العمر بالإخلاص نفسه ، وبأكثر منه .

وإنّها لجديرة بذلك منّى ومن غيرى

يكفى أنها لغة القرآن الكريم .

وأنها الصّلة بين العرب - كل العرب - فكرا وشعورا

وأنها رباط الوحدة الدائم بين الناطقين بها إذا انحلّت كلّ العرى وتقطّعت الحبال .

إليها

أهدى هذا الكتاب وكلّ كتاب لى من قبل ومن بعد .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

عنوان هذا الكتاب مكون من خمس كلمات (قضايا معاصرة فى الدراسات اللغوية والأدبية ، وهى مقصودة تماما فى هذا العنوان .

فهى «قضايا» شغلتنى طويلا ، مواضيع مختلفة ، درستُ فى أزمان متفرقة وشغل كل موضوع منها جهدا ووقتا قبل نشره على الناس وعرضه عليهم . والأمر فى البحث العلمى لايقاس بكمية الصفحات التى تعرض موضوعها ما ، بل بأهميته ومدى إسهام مؤلفه فى تقديم ما هو جديد ومفيد .

ومعلوم فى مناهج البحث العلمى أن كمية هائلة من الكتب تندرج تحت ما يسمى «التقليد والتبعية» فهى – فى معظمها – نقل وتصنيف وحشو ، يخرج منها قارئها صفر اليدين والعقل ، وربما خاسرا جهده ووقته الذى تمزق من كثرة النقول التى تتقاذف عقله ذات اليمين وذات الشمال .

والذى يعتد به فى البحث العلمى هو «الإبداع والجديد» إذ يكون للباحث إسهام ينسب له فى تخصصه وموضوعه، فى نسيج يشف عن عقله هو ورأيه هو لا عن عقول الآخرين وآرائهم .

وأظننى فى كل دراسة فى هذا الكتاب قدمت جديدا فكرت فيه طويلا ولما اقتنعت به درسته معتمدا فى ذلك على المعاناة الجادة فى خلق فكرته والاطلاع الأمين على مراجعه ، ووضوح عرضه فى تقديمه للقارىء .

وهى «قضايا معاصرة» يحمل كل موضوع منها قضية مطروحة للبحث والنقاش فى الوقت الحاضر، ليست من موضوعات التراث التقليدية، وليست من البحوث الأكاديمية ذات الطابع المتميز فى التدقيق والتوثيق . لم يكن الأمر فى قضايا هذا الكتاب كذلك ، بل هى موضوعات فرضت نفسها على الساحة اللغوية والأدبية لخواص المثقفين فى الوقت

الراهن ، وتقدمت أبدى رأيي فيها بما أظنه تفسيرا لها وحلا لمشكلاتها يمكن قبوله وفهمه من هؤلاء المثقفين المتميزين .

شغلنا – وما يزال – موضوع «تجديد النحو وتيسيره» إذ ألفت فيه الكتب وكتبت المقالات وألقيت المحاضرات وعقدت الندوات ، وآخر كتاب فى الموضوع للدكتور شوقى ضيف بعنوان «تجديد النحو» .

وقد اجتهدت الرأى فى هذا الموضوع بدراسات ثلاث ، أولها عن هذا الكتاب «تجديد النحو» فقومته وأبديت رأيي فيه وفى محتواه وجدواه . وثانيها عن «نحو الصنعة ونحو اللغة» وثالثها عن «النحو العربى بين النظر والتطبيق» مسهما بهما فى قضية النحو العربى بين دعاة التجديد والمنهج الصحيح للتيسير .

والخطة التى اقترحتها للتيسير فى هذين الموضوعين – الثانى والثالث – لا تأتى من فراغ ، إذ طبقت رأيي النظرى فى هذين الموضوعين فى الواقع العملى بكتاب يتداوله الناس من زمن بعيد وعلى امتداد العالم العربى كله اسمه كتاب « النحو المصفى » بل إن هاتين الدراستين تصورتهما ذهنيا أثناء كتابة هذا الكتاب ، فالمنهج المطروح فى هذين البحثين ليس من فراغ ، بل له واقع نفذته فعلا فى كتاب «النحو المصفى» الذى رحب به كل المشتغلين بالكلمة من المدرّسين والمحامين والمذيعين والصحفيين ، وكلما مضى الزمن زاد الإقبال عليه والاحتفاء به .

وفى كتابى هذا – الذى بين يدى القارىء – دراسات ثلاث عن «اللغة» إحداهما عن «الفصحى والعاميات» والثانية عن «تأثير الدين واللغة فى القومية» والثالثة عن «اللغة والنقاد الإعلاميون» .

والجديد فى هذه الثلاثة هو رصد زاوية محددة جديدة فى كل منها ، هى فى الدراسة الأولى «مجال الصراع» بين الفصحى والعاميات – مجال الصراع فقط – مع الاعتراف بوجودهما وضرورة درس كل منهما .

والجديد فى الثانية بيان تداخل اللغة مع مظاهر التأثير الدينى فى الروح القومية من زاوية حضارية إيجابية لاتقليد فيها ولا تعصب .

أما هدف موضوع «اللغة والنقاد الإعلاميون» فهو بيان ما نحن فيه من تخبط وتجاوز . فالنقاد الإعلاميون فى الإذاعة والتليفزيون يُفْتون فى كل شيء وفى أي شيء مما يعرفون ومما لايعرفون ، وهذه - كما يعرف الجميع ذلك - ظاهرة مسموعة مشاهدة كل يوم ، وهذا خلط ينبغى أن تبرأ منه حياتنا الثقافية الجادة .

ضم هذا الكتاب أيضا دراسة عن «البلاغة العربية» التى يصفها الأدباء المستنيرون بأنها لاتساعد أعمالهم الأدبية بالتفسير والتنوير ، فهى متجمدة فى مباحثها وشواهدها وأمثلتها .

والحق مع هؤلاء الأدباء ، وقد اقترحت وضع مباحثها الرئيسية فى مناخ جديد فى اللغة والأدب ، لتفيد تلك المباحث من هذه الدراسات الحديثة المتطورة .

ثم دراسة ضمها الكتاب عن «القصة التربوية بين الفن والغاية» ذكرت فيها - من واقع التجربة - العناصر اللغوية والفنية التى ينبغى أن تتوافر لهذا النوع من القصص الضرورى جدا للأطفال والصبيان ، كى تحقق أهدافها للأعزاء الصغار فى الاستمتاع وتعليم اللغة وتربية المثل النبيلة الشريفة فيهم .

ومن القضايا المعاصرة قضية «الشعر الحر والملتزم» وفى تقديرى أن قيمة الشعر لاتتحدد بشكله العروضى ، بل أهم من ذلك استكماله للعناصر الفنية من الصدق الفنى بالتعبير الصادق عن الواقع النفسى والارتباط فى موضوعاته بهموم الإنسان والمجتمع وأن تتوافر له صحة اللغة واستخدامها المؤثر بالإيحاء والتصوير - دون الانغلاق على الهموم الذاتية والخواطر العاطفية والوقوع فى التجريد والمباشرة والأخطاء النحوية والعروضية

ففى هذا الكتاب دراسات عن دواوين ثلاثة ، ديوانان من الشعر الحر هما :

«حديقة الشتاء» و «البحر موعدنا» للشاعر «محمد أبو سنة» الذى يحمل الآن لواء الشعر الحر بأصالة وكفاءة ، ويعلم الجميع أن أحد هذين الديوانين وهو «البحر موعدنا» حصل على جائزة الدولة فى الشعر لعام ١٩٨٥ م .

أما الديوان الثالث فعنوانه «ثوبيات وقصائد أخرى» للشاعر «عبداللطيف عبدالحليم»

ومن البين من عنوان هذا الديوان أنه ملتزم عروض الخليل ، بل ملتزم عروض المعري، وقد دللتُ فى دراسته على العناصر الفنية التى فى هذا الديوان الملتزم الأصيل.

لقد تنوعت الدراسات فى هذا الكتاب ، لكنها تدور جميعها حول محورين هما «دراسة اللغة وآدابها» وهما أمران لايفترقان إلا فى مستوى الدراسة، فأحدهما يدرس اللغة على مستوى الصحة ، والآخر يدرسها على مستوى الجمال .

والتنوع يكون أحيانا باعثا على الترويح والاستمتاع ومتابعة القراءة، إذ ينتقل القارىء – فى كتابى هذا – من مشهد مرسوم بدقة وعناية إلى مشهد آخر مرسوم بالدقة والعناية أنفسهما ، ويراوح بين هذا وذاك بفاصل يُحَبب له مواصلة القراءة والاستمتاع فإذا كان للكتاب ذى الموضوع الواحد قيمته وفائدته ، فللكتاب الذى يضم موضوعات متعددة – كهذا الكتاب – جاذبيّته وقراؤه ، ومثل ذلك الرواية الطويلة ومجموعة القصص القصيرة التى يضمها كتاب واحد .

وليس كتابى هذا بدعا فى بابه ، إذ نهج هذا النهج نفسه كبار العلماء والأدباء، وأبرزهم : «طه حسين ، والعقاد ، وأحمد أمين ، وغيرهم .

وأعترف أن هذه الدراسات التى يضمها هذا الكتاب نشرت من قبل فى مجلاّت علمية رفيعة المستوى ، أهمها مجلة «الآداب البيروتية» التى خدمت الثقافة العربية المتطورة المتجددة خدمة جليلة فى السنوات الأخيرة ، وكان شعارُها تقدير الإنتاج الأصيل نفسه ، بصرف النظر عن اسم مؤلفه شهرة أو مكانة .

إن الدراسات الإحدى عشرة التى سيلقاها قارىء هذا الكتاب حملت كل منها جهد كتاب مستقل كامل ، نظرا لطبيعة موضوعاتها من ناحية ، وطبيعة قرائها من خواص المثقفين من ناحية أخرى ، وظروف نشرها فى هذا الوسط المثقف المتميز من ناحية ثالثة، وأخذها بهذا الاعتبار إنصاف لها وإنصاف للقارىء وإنصاف للمؤلف ،،،

٥ أبريل ١٩٨٩ م . الدكتور / محمد عيد

كتاب «تجديد النحو»
للدكتور شوقي ضيف
عرض وتقويم

في عام ١٩٤٧ م نشر كتاب «الرد على النحاة» لابن مضاء القرطبي ، بتحقيق الدكتور شوقي ضيف ، وأحدث نشره حينذاك هزة في الدراسات النحوية تشبه الهزة التي أحدثها كتاب «الأدب الجاهلي» للدكتور طه حسين في الدراسات الأدبية ، وقد صدر قبله بسنوات (١٩٣٧) ، كتاب آخر هو «إحياء النحو» لإبراهيم مصطفى ، وأحدث صدوره هزة شديدة أيضا بين المشتغلين بالنحو ، ومما قيل عنه بعد ذلك : إنه متأثر بكتاب ... الرد على النحاة ...

المهم أن «الدكتور ضيف» صدّر الكتاب المحقق «بمدخل» عرض فيه ما تضمنه الكتاب من آراء عن العامل والعلل والقياس والتأويل ، واستهدى هذه الآراء نفسها فيما أسماه في آخر هذا المدخل «حاجة النحو إلى تصنيف جديد» ولم يخرج في سد هذه الحاجة عن آراء ابن مضاء .

وقد اجتهد دارسون آخرون في تفسير آراء ابن مضاء من وجهات نظر أخرى ومنهم صاحب هذا البحث – محمد عيد – الذي فسر هذه الآراء في ضوء علم اللغة الحديث وحصل بذلك على الماجستير عام ١٩٦٤ م ونشرت هذه الرسالة عام ١٩٧٣ م بعنوان «أصول النحو العربي – في نظر النحاة ورأي ابن مضاء وضوء علم اللغة الحديث»[١] .

---

(١) صدرت الطبعة الرابعة من هذا الكتاب هذا العام (١٩٨٩) .

ثم نشرت طبعة أخرى من «الرد على النحاة» عام ١٩٨٢ م ، وهى لاتكاد تختلف عن طبعته الأولى .

لكن بَدَا للدكتور ضيف فى العام الذى أعاد فيه نشر تحقيق الكتاب ١٩٨٢ م أن يخطو خطوة أخرى ، فأصدر كتابا بعنوان « تجديد النحو» أقامه – كما جاء فى المقدمة وفى الكتاب – على أسس ستة – ستأتى تفصيلا – ثلاثة منها مستوحاة من كتاب «الرد على النحاة» وزاد عليها ثلاثة أخرى ، ووصف هذا الكتاب فى المقدمة «بأنه يجدِّد النحو ، ويقرِّبه من دارسيه ، بحيث يصبح مذللا سائغا لهم» .

وجاء فى نهاية المقدمة قوله «وإنى لشديد الأمل فى أن يصبح منهج هذا الكتاب وتبويبه ومادته عتادا يرجع إليه مؤلفو كتب النحو التعليمى ليضعوا على أسسه كتبا متدرجة مع سنوات الناشئة فى التعليم، حتى تستتم فى وضوح تمثل مقومات العربية وأوضاع صيغها تمثلا قويما سديدا» .

هذه قصة هذا الكتاب موضوع هذا البحث .

ومؤلف الكتاب «الدكتور شوقى ضيف» موسوعىّ الثقافة ، وله إسهامات فى الدراسات القرآنية والأدبية والنقدية والبلاغية واللغوية والتحقيق والترجمات الذاتية وغيرها.

قَبِلَ – ويَقْبَل – من الدكتور ضيف تحقيق (الرد على النحاة) ودعوته للإصلاح مستظلا بظله ، ومرتبطا بآرائه .

أما هذا الكتاب الذى استقل فيه بنفسه وجعله دستورا للإصلاح فقد جانبه التوفيق فيه ، كما سيتضح ذلك من عرض الجوانب التالية عنه وتقويمها :

١- تصورات المؤلف عن التجديد

٢- أسس الكتاب التى قام عليها

٣- مسلّمات فى الكتاب غير مسلّمة

٤- المادة العلمية فى الكتاب وأمثلته .

٥- هدف هذا الكتاب ومستقبله

(١)

سيطرت على مؤلف «تجديد النحو» تصورات اعتقد أن الأخذ بها يحقق له التجديد فى الأبواب النحوية والمسائل ، والأمر على غير ما اعتقد ، ومنها ما يلى :

* * *

إن آراء ابن مضاء فى كتابه «الرد على النحاة» كانت عن أصول النحو من قياس وتعليل وعامل وتأويل ، ولم تكن عن الأبواب والمسائل ، وقد ذكرت كتب طبقات النحاة واللغويين أن لابن مضاء كتابا اسمه (المشرق فى النحو) - بضم الميم لا فتحها كما ذكر محقق الكتاب - وفى ترجيحى أنه كتاب فى مسائل النحو وأبوابه تطبيقا على ما جاء فى «الرد على النحاة» فهو نحو مُشرق خالٍ مما يكدره من الأوشاب والتعقيدات الذهنية .

ولم يصل هذا الكتاب لنا حتى الآن ، فهو فى حكم المفقود . لكن «تجديد النحو» حمّل ابن مضاء مالا يحتمل ، وقوّله مالم يَقُل .

* جعله يقول «بحذف أبواب كثيرة من النحو تثقل كاهله وتعقد درسه .

وهو لم يقل ذلك ، وانما رأيه «حذف ما لايضر جهله» وحذف هذه الأبواب الكثيرة التى قال بها «تجديد النحو» - ستاتى تفصيلا - يضرُّ جهله، فمنها أبواب لاغنى عنها فى نطق الفصحى وأساليبها ، مثل باب اسم التفضيل، والتعجب وغيرهما . .

* جعله يقول بإلغاء الإعرابيين المحلى والتقديرى

وهو لم يقل ذلك ، وإذا كان مؤلف تجديد النحو قد استنبط هذا المبدأ من مقولته السابقة «حذف ما لايضر جهله» فالرجل أجلّ من أن يلغى هذين الإعرابين ولهما وجه مفيد عنده وعند غيره من النحاة – كما سيأتى بعد .

* وجعله يقول بأنه لاتعرب كلمة لايفيد اعرابها أى فائدة مثل (أنْ : المخففة وأدوات الاستثناء وكم : الاستفهامية والخبرية ، وأدوات الشرط) وغير ذلك .

وإعراب ذلك مفيد كل الفائدة للمتخصصين فى اللغة العربية ، ناهيك بالمتخصصين فى النحو .

لقد تمسك ابن مضاء حقا بمبدأ «حذف ما لايفيد نطقا» ولم يحدد ذلك، والإعراب ليس نحوا ، وانما هو مهارة تكتسب من معرفة النحو ، والنحو لصحة اللغة – كما قال ابن مضاء – والإعراب يؤكد فهم النحو فقط ، فمن شاء فليعربْ ، ولا جناح عليه ولا فضل له ، ومن فهم النحو فقط ولم يعرب ، فلا جناح عليه ، ولم يخلّ ذلك منه بمقصد النحو وهدفه .

والخلاصة : أن آراء ابن مضاء هدفها تيسير مادة النحو بتنقيتها من الأوشاب والفلسفات الذهنية .

وتجديد النحو فهم التجديد على أنه حذف الأبواب أو تلخيص مباحثها أو فصل بعض هذه المباحث عن أماكنها الطبيعية فى أبوابها ، لتجميعها فى أماكن أخرى .

والفرق واضح بين المنهجين والنظرتين وما ترتب عليهما .

* * *

كتاب «تجديد النحو» خلط بين مستويين لدارسيه ، هما مستوى المتخصصين فيه أو المتخصصين فى اللغة العربية عامة ومستوى الشادين فيه من طلاب المدارس ، وترتب على ذلك الخلط بين «التجديد والتيسر» .

يتصور قارئ هذا الكتاب أن مؤلفه كتبه وفى ذهنه تلاميذ ما يسمى الآن «بالمرحلة الأساسية» - الابتدائى والإعدادى - فراح يحذف ويختصر وينقل أبوابا من هنا إلى هناك ومن هناك إلى هنا ، واعتبر ما فعله تجديدا .

والاسم الحقيقى الذى يصح أن يطلق على ما فى الكتاب هو -مع التجاوز- التيسير على الناشئة، بتقديم بعض الأبواب وترك البعض الآخر أو ترك معلومات فوق مستواهم تدرس فى مراحل أخرى من مراحل التعليم. والفرق واضح بين التجديد والتيسير .

لكن الخطر فى هذا الكتاب أنه يسوق قضايا التيسير - أو التشويه إن شئت - بأسلوب التعالى والتوجيه والإرشاد والتأكيد ، مع وسم النحو العربى بالصعوبة والتعقيد والتخلف والجمود .

والأمر لايستحق كل ذلك ، فلا جديد فيما جاء فى هذا الكتاب ، وقد قدم الأساتذة المعلمون المتواضعون من قبل من أمثال «جاد المولى والبجارى والبساطى وعبدالعليم ابراهيم وبرانق والحمادى» هذه المعلومات الميسرة بكفاءة وامتياز على مدى عشرات السنين ، ولم ينسبوا لأنفسهم تجديدا أو شبه تجديد ، بل قدموا ما يناسب التلاميذ من معلومات النحو فى مراحل التعليم المختلفة .

إن ما فى هذا الكتاب لايخرج عما يلى :

أ- حذف أبواب كثيرة - أفاض فى درسها النحاة رحمهم الله - ولها مستوى يفهمها من الطلاب ، وجاءت عليها أساليب الفصحى ، - ففى هذا الحذف تعسف وتجاوز.

ب- اختصار معلومات فى كثير من الأبواب - كشروط أفعل التفضيل والتعجب مثلا - ووصفها بأنها لايحتاج إليها الدارس ولا اللغة .

وهذا حكم خاطئ ، فإن تنوع صور التفضيل أو التعجب تنبنى على هذه الشروط مثلا وقد جاءت أساليب الفصحى شاهدة لها - كما أن لها مستوى من الطلاب يفهمونها ، وتثبت التجربة ذلك حتى فى مرحلة التعليم الأساسى، فطلابها يفهمون شروط التعجب والتفضيل ويطبقونها أحسن تطبيق .

جـ- ما أسماه «إضافات أو زيادات» وهما عن موضوعين بالتحديد «الحذف والترتيب» لقد نقص المؤلف من أبواب النحو ما يتعلق بهذين المبحثين ، ليضعه فى هذا الباب المستقل ، وقد أشبع النحاة هذين الموضوعين – فى معظم أبواب النحو – بحثا فى مكانهما من الأبواب .

والذى جاء فى «تجديد النحو» بتر مايتعلق بهذين الموضوعين من أبوابهما لجمعهما تحت هذا العنوان الذى لا دلالة له «إضافات وزيادات» فإنه لا اضافة هنا ولا زيادة ، بل تشتيت وتمزيق للمعلومات ، وخير منه ما فعله النحاة – رحمهم الله .

* * *

تناثرت فى الكتاب «مصطلحات غريبة» على الدرس النحوى ، حاول المؤلف أن يسوغ بها دعواه للتجديد ، ومنها «تنسيق الأبواب – إضافات وزيادات – الجملة الأساسية – الجملة المستقلة – الجملة الخاضعة» وغير ذلك .

لقد وضع النحاة «مصطلحات وحدودا» للنحو ، أخذ بها الناس – معلّمين ومتعلمين – من مئات السنين ، فما جدوى الإغراب عليهم بهذا الذى يردده هذا الكتاب وأمثاله ، والذى يؤدى إلى الغموض والصعوبة بدلا من التيسير والتوضيح .

لقد شاعت هذه الظاهرة فى عدة كتب ظهرت فى الآونة الأخيرة بدعوى التجديد والمعاصرة ، وقد يتسامح فيها إذا كانت من الثقافة اللغوية العامة التى تطبق مناهج جديدة غريبة أو شرقية على اللغة العربية ، فتؤخذ بهذا الاعتبار – اعتبار الترجمة والنقل – أما أن تقدم فى كتب تأخذ مادتها من تراث العربية النحوى ، ثم تغير المصطلحات بدعوى التجديد ، فهذا مرفوض ، فلدينا من مصطلحات النحو وحدوده ما يكفينا ، والتغيير يحدث الاضطراب والبلبلة ، وهو فضول لا حاجة إليه ولا فائدة فيه .

هل تجد – أيها القارىء – مثلا ضرورة لتغيير ما تعارف عليه المشتغلون بالنحو من «الجمل التى لا محل لها من الاعراب والجمل التى لها محل من الاعراب» بتسميتها

«الجمل المستقلة والجمل الخاضعة»

الجواب واضح ، فهذا تغيير شكلي بمصطلحات غربية ، عندنا ما يكفينا منها وزيادة .

* * *

«تجديد النحو» يقدم أحيانا معلومات مستفيضة هي من أبعد الأمور عن حاجة الناشئة من المبتدئين الذين ذكر المؤلف أن هذا الكتاب أُلِّفَ من أجلهم .

والسبب في ذلك – كما سيأتي – أن المادة العلمية في هذا الكتاب مقتبسة من كتب النحو القديمة ، وليس لمؤلفه منهج من الدرس اللغوي الحديث أو من الميدان التربوي العملي بين تلاميذ التعليم العام ، ليستخدم هذا أو ذاك للتمييز بين ما في كتب النحو وما هو ضروري صالح لمستوى هؤلاء التلاميذ .

فالمؤلف – على أحسن الفروض – دارس تقليدي للنحو ، غير متخصص فيه ، هزّته رغبة التجديد دون أن يمتلك أداته الحقيقية من علم اللغة الحديث أو من الميدان العملي ، فإذا وجد في الكتب النحوية القديمة ما يعجبه نقله دون حاجة إليه .

ويمكن مثلا مراجعة القسم السادس كله مما أسماه «إضافات وزيادات» من صـ ٢٢٣ – إلى صـ ٢٦٤ ، حيث احتشد فيه صنوف من الحذف والتقديم والتأخير شملت باب التنازع والاشتغال وحذف الفاعل وصور الوجوب والجواز في حذف المبتدأ والخبر وتقديمهما أو تأخيرهما والترتيب بين الفعل والفاعل والمفعول به ، وغير ذلك مما اكتظت به كتب النحو التقليدية ولخصها المؤلف بأساليبها وبكثير من أمثلتها ، مما يشق على المتخصص في اللغة العربية حصره والاحاطة به ، فكيف بالمبتدئين الصغار !!

(٢)

الأسس التي قام عليها «تجديد النحو»

ذكر المؤلف أنها ستة أسس ، هي :

١- إعادة تنسيق أبواب النحو .

٢- إلغاء الإعرابين التقديرى والمحلى

٣- لاتعرب كلمة لايفيد إعرابها

٤- وضع تعريفات دقيقة لبعض أبواب النحو

٥- حذف زوائد كثيرة فى أبواب النحو

٦- إضافات وزيادات .

هذه الأسس الستة شرحها المؤلف فى «مدخل» الكتاب ، واستغرق هذا الشرح ما يقرب من خمس وثلاثين صفحة (٨-٤٣) وجاء الكتاب بعد ذلك بأبوابه ومسائله تطبيقا على هذه الأسس ، فهى - إذن - بهذا الاعتبار - تعتبر مركز الكتاب ومحوره وجوهره .

وينبغى التعرف على مقصد المؤلف من هذه الأسس الستة وعلى الرأى فيها بتوضيح موجز بقدر الإمكان .

* * *

القصد من «تنسيق الأبواب النحوية» - بتعبير الكتاب صـ ٤ - أن يستغنى عن عدد منها ، وهاهى الأبواب المستغنى عنها مع ذكر القصد من هذا الاستغناء :

١- الميزان الصرفى	لاحاجة إليه
٢- الإعلال	لاحاجة إليه
٣- الإضافة	تدرس فى الصرف
٤- التوابع	تدرس فى الصرف
٥- كان واخواتها	تنقل إلى باب الحال
٦- (ما - لا - لات) العاملة «ليس»	تنقل إلى المبتدأ والخبر

٧- كاد وأخواتها	هى من المفعول به
٨- ظن وأخواتها	هى من المفعول به
٩- أعلم وأرى	هى من المفعول به
١٠- الاشتغال	من المفعول به أو المبتدأ
١١- التنازع	يعمل الثانى دائما
١٢- الصفة المشبهة	من باب التمييز
١٣- اسم التفضيل	من باب التمييز
١٤- التعجب	من باب التمييز
١٥- كنايات العدد	من باب التمييز
١٦- الاختصاص	من باب التمييز
١٧- المدح والذم	يعرب المخصوص بدلا
١٨- الإغراء	يضم لباب الذكر والحذف
١٩- التحذير	يضم لباب الذكر والحذف
٢٠- الترخيم	لاحاجة إليه فهو لهجة قديمة
٢١- الاستغاثة	يضم إلى باب النداء
٢٢- الندبة	يضم إلى باب النداء

أولا : بنظرة إلى هذا التنسيق لهذه الأبواب أو هذا الاستغناء عنها ، يتضح ما يلى :

أ- أن (١٧ سبعة عشر بابا) منها لم يحدث فيها استغناء بل نقل من مكانها إلى أبواب أخرى ، واحد منها إلى باب الحال ، وواحد إلى باب المبتدأ والخبر

وأربعة إلى باب المفعول به ، وخمسة إلى باب التمييز ، واثنان إلى ما سمى الذكر والحذف، واثنان إلى باب النداء ، وهما منه أصلا ، واثنان إلى مباحث الصرف .

ب- اقتصر في باب «التنازع» على رأى البصريين وحده ، واقتصر فى «المدح والذم» على وجه واحد من اعرابات «المخصوص بالمدح أو الذم» .

جـ- الذى استغنى عنه فعلا - على رأيه - ثلاثة أبواب مهمة : بابان فى الصرف هما : الميزان الصرفى والاعلال والابدال ، وباب فى النحو هو باب الترخيم.

ثانيا : هذه إذن ضجة مفتعلة ، إذ لم يحدث استغناء عن معظم الأبواب ولا حذف لها . والذى حدث هو نقل لها من أماكنها المستقرة من قديم الزمن إلى مواضع أخرى تبدو فيها مضطربة فى موطن غير مناسب لها ، أو هو وضعها تحت عناوين جديدة ليست لها . ومن نماذج هذا نقل باب (كان وأخواتها) إلى (باب الحال) ونقل (باب كاد وأخواتها) إلى (المفعول به) وضم أبواب (الصفة المشبهة والتفضيل والتعجب والاختصاص) إلى باب التمييز ، ونقل (الإغراء والتحذير) إلى ما أسماه (الذكر والحذف).

أما الأبواب التى رأى حذفها فهى ثلاثة فقط - كما سبق - هى : الميزان الصرفى - الإعلال والإبدال - الترخيم .

ثالثا : ما فعله (تجديد النحو) يوصف - بلا مبالغة - بالتكلف ، والتشتيت والاختصار المخل والخطأ - كما يتبين ذلك من التوضيح التالى :

- **التكلف** : يبدو فى نقل أبواب إلى أبواب أخرى وقسرها على الدخول تحت هذه الأبواب .

نقل «كان وأخواتها» إلى باب الحال ، وإعراب الخبر حالا ، بناء على أنها أفعال لازمة .

لقد بنى ذلك على قول ضعيف منسوب للكوفيين ، ولم يجر عليه العرف بين المشتغلين بالنحو من قديم ، ولا يترتب عليه أى فائدة ، فالخبر يأتى جامدا كثيرا ، مثل

(صار البذر شـجرا) و (كان الصبر زاد المسـافر) و (أصبحـت المواد عمارة) ، وينبغى - كما يرى تجديد النحو - تأويل هذه الأخبار - وهى كثيرة كثيرة - بالمشتق ، ولا فائدة وراء ذلك ، وإنما هى رغبة الدمج ، والتكلف والتعنيت .

والأيسر ما رآه جمهور النحاة ، بافراد باب «كان وأخواتها» واستقلا له، وهو منسجم مع استعمال اللغة وعرف المتعلمين .

نقل باب «كاد وأخواتها» إلى «المفعول به» وتسويغ ذلك بتمحُّلات وتهويمات حول آراء متصيدة لسيبويه أو غيره ، للقول بأن خبر هذه الأفعال «مفعول به» .

والأمر - كما يرى النحاة - أدقّ وايسر ، فخبر هذا الباب يكون جملة ، سواء اقترن بالحرف (أن) أو لم يقترن به ، مثل (كاد الفقر يكون كفرا - أو - كاد الفقر أن يكون كفرا) .

و (أن) ناصبة لا مصدرية - هذا ما عليه جمهور النحاة .

فكيف يتقبل عقل متعلم - أى متعلم فى أى مستوى من العُمر - أن تكون جملة الخبر مع هذه الأفعال «مفعولا به» مع التأويل البعيد الذى يقول به «تجديد النحو» بِتَصَوُّر أن جملة (كاد الفقر يكون كفرا) هى (قارب الفقر كونه كفرا) إنه اغراق فى التصور والحمل على المعنى ، ولا تيسير فى ذلك ولا تجديد .

هذان مثالان فقط ، والأمثلة كثيرة فى هذا التجديد .

- **التشتيت** : معلوم أن مباحث «الذكر والحذف» و «التقديم والتأخير» توجد فى
* كثير من أبواب النحو ، كالمبتدأ أو الخبر - الفاعل - والمفعول - وغيرها .
فتذكر بعد معرفة مباحث الباب الأساسيةً ، وتفهم فى موضعها وفى سياقها .

لكن «تجديد النحو» فصلها عن أبوابها ، وجعل لها فى نهاية الكتاب قسما سماه «إضافات» وراح يتتبع مظاهر الحذف والترتيب ويفيض فى ذكر مواضعهما فى أبواب النحو المختلفة .

هذا تشتيت لانفع فيه ، بل هو ضار لهذه المباحث وللمتعلمين الذين ينفعهم أن

يدرسوا مباحث الباب الواحد فى مكان واحد ، لا أن يدرس الباب موزعا هنا وهناك . ومن ذلك :

* القول بأن «المركب الاضافي» و«التوابع» من مباحث الصرف – أى المفرد –

فالإضافة معدودة فى التراكيب ، ويطلق على أمثلتها «المركب الإضافى» ويترتب عليها الكثير من خواص التراكيب فى الإعراب وحذف التنوين ونون المثنى وجمع المذكر وتقيد معانى مختلفة ، ويحدث فيها الفصل بين المضاف والمضاف إليه .

فأين هذا كله من دراسة بناء المفرد وهى مهمة «الصرف» ؟

والتوابع – من نعت وتوكيد وعطف وبدل – أخذت اسمها من تبعيتها لتركيب سبقها أو جاءت فيه ، فلا وجود لها إلا فى تركيب تعرب فيه بإعراب متبوعها ، وما لهذا ومباحث الصرف !!

لقد درس النحاة هذه الأبواب فى موضعها المناسب دون نبو أو نشاز .

– الاختصار المخل : ويكون الاختصار مخلا إذا لم يمثل الأساليب العربية وينطبق عليها .

* ذكر «تجديد النحو» عن الأبواب التى حشرت حشرا فى «باب التمييز» وهى : (الصفة المشبهة واسم التفضيل والتعجب والاختصاص) أنه يكتفى فيها بالمثال ، وتترك مباحثها الأخرى وشروطها .

ومباحث هذه الأبواب من الكثرة بحيث يصلح بعضها رسائل علمية جامعية ، وترك شروطها يخل بالأساليب العربية ، وللقارىء أن يرى أثر هذه الشروط فى أساليب التفضيل التالية :

ضوء الشمس أسْطَعُ من القمر	الصياغة من الثلاثى
ضوء الشمس أشد اشراقا من القمر	الصياغة من غير الثلاثى
ضوء الشمس أوْلَى أن يُعرّض له البنات	الصياغة من غير الثلاثة المبنى للمجهول

والاكتفاء بالمثال فى هذه الأبواب معناه : صرف النظر عن معرفة أحوال اسم التفضيل والاختصاص وصور التعجب والتفضيل .

* ومن الاختصار المخل الأبواب التى قصر إعرابها على وجه واحد ، وهى (المدح والذم) فأعرب «المخصوص» بدلا ، و (التنازع) باعمال الثانى وحده .

ففى هذين البابين وجوه أخرى للإعراب ، وكان الأولى أن يقال : يختار فى إعرابها هذا الوجه ، ولمن شاء اختيار غيره ، فلا يُضَيّق ماوسعه النحاة على الناس .

- أما الخطأ : فيتمثل فى حذف أبواب لها ضرورتها فى دراسة العربية ، هى: الميزان الصرفى والإعلال والترخيم .

* جاء فى (تجديد النحو ص - ١١ ،» ولم أُعْنَ بفكرة الموازين الصرفية أى عناية لأنها تدخل على المباحث الصرفية تعقيدا هى فى غنى عنه ، وبالمثل حذفت باب الإعلال ، لأنه يفرض للحروف المعتلة فى الكلمات صورا لاتجرى فى النطق» .

أما لماذا عَنَّى علماء النحو والصرف أنفسهم فى مباحث هذين البابين ، فهو سؤال لا يدخل فى الاعتبار .

- إن «الميزان الصرفي» له صلة أكيدة ببحوث الاشتقاق والأصلى والزائد للكلمات ، وما يترتب على ذلك كله من معرفة معانى الكلمات فى المعاجم . وهذا الباب يدرس لطلاب الكليات المتخصصة فى العربية ، وقد مارست أنا شخصيا تدريسه ، ولم يشك أحد من تعقيده أو من صعوبته .

- أما «الإعلال» فهو ضرورى أيضا لمعرفةً مسلك العربية فى التبادل الصوتى وما يترتب على ذلك من فهم معانى الكلمات بناء على هذا التبادل .

«الإعلال» مبحث مهم وضرورى ، وعلى مبلغ علمى فإنه يدرس فى الكليات المتخصصة مثل «دار العلوم والآداب» ، ويؤخذ منه نماذج وأمثلة لمراحل التعليم العام ، حتى فى المرحة الاعدادية .

لقد اختلط الأمر على «تجديد النحو» فلم يفرق بين ضرورة هذين المبحثين لدراسة العربية وتأجيلهما لمستوى الطلاب الذى يستوعبهما ، فرأى الانصراف عنهما وحذفهما – وهذا خطأ فى التصور والتقدير لاشك فيه .

* أما «الترخيم» فلم يفتح له باب فى «تجديد النحو» لأنه لهجة عربية قديمة أصبحت الآن مهجورة .

ونحن لاندرس النحو لما يحدث الآن فقط ، مع أن الترخيم تحول الآن فى مواقف «التدليل» إلى نوع من الاختصار للكلمات ، إذ يقال لمن اسمها آمال» ُلولا ، ولمن اسمه شوقى «شوق» ومن اسمه فاروق «روقه» .

أما فى النصوص القديمة فقد ورد فيها بكثرة ، مثل :

قول امرىء القيس : أفاطم مهلا بعض هذا التدلل

وإن كنت قد أزْمعت صَرْمِى فأجملى

قول عنترة : ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها

قيلُ الفوارس : ويك عنتر أقــدم

قول جميل : ألا ليت أيامَ الصفاء جديدُ

ودهرا تولى يابُثَيْنَ يعـــــــود

قول كثير : أيادى سَبَا ياعز ماكنت بعدكم

فلم يحـلَ للعينين بعـدك منظرُ

هنا أيضا خلط واضح بين ضرورة الأبواب للناشئين وضرورة وجودها ودراستها ، فاقتراح حذف الترخيم واطراحه خطأ لاشك فيه .

* * *

الأساس الثانى فى «تجديد النحو» هو : إلغاء الاعرابين التقديرى والمحلى .

وملخص ما يقترحه الكتاب عن ذلك ما يلى :

١- المقصور والمنقوص	يكتفى فيهما بالقول فى محل رفع أو نصب أو جر
٢- المبنيات	يكتفى فيها بالقول فى محل رفع أو نصب أو جر
٣- الجمل التى لها محل من الاعراب	يكتفى فيها بالقول : خبر - حال - صفة
٤- متعلق الجار والمجرور والظرف	لاداعى لذكر ذلك
٥- اضمار «أن» فى نصب المضارع	ليس هناك إضمار
٦- القول بالعلامات الأصلية والفرعية فى الأعراب	ليس هناك أصلى وفرعى .

ونظرة إلى هذه الموضوعات يتضح أنه لاتجديد فيها ، بل خلط وترك وأخذ بالقول الضعيف للنحاة .

- الخلط : واضح فى جعل ما يجرى على الأسماء المعتلة مثل (الفتَى - الهادِى) هو نفسه ما يجرى على الأسماء المبنية مثل (مَنْ - كَيْف) بأن يقال فى كل من النوعين «فى محل رفع أو نصب أو جر»

والنحاة على صواب فى فصل كل من النوعين ، فأعربوا الأسماء المعتلة وجعلوا قسما كبيرا للأسماء المبنية ، إذ راعوا مايلى : -

* الأسماء المعتلة تثنى وتجمع ، وتعود حروفها المعتلة إلى أصولها فى صورها المشتقة فيقال (فَتىً - فَتَيَانِ - فَتَيَات - فِتْيَة) ويقال (القاضِى - القاضِيَان - القضيّة - أقْضِيَة) - ولا كذلك الأسماء المبنية .

* للأسماء المعتلة جذور يكشف عنها فى معاجم اللغة لمعرفة معناها - ولا كذلك الأسماء المبنية .

* تظهر علامات الاعراب على بعض الأسماء المعتلة كالمنقوص فى حالة النصب

مثل (ياقومنا أجيبُوا دَاعِيَ الله) وروعى ذلك فى حالات الاعراب الأخرى التى لاتظهر فيها العلامات، فقدرت –ولا كذلك المبنيات فلم يظهر عليها علامات قط..

إن القول بفكرة «المحل» والاكتفاء بها كما جاء فى «تجديد النحو» ضياع لكل هذه الاعتبارات السابقة ، إذ يترتب على ذلك مصادرة لمن يتطلع لمعرفتها بعدُ من المتعلّمين .

– الترك : يتضح هذا فى الجمل التى لها محل من الإعراب (خبر – حال – صفة) فالمقترح فيها أن يقال فى مثل (القمر نوره هادىء) ان جملة (نوره هادىء) خبر ويكتفى بذلك ، فلا يقال : فى محل رفع ،

وهذا مأخوذٌ به فعلا فى مراحل التعليم المتقدمة .

لكن فكرة «المحلّ» هذه لها عند النحاة معنى ، ومعناها أن الجملة فى «موقع» لو كان فيه مفرد معرب لرفع أو نصب أو جُرّ ، فالجملة السابقة لو نُطقت هكذا (القمر هادئ النور) لرفع المفرد وهو كلمة (هادئ) وهكذا شأن بقية الجمل ذات المحل الإعرابي.

الصحيح فيما اقترحه «تجديد النحو» أن يقال عنه : انه اختصار من اجل المبتدئين، لكنه ليس «تجديدا» ولا ما يشبه التجديد .

تعليم ما قاله النحاة فى الجملة السابقة (خبر ، فى محل رفع) له وجاهته حين يتقبله عقل المتعلم فى أيٍّ من مراحل تعليمه ، والقول به محسوب للنحاة لا مأخوذ عليهم ، والرأى الموضوعى أن يقال «ينبغى إرجاء ذلك لا إلغاؤه» .

– أما الأخذ بالقول الضعيف فواضح فى أمرين :

* ففى متعلق الجار والمجرور رأى غير مشهور منسوب «لابن السراج» عن خبر المبتدأ الظرف والمجرور من أن كلا منهما قسم برأسه ، وليس من قبيل المفرد ولا من قبيل الجملة .

* كذلك الأمر فى اضمار «أن» إذ نقل عن بعض الكوفيين انه لا إضمار ، لكن المعول عليه فى كتب النحو والتفسير وإعراب القرآن والحديث رأىُ البصريين فى القول بالإضمار . ولهذا الرأى منطقه وفكرته وهدفه فى اطراد القواعد .

يوصف ما قدمه «تجديد النحو» عن هذين الأمرين انه اختيار للرأى الأضعف قيمة، ولايصح أن يقال عن ذلك انه إلغاء ، أو تجديد ، فهو فى الحقيقة تضييع وتبديد .

* * *

والأساس الثالث عنوانه (الإعراب لصحة النطق)

فى عنوان هذا الأساس تجاوز ، والعنوان الدقيق هو (الإعراب ينبنى على صحة النطق) إذ الإعراب مهارة لسانية تنبنى على التطبيق الصحيح لقواعد النحو على الكلام ، فيكون النطق الصحيح ، ويجيء بعد ذلك الإعراب الذى يتحدث فيه عن التطبيق الصحيح للقواعد على الكلام الصحيح .

وقد يؤدى النحو مهمته فى النطق دون حاجة للإعراب التقليدى المتعارف عليه .

والأدوات التى رأى «تجديد النحو» إلغاء إعرابها هى :

* أسلوب (لاسيَّما)

* أدوات الشرط

* (أنْ المخففة) و (كأنْ : المخففة)

* بعض أدوات الاستثناء (غير – سوى)

* (كم الاستفهامية) و (كم الخبرية)

وأقول : إن هذه الأمور الخمسة لايكاد أحد يشغل نفسه بإعراب معظمها على مستوى مراحل التعليم العام .

لكن : من المفروض معرفة بحوثها وضرورة هذه المعرفة لصحة النطق وضبط ما ورد منها فى العربية الفصحى .

– من القرآن : «علم أنْ سيكونُ منكم مرضى» .

– من القرآن : «فجعلناها حصيدا كأنْ لم تغنَ بالأمس»

– من القرآن : «كَم تركوا من جناتٍ وعيون»

– من الحديث : ما صام رسول الله شهرا كله غير رمضان .

إن كلمة (إلغاء) التى أغرم بها «تجديد النحو» تطلق هنا وهناك دون ضابط أو رابط ، فتُلبِسُ على دارسى النحو أمورهم ، ومنها هذه الأدوات التى تصور المؤلف صعوبة إعرابها ، فرأى إلغاءها واطّراحها ، دون مراعاة لضرورتها للنطق الصحيح ودرسها لمستوى خاص من المتعلمين .

* * *

وضع ضوابط وتعريفات لبعض أبواب النحو – هذا هو الأساس الرابع للتجديد. أية ضوابط وأية تعريفات !! كأنما النحو فى حاجة إلى مزيد من الضوابط ومن التعريفات ، وهو قائم فى مجموعة عليهما ، ومع الجهود المبكرة فى النحو ألف «الفراء» كتابه «الحدود النحوية» وتوالت جهود التعريفات والحدود ، حتى اشتهر النحو بأنه «علم المعايير» لا «الوصف» بل دخلت هذه التعريفات وشرحها وتخريجها ضمن المباحث الذهنية والمنطقية .

فلنتأمل نماذج الضوابط التى جاء بها «تجديد النحو» مع مقارنتها بما ذكره النحاة :

* المفعول المطلق : مصدر يؤكد عامله أو يبين نوعه أو عدده (النحاة)

اسم منصوب يؤكد عامله أو يصفه أو يبينه ضربا من التبيين (التجديد)

* الحال : – وصف فضلة مذكور لبيان هيئة صاحبه (النحاة)

- صفة لصاحبها ، نكرة مؤقتة منصوبة (التجديد)

وبقليل من التأمل يتضح أن تعريفات النحاة منضبطة واضحة فى مقابل الأخرى المقترحة، فهى غائمة غير منضبطة .

ففى المفعول المطلق : كلمة «مصدر» فى تحديد النحاة محددة لما يجىء مفعولا مطلقا فى مقابل كلمة اسم هكذا عامة ، فليست كل الأسماء تقع مفعولا مطلقا بل الأسماء من نوع «المصدر» فقط .

ويحار المرء فى تفسير عبارة «ويبينه ضربا من التبيين» أى انضباط فى هذه العبارة الفضفاضة التى جاءت فى كلام صاحب «التجديد» .

وفى الحال ، فات على المؤلف الفرق بين المصطلحين «الصفة والوصف» فالصفة من مصطلحات النحو ، وهى ترادف «النعت» أما «الوصف» فهو من مصطلحات الصرف ، ويقصد به ما يدل على ذات وصفة لها من الأسماء وذلك (اسم الفاعل والمفعول والصفة المشبهة والتفضيل والمبالغة) .

استعمل «تجديد النحو» الصفة ، واستعمل النحاة «الوصف» والنحاة أضبط وأدق، فالحال يكون من هذه الأسماء «الوصف» ، والحال غير النعت .

ولا يوجد ضبط فى تحديد الحال بأنه «نكرة مؤقتة» لأنه قد يكون مؤقتا

مثل : قرأت الكتاب مدققًا .

ولازما مثل : خلق الله جسم الإنسان مستقيما .

النحاة فى ذلك أضبط وأدق ، وألفاظ التعريف للحال عندهم موضوعة فى مواضعها ومؤدية دلالاتها تماما .

إذن هى رغبة التجديد بما لا فائدة فيه ولا ضرورة له .

* * *

الأساس الخامس عنوانه (حذف زوائد كثيرة)

ومن هذه الزوائد التى تستحق الطرد من النحو والصرف ما يلى :

١- حذف شروط اسم التفضيل والتعجب واسم الفاعل وكل الأدوات العاملة ، مثل (إذن - حتى)

٢- حذف قواعد اسم الآلة والتصغير والنسب .

٣- حذف أحوال المفعول معه والحال مع عاملها وصاحبها وعمل المصدر والتطابق بين المبتدأ والخبر .

٤- التخفف من الأبحاث النحوية الصعبة مثل : العطف على اسم (إنّ) ، وتخفيف ذوات النون المشددة من أخواتها ، وتابع المنادى ، وإعراب مثل (لاحول ولا قوة إلا بالله).

لقد وصفت هذه المحذوفات كلها بأنها «زوائد» والمقصود أنها «فُضول» فى دراسة النحو ، واقترح الكتاب الاكتفاء عن هذه الأبواب والمباحث بالأمثلة .

ياسيدى : كل شيء يجوز حذفه وبتره ، لكنه يخل بصحة اللغة، وأنت - للأسف - مُغْرًى بهذا الحذف تحت ما يسمى «التجديد أو التيسير» أو ما شئت من الأسماء .

لايتصور منصف حذف كل هذه الأبواب والشروط وأحوال الكلام وصوره ويسمى هذا «تجديدا» .

ليست هناك صعوبة لها واقع حقيقى فى فهم اسم الفاعل وصور التفضيل والتعجب وأسماء الآلات والحال وصاحبها والتطابق بين المبتدأ والخبر ، وصور التصغير والنسب، وأغلب الظن أن هذه الصعوبة فى ذهن مؤلف «تجديد النحو» وحده .

منذ زمن طويل أفْهَمَ المعلمون فى مراحل التعليم العامة هذه المباحث لطلابهم بالقدر المناسب لمستواهم وبالتدريبات المتنوعة الموضحة المرتبطة بنصوص التراث

الأصلية ولغة الحياة المعاصرة ، ولم يقل أحد منهم بالحذف أو البتر الذى تجرأ على القول به هذا الكتاب الذى جاء فى آخر الزمان .

* * *

أما الأساس السادس فهو بعنوان (إضافات وزيادات)

وتحت هذا العنوان مباحث شبعت دراسة فى كتب النحو الصرف ، واقترح لها اسمٌ برّاق (إضافات وزيادات) ولا إضافة فيها ولا زيادة .

ولكيلا أشق على القارىء أقدم له «عينة» مما جاء تحت هذا العنوان :

* ألف الوصل وألف القطع – الفرق بين نون المثنى وجمع المذكر ونون الأفعال الخمسة – المصدر الصناعى – المضاف والمضاف إليه – نون الوقاية – تأنيث الفعل وتذكيره مع جمع التكسير – الأفعال اللازمة للبناء للمجهول – عمل المصدر – الحروف الزائدة جارة وغيرجارة – الذكر والحذف فى أبواب النحو – التقديم والتأخير فى أبواب النحو – الجمل المستقلة وغير المستقلة .

لا اضافة ولا زيادة ، وانما هى مباحث نضجت فى النحو حتى احترقت ، وما فعله كتاب «التجديد» انه بترها من مواضعها المستقرة فيها فى أبواب النحو، واختصرها اختصارا مخلا ، ووضعها تحت هذا العنوان الذى يعرف «الدكتور ضيف» قبل غيره أنه لا ينطبق بتاتا على هذه المباحث ، وكان الأولى أن يكون العنوان (مباحث مختارة من أبواب النحو والصرف)

(٣)

فى كتاب «تجديد النحو» تجاوزات كثيرة ، تساق فيه كأنها «مُسلَّمات» مفروغ منها، بهدف تسويغ إلغاء الأبواب والمسائل أو بترها أو تمزيقها ، فالغاية تبرر الوسيلة ، وهذه المسلمات – مع التحقيق والدقة – دعاوى بغير دليل ، قد يمرُّ عليها القارىء العادى – وربما المتخصص العادى أيضا – مرورا عابرا ، فيصدقها ، ويصدق ما ترتب عليها ، خصوصا أنها صدرت من عالم كبير له رصيده المعنوى فى نفوس العوام والخواص .

هذه المسلمات «بالنظر الفاحص المتمرس المتمكن من خفايا النحو والصرف تتهاوى وتنوب ، ويزول عنها مالها من بريق ، فإذا هى سراب خادع .

وسأقدم منها ثلاث نماذج فقط ، ثم أدل على عدد منها فى الكتاب .

* صــ ١٤ : عن الغاء باب (ما : الحجازية)

قال : ورد لها من الشواهد القرآنية (ما هذا بشرا) و (ماهُنّ أمهاتِهم) و (ما محمدٌ إلّا رسول) .

وقال : يوجه هذا الباب كله إلى باب المبتدأ والخبر «بناء على أن «ليس» التى حملت عليها «ما» وجهت إلى باب الحال ، ويعرب الخبر المنصوب بعد (ما) منصوبا بنزع الخافض – وهو رأى كوفى ضعيف .

وقال : إن رفع الاسم ونصب الخبر لايكاد أحد يستعمله الآن فى لغتنا الأدبية وإنما المستعمل الآن ما يماثل الآية الثالثة (وما محمد إلا رسول) .

– وكل هذه «المسلمات» السابقة هدفها حذف هذا الباب أو إدماجه فى باب المبتدأ والخبر – وهى غير مسلمة .

فنقل (ليس) إلى باب الحال مع بابها كله – باب «كان» – اقتراح غير مقنع ، وسبق الرأى فيه .

ونصب الخبر على نزع الخافض دائما تكلف لا مبرر له ، خصوصا أن النصب على نزع الخافض مقصور على السماع إلا فى حالات خاصة ليس منها هذا الموضع .

واللغة الأدبية لم تترك هذا الاستعمال القرآنى السَّلِس ، فمن المألوف أن يقال:

ما أنت وصياً علينا

ما الحقُّ ضائعا وإن طال الزمن

ما سِرُّك باقيا حين تبوح به .

ما استعمال لغة القرآن متروكا بالزعم والادّعاء .

* جاء فى «تجديد النحو» : للنعت صيغة قديمة قل استعمالها الآن ، وفيها يتبع النعت المنعوت فى التعريف والتنكير والإعراب ، ولا يتبعه فى التذكير والتأنيث والإفراد والتثنية والجمع .

والمقصود بهذا الكلام الطويل «المطوط» ما يطلق عليه فى النحو « النعت السببي».

– إن استعمال النعت السببى فى الفصحى عريق ومتجدد ، بل جميل ورائع، وله مذاقه ووجاهته .

قال تعالى : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها

قال الرسول (ص) : إن الله يرزق عباده الطائعين والعاصين الساعية أقدامهم والساكنة أجسامهم .

قال الرسول (ص) نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ

ومن الاستعمالات الشائعة التى تتردد على آذاننا كل يوم :

على الطلاب الآتية أسماؤهم مقابلة عميد الكلية

وزعت بطاقات الدعوة على المدعوين المقرر اجتماعهم .

صار الفقراء المثقف أبناؤهم أغنياء بعلمهم

قرأت كتابين مفيدا مغزاهما .

«للنعت السببى صيغة قديمة قل استعمالها الآن» مقولة مرفوضة ينفيها استعمال الفصحى قديما ... والآن !

* صـــ ٢٤٦ جاء هذه العبارة : «اللغة العربية كانت فى الأصل لغة شعرية» والهدف من هذه المقولة تسويغ ما جاء فى العربية من صور التقديم والتأخير

والحذف ، إذ حدث ذلك فى الشعر - وهو الأصل - وأخذ به النثر .

وهذه العبارة غير منطقية ولا واقعية ، لأن الأقرب إلى الواقع أن الأصل فى الاستعمال هو «النثر» الذى يكون وسيلة التعامل العادى والراقى ، وتقضى به حوائج الناس ، ويحقق التواصل بينهم ونقل أفكارهم ومشاعرهم .

فالتقديم والتأخير والحذف من خصائص الفصحى نثرا أو شعرا ، وليست فى حاجة لما يسوغها ، وانما الذى فى حاجة إلى ذلك هو ما جاء فى الشعر مما لايتفق مع النثر مما أسماه النحاة «الضرائر» فقد تفردت هذه الضرائر عن النظام اللغوى العام ، فلفتت أنظار علمائنا - رحمهم الله - وكان لهم منها مواقف توجيهات مشهورة ومذكورة.

* ثم أشير إلى ما صادفنى من هذه التجاوزات فى كتاب «التجديد» :

- صـ ١٤ : (لا) : العاملة عمل «ليس»

قال عنها : لم يأتِ الخبر بعدها منصوبا إلا فى مثال واحد قديم .

- صـ ١٠٢ : صياغة اسم الهيئة من غير الثلاثى

- صـ ١٠٣ : تقسيم الأسماء إلى (موصوفات وصفات)

- صـ ١٠٤ : وليس لصيغ المبالغة قاعدة معينة

- صـ ١٢٩ : البدل يكون حين يتقدم النعت على المنعوت

- صـ ١٣٢ : قواعد «التصغير» لانحتاج إليها الآن - وكذلك قواعد «النسب»

- صـ ١٧٥ : إعراب الزمان المبهم أو بنائه حين إضافته للجملة .

- صـ ١٩٣ : اعراب المختص فى «أسلوب الاختصاص» تمييزا

- صـ ٢١١ : (إنْ - و - لو) لوصل الكلام

- صـ ٢٤٨ : تقدم خبر (انّ) وخبر (كان وأخواتها) متكلف فى الاستعمال العربى .

– ص ٢٥٣ : التفريق بين دلالة الجملتين الفعلية والاسمية .

ماذكر عن هذا الذى دللت عليه بصفحاته ليس تجديدا ولا تيسيرا ، بل ادعاء وتخييل ، لايثبت أمام واقع استعمال اللغة والفهم الصحيح لخصائصها .

(٤)

مادة الكتاب العلمية وأمثلته :

– هى – فى مجملها – تلخيص من كتب النحو القديمة ، أو بعبارة أخرى : هى «مَتْنٌ مختصر» منقول من هذه الكتب ، فماذا يعنى كتاب من (٢٦٤ صفحة) يضم ما اختاره مؤلفه من مباحث النحو والصرف بجوار أسفار النحو العملاقة ، مثل «كتاب سيبويه وشروحه» و «شروح الألفية» و «شرح المفصل» بل ماذا يعنى هذا الكتاب بجوار الكتب الميسرة فى النحو مثل «الجمل» للزجاجى ، و «اللمع» لابن جنى ، و «شذور الذهب وقطر الندى» لابن هشام .

وليس لهذه المادة العلمية فى الكتاب مذاق خاص أو أسلوب سلس أو عرض جديد يتميز به مؤلفه، فيجذب القارىء إليه .

إنها «مادة علمية تقليدية» تدخّل فيها المؤلف بما أخرجها عن القوة والشموخ اللذين تمتاز بهما فى مصادرها القديمة التى استمدت هذه المادة منها .

– والأمثلة صناعية باهتة ، لاتخدم اللسان ولا تربى الملكة ، لأنها إما عن «زيد وعمرو» أو أشتات من جمل دارجة مفككة المعانى ، وليس لها صلة بلغة الحياة فى مستواها الراقى أو بلغة الأدب القديم أو الحديث .

فليس للمؤلف جهد إبداعى يستحق الذكر فى هذه المادة العلمية أو أمثلتها أو طريقة عرضها ، ليقدم بها نماذج تصلح للقدوة فيما يرجوه لها من نسج كتاب المتعلمين على منوالها والتأليف على مثالها .

ومن الواضح أن المؤلف يقف خارج الساحة يقرر نظريا ما يريد من أبواب النحو ومسائله، وعلى غيره أن ينفذ ما ارتآه، ولعله لو طلب منه ذلك التنفيذ العملى لكتب المتعلمين

بناء على ما جاء فى كتابه لأضنّـه ذلك وشق عليه – ما أيْسَرَ الكلام وما أصْعَبَ العمل !

– فتحت كتاب «التجديد» اعتباطا فى موضعين ، وجدت فيهما مايلى :

* صـ ٩٤ عن (جمع المذكر السالم)

الجمع ثلاثة أنواع ، جمع مذكر سالم وجمع مؤنث سالم وجمع تكسير ، ولكل جمع قاعدته الخاصة ، وقاعدة جمع المذكر السالم للمفرد الصحيح الآخر اسما أو صفة إضافة واو ونون مفتوحة إلى المفرد رفعا وياء ونون مفتوحة نصبا وجرا ، مثل «الزيدون أقبلوا – رأيت الزيدين – تحاورت مع الزيدين» .

* صـ ١٨٣ أقسام الحال :

الحال – مثل الخبر – تنقسم إلى ثلاثة أقسام ، فهى اما مفردة وإما جملة اسمية أو فعلية وإما شبه جملة ، والمفرد هنا كالمفرد فى الخبر يقابل الجملة وشبه الجملة فيشمل الإفراد والتثنية والجمع ، مثل «أقبل زيد راضيا – أقبل الزيدان راضيين – أقبل الزيدون راضين» ومثل «أقبلت هند راضية – أقبلت الهندان راضيتين – أقبلت الهنود راضيات» .

والجملة الاسمية مثل «جاء زيد والشمس طالعة»

والجملة الفعلية مثل «جاء زيد يضحك – جاء زيد وقد غربت الشمس»

هل تجد – أيها القارىء – جديدا فى هذين النموذجين فى المادة العلمية أو الأمثلة؟ النمط واحد بينهما وبين ما نقلت عنه من مصادرنا القديمة ، وكتاب «تجديد النحو» على هذا النمط نفسه .

وبعـــــــــــــد

فهذا الكتاب لايخدم المتعلمين للعربية فى مراحل التعليم العام ولا يخدم المتخصصين فيها فى الكليات الجامعية ، فهو شاق على هؤلاء وأولئك فى مادته وطريقة عرضه وأمثلته وما فيه من تكلف فى توجيه الأبواب والمسائل ونقلها واختصارها أو ابتسارها ، سيان !

وهو بالنسبة للمتخصصين فى النحو والصرف معلومات يعرفونها ويعرفون مصادرها جيدا ، فهى فى حكم «البديهيات» فى أذهانهم ، كما يعرفون أن أىّ كتاب قديم – ولو من المختصرات – فيه إحكام وتكامل وإفادة عن هذا الكتاب المتهجم

لقد قال المؤلف صـــ ٨ فى المقدمة : وإنى لشديد الأمل فى أن يصبح نهج هذا الكتاب وتبويبه ومادته عتادا يرجع إليه مؤلفو كتب النحو التعليمى .

وأقول له : لا أظن أن لهذا الكتاب مستقبلا ، فلا هو صالح للناشئين ولا للمتخصيين فى العربية عامة أو النحو خاصة .

نعم ... سيقرؤه الكثيرون بسبب اسمه البراق «تجديد النحو» واسم مؤلفه اللامع «شوقى ضيف» ثم يبتسمون فى غيظ وسخرية ، لأنه لا جديد فيه وضرره أكبر من نفعه (فأما الزّبدُ فيذهب جُفَاء وأما ما ينفعُ الناسَ فيمكثُ فى الأرض) .

نحو الصنعة ونحو اللغة

«صعوبة النحو العربي» فكرة شائعة لدى كثير من الدارسين المتخصصين فى غير النحو واللغة من المشتغلين بالدراسات الإنسانية من أدب وقانون وتاريخ واقتصاد واجتماع ، ناهيك بالمشتغلين بالعلوم التجريبية من طب وعقاقير وكيمياء وفيزياء وهندسة.

وقد ارتبط النحو العربى فى أذهان العوام - لاندرى لماذا - بالصعوبة والإغراب وعسر الفهم ، فإذا حدث فى أحد المواقف العادية فى الحياة أن أخطأ أحدنا التوفيق فى الحديث إلى أحد العوام ، فلم يراع المستوى الاجتماعى الذى يتحدث إليه ، فاستعمل كلمة أو عبارة من الفصحى ، تند عن فهم من يحدثه أو يتعامل معه ، قابله الآخر بالدهشة والاستغراب ، وربما قال لمن حوله ساخرا : انه «يتحدث بالنحَوى» - بفتح الحاء - وربما ضج الحاضرون بالضحك من الموقف كله ، وقد يمضى من استعمل الفصحى فى مجتمع العوام دون قضاء حاجته بسبب «النحَوى» .

«فصعوبة» النحو إذن فكرة تكاد تصل إلى حد البديهيّات بين جميع المستويات الاجتماعية المختلفة ، ابتداء من المتخصصين فى النحو الذين يرجون أن تستعمل الفصحى النقية فى مجالات الفكر الراقى والتأليف وإلقاء المحاضرات والخطب وتداول الأحاديث الجادة والحوار ، وانتهاء بأولئك العوام الذين درجوا على استعمال العامية فى شئون الحياة العادية من بيع وشراء ومن تواصُل وود أو تنافر وصد ، ومن قضاء المنافع اليومية المتجددة كل لحظة ، ومن المشاركة المبتهجة فى السراء أو المؤاسية فى الضراء .

وفى رأيى أن هذا الذى شاع وذاع عن «صعوبة النحو العربي» ليس صحيحا على إطلاقه ، ففى الموضوع جانب صحيح وجانب غير صحيح ، ففى تراثنا من النحو العربى مادة علميّة تخدم اللغة نطقا وقراءة وكتابة ، وهى مادة ضرورية جديرة بالاحترام

والفهم والتطوير والتنوير ، وفيه مع ذلك ركام هائل من نحو الصنعة الذى خضع لإعمال الذهن ، وزاد بتطاول الزمن وتأثر بكثير من المناهج الدخيلة على الدرس اللغوى من المنطق الأرسطى والفلسفة اليونانية ، كما تأثر بكثير من مناهج البحث فى العلوم الإسلامية الأخرى كالفقه وعلم الكلام وعلم الجدل والمناظرة .

«كتب النحو» التى تستخدم فى المستوى الجامعى مباشرة أو نقلا منها تضم مادة وافرة ، قسم منها نافع جدير بالأخذ وصالح للطلاب بعد حسن العرض وتنظيمه وجمال الأمثلة والنصوص ، نسميه «نحو اللغة» وقسم آخر كبير ملتبس مع هذا السابق ومختلط به وهو دخيل معوق نسميه «نحو الصنعة» وقد حدد أبن مضاء «هذين النوعين بقوله : «أنى رأيت النحويين – رحمة الله عليهم – قد وضعوا صناعة النحو لحفظ كلام العرب من اللحن وصيانته عن التغيير ، فبلغوا من ذلك إلى الغاية التى أمّوا ، وانتهَوا إلى المطلوب الذى ابتغَوا ، إلا أنهم التزموا مالا يلزمهم ، وتجاوزوا فيها القدر الكافى فيما أرادوه منها ، فتوعرت مسالكها ، ووهنت مبانيها ، وانحطت عن رتبة الإقناع حججها .

على أنها إذا أخذت المأخذ المبرأ من الفضول ، المجرد عن المماحكات والتخييل ، كانت من أوضح العلوم برهانا ، وأرجح المعارف عند الامتحان ميزانا » .

وكتابة هذا الموضوع تتناول ما يلى :

١- مظاهر الصنعة فى النحو مما لاضرر فى تركه .

٢- سمات «نحو اللغة» مما يخدم استعمالها نطقا وقراءة وكتابة .

٣- دراسة ميدانية لبعض الكتب النحوية التى يدرسها الطلاب فى المستوى الجامعى .

(١)

تبدو مظاهر «نحو الصنعة» فيما خالط مادة النحو من عناصر ذهنية دخيلة أساءت إليها ، وكذلك فى كمية هذه المادة التى تتراوح فى كتبه بين الايجاز المخلّ فى المتون والمختصرات والخلاصات ، والتطويل المملّ فى موسوعات النحو التى تبسط فيها الأنظار

والمسائل ويتسع فيها الجدل والتخييل والمماحكات .

والطلاب فى الجامعات يتفاوت مستواهم ، فمنهم الشادون فى النحو الذين يدرسونه للخبرة الضرورية لتصحيح نطقهم وحاجتهم إلى معلوماته فى عملهم ومعاشهم بعد التخرج ، ومنهم الباحثون الذين وهبوا عمرهم له ، ورقيت هممهم للإحاطة بكل ما ضمته كتبه بقضه وقضيضه - وهذه الأمور فى حاجة إلى البيان .

* * *

- من مظاهر «نحو الصنعة» العلل التى أطلق عليها «ابن الأنبارى» فى كتابه «الإغراب» «علل الجدل والنظر» فى مقابل نوع آخر من العلل أسماه «العلل التعليمية» والنوع الأول لايخدم نطقا ولا يفيد اللغة ، أما النوع الثانى فهو الذى يتوصل به إلى كلام العرب .

وقد نقل السيوطى فى «الاقتراح» اسما آخر لعلل الجدل والنظر هو «علة العلة» فى مقابل ما يسمى «العلة التى تطرد على كلام العرب وتنساق إلى قانون لغتهم» .

قال السيوطى : هو المسمى علة العلة ، مثل أن يقولوا : لم صار الفاعل مرفوعا والمفعول منصوبا ، وهذا ليس يكسبنا أن نتكلم كما تكلمت العرب .

وقد أطلق «ابن مضاء القرطبي» على علل الجدل اسما آخر هو «العلل الثوانى والثوالث» وبين فى حديث طويل ، أنه لاحاجة بها لدارس النحو وأنه لاضرر فى تركها .

اختلفت التسميات والمقصد واحد هو «العلة الموغلة فى الاغراب والإحالة» تلك التى نشأت - فيما أثبت كثير من الباحثين الجادين - بفعل المنطق الأرسطى وتأثرت أيضا بما دخل الفقه وعلم الكلام من صنعة العلل والاستدلال بها ، وبمرور الزمن تحول التعليل إلى صناعة فكرية رائعة ، فرضت سلطانها على الباحثين فى الدين واللغة جميعا .

وليس يعنينا هنا نقاش القضية - فلها موضع آخر - وإنما يعنينا الواقع الموجود فى كتب النحو ، وهو واقع يصدق عليه ما سبق من وجود «التعلات» الكثيرة التى لاجدوى منها للغة .

* قال ابن يعيش : من أصناف الاسم «المعرب» وقدم الكلام على «المعرب» قبل «الإعراب» وإن كان «المعرب» مشتقا من «الاعراب» من قبل أنه لما كان المعرب يقوم بنفسه من غير إعراب والاعراب لايقوم بنفسه ، صار المعرب كالمحل له والاعراب كالعرض فيه ، فكما يلزم تقديم المحل على الحال كذلك يلزم تقديم المعرب على الإعراب .

إن أثر المنطق واضح هنا تماما ، فهذا تعليل مكون من مقدمات كاذبة فهو مما يطلق عليه فى المنطق «تعليل السفسطة» ومثله كثير .

* ساق ابن مضاء التعليل التالى للنحاة عن «الممنوع من الصرف» قال : والوجه عندهم لسقوط التنوين من الفعل ثقله ، وثقله لأن الاسم أكثر استعمالا منه، والشيء إذا عاوده اللسان خفّ ، وإذا قلّ استعماله ثقل ، وهذه الأسماء غيرها أكثر استعمالا منها فثقلت ، فمنعت ما منع الفعل من التنوين ، وصار الجر تبعا له . ثم قال ابن مضاء : وليس يحتاج من هذا إلا إلى معرفة تلك العلل التى تلازم عدم الانصراف ، وأما غير ذلك ففضل .

* من العلل الفاسدة قولهم ، إن نون ضمير جماعة المؤنث إنما حرك لأن ما قبله ساكن ، نحو (ضرَبْنَ) و (يضرِبْنَ) وسكن ما قبلها لئلا يجتمع أربعة متحركات ، لأن الفعل والفاعل كالشيء الواحد، فجعل سكون الحرف الذى قبل النون من أجل النون ، وجعل حركة النون من أجل سكون ما قبلها ، فجعل العلة معلولة بما هى علة له – وهذا بيِّن الفساد .

إن هذا النوع من التعليل يملأ مطولات النحو وكتب الجدل والخلاف، وهذه الكتب هى مورد الأساتذة الذين ينقلون منها مادتهم العلمية لطلاب الجامعات، وأرى أنه لاضرر ولا ضرار فى ترك تلك العلل الجدلية النظرية ، والاكتفاء بالعلل التعليمية التى تصف النطق.

* * *

– ومن مظاهر «نحو الصنعة» ما يطلق عليه «**التخريج أو التأويل**» وهو نوع من «المصالحة» التى يعقدها النحاة بين النصوص الصحيحة حين تصطدم بالقواعد ولا

تتفق معها . أو كما قال أبو حيان فى شرح التسهيل «التأويل إنما يسوغ إذا كانت الجادّة على شيء ، ثم جاء شيء يخالف الجادة فيتأول» .

و«التأويل أو التخريج» يسرى فى كيان المسائل النحوية سريان الدم فى العروق، فهو أساس بنى عليه النحو العربى ، لكنا فى مجال تعليم الطلاب فى الجامعات ينبغى أن نأخذ منه ماخف تحمله ودعت إليه الضرورة . وأن نعفى الطلاب مما أدى منه إلى المشقة بتعدد الوجوه أو صعوبة الفهم .

* جاء فى أوضح المسالك : وأما قوله تعالى (انه من يتقى ويصبرْ فان الله لايضيع أجر المحسنين) - فى قراءة قنبل - فقيل (من) موصولة ، وتسكين (يصبر) اما لتوالى حركات الباء والراء والفاء والهمزة ، أو على انه وصل بنية الوقف وإما على العطف على المعنى ، لأن (من) الموصولة بمعنى الشرطية لعمومها وإبهامها .

ويمكن فى هذا - فيما أرى - الاقتصار على وجه واحد هو «الوصل بنية الوقف» وهو وجه مأخوذ به فى القراءات .

* فى قوله تعالى : (ولا تكونوا أوّل كافر به) لم تطابق النكرة المضافة إلى اسم التفضيل ما هو له ، ومقتضى القاعدة أن يقال : (أول كافرين به) .

وقد خرجت الآية بوجوه متعددة فصلها «شرح التصريح» فى حديث طويل .

* مسألة الحال التى لاتصلح خبرا فى قول ابن مالك :

وقبل حال لاتكون خبــرا ... عن الذى خبره قد أضمرا

كضربِىَ العبد مُسيئا ، وأتمّ ... تبيينى الحق مَنوطا بالحِكم

والوجوه التى أوردها الأشمونى عن حذف الخبر مع هذه الحال يحار فيها أساتذة النحو أنفسهم ، والنصوص التى وردت لها مثل الحديث (أقربُ ما يكون العبد من ربه وهو ساجد) يمكن إفهامها للطلاب بغير هذا العناء ورشح الجبين إذا أخذنا برأى الكوفيين الذى ورد فى هذا الموضوع من «شرح الأشموني» .

فى رأيى اننا حين ننتقى للطلاب ما يطيقون من مادة النحو يجب أن نخفف كثيرا من نحو الصنعة فيما يتعلق بالتخريج فى مظهريه : تعدد الوجوه وصعوبة الفهم .

* * *

- ومن «نحو الصنعة» الجدل الذهنى العقيم «حول مسائل النحو ونصوص الشواهد».

وكتاب «الانصاف فى مسائل الخلاف» يعكس بعضا مما فى كتب مسائل النحو من الجدل وتعدد الآراء حول المسائل والنصوص ، ويكون هذا الجدل مجهدا للغاية إذا كان منشؤه البراعة الذهنية دون أن يحقق نفعا للطلاب فى ضبط اللغة ونطقها .

ومن ذلك الخلاف حول العوامل النحوية فى الأبواب المختلفة ، والخلاف حول الشواهد التى تساق لتأييد بعض الآراء الغريبة المتفردة ، لإثبات وجهة نظر أو نفيها .

* يقول ابن الأنبارى فى «أسرار العربية» عن عامل رفع «خبر المبتدأ» اختلف النحويون فى ذلك ، فذهب الكوفيون إلى أن عامله «المبتدأ» وذهب البصريون إلى أن «الابتداء» وحده هو العامل فى الخبر ، لأنه لما عمل فى المبتدأ ، وجب أن يكون عاملا فى الخبر قياسا على العوامل اللفظية التى تدخل على المبتدأ . وذهب قوم منهم أيضا إلى أن «الابتداء» عمل فى « المبتدأ» والمبتدأ عمل فى الخبر - وذهب سيبوية وجماعة معه إلى أن العامل فى الخبر هو «الابتداء والمبتدأ» جميعا ، لأن الابتداء لاينفك عن المبتدأ ولا يصح للخبر معنى الا بهما ، فدل على أنهما العاملان فيه .

ثم قال ابن الأنبارى معلقا : وفى كل واحد من هذه المذاهب كلام لايليق ذكره بهذا المختصر . انتهى .

لقد ترك « ابن الانبارى » التعليق مشيرا إلى الجدل والنزاع حول تلك الآراء حيث يتصارع النحاة فى مجال عقلى رحب تتضخم به كتب «مطولات النحو» وهذا النوع من الجدل يمد ظله على كل أبواب النحو ، وأشير فقط إلى «ناصب المستثنى» و «عامل

التوابع» و«الأسماء التى تقوم بعمل الفعل» من حيث نسبتها إلى الأفعال أو الأسماء .

* ساق ابن هشام فى «المغني» ما يلى : ذكر بعض الكوفيين وأبو عبيدة أن بعضهم يجزم بـ (أن) - وأنشدوا عليه قوله :

إذا ما غَدَوْنا قال وِلدان أهلنا   تعالوا إلى أن يأتِنا الصيد نحطب

وقوله :

أحاذرُ أن تعلمْ بها ، فتردها   فتتركَها ثِقلا علىّ كما هيـــا

وقد يرفع الفعل بعدها (أن) كقراءة «ابن محيصن» (لمن أراد أن يتمُّ الرضاعة) بالرفع ، وقول الشاعر :

أنْ تقرآن على أسماء ، ويحكما   منى السلامَ وأن لاتشعر أحدا

وزعم الكوفيون أن (أن) هذه هى «المخففة من الثقيلة» شذ اتصالها بالفعل، والصواب قول البصريين : انها (أن) الناصبة أهملت حملا على (ما) اختها المصدرية . انتهى .

والأمر كله - فى رأيى - تحله الضرورة وشذوذ القراءة .

مثل ذلك الجدل الذهنى حول قضايا النحو ونصوص الشواعد عبء ثقيل فى كتب النحو ، وانه لظلم فادح لطلاب الجامعات أن ننقل لهم من هذه الكتب مثل هذا الجدل الذهنى أو نكلفهم بدرسه فى تلك الكتب مباشرة .

* * *

ومما يضيف عبئا على الطلاب أن نأخذ بمنْهج عرض النحو فى كتبه القديمة وهو منهج يعتمد على سوق «المعايير والاقيسة» وتأييدها بأمثلة صناعية عن «زيد وعمرو» .

فبعد سيبويه وطبقته استقر الأمر على تلك القواعد ، وارتضاها النحاة ، وداروا حولها بالتشقيق والتفريع والبسط والاختصار وبخاصة لدى متأخرى النحاة بعد عصر الاستشهاد باللغة فى نهاية القرن الرابع الهجرى .

يقول ابن خلدون «فأصبحت صناعة العربية كأنها من جملة قوانين المنطق العقلية أو الجدل ، وبعدت عن مناحى اللسان وملكته ، وما ذلك إلا لعدولهم عن البحث فى شواهد اللسان وتراكيبه وتمييز أساليبه ، وتلك القوانين إنما هى وسائل للتعليم ، لكنهم أجروها على غير ما قصد بها ، وأصاروها علما بحتا ، وبعدوا بذلك عن ثمرتها» .

هذا طابع النحو فى مصادره القديمة ، وهو طابع قوامه «المعايير والأقيسة» والقواعد تتوالى فى كل باب بكل ما يدور حولها من جزئيات واستطرادات وأمثلة صناعية قصاراها أن تنطبق على تلك القواعد التى تساق من أجلها .

والحق أن هذه الطريقة لاتصلح للتعليم ، فهى تحقق العلم بالصناعة النحوية وقوانينها ، لكنها لاتحقق الهدف من تعلم النحو وهو «تقويم اللسان» فهى – كما يقول ابن خلدون – بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علما ، ولا يحكمها عملا . كما لو سئل عالم بالنجارة عن تفصيل الخشب ، فيقول : هو أن تضع المنشار على رأس الخشبة وتمسك بطرفه ، وآخر قبالتك ممسك بطرفه الآخر وتتعاقبانه بينكما ، وأطرافه المضرسة المحددة تقطع ما مرت عليه ذاهبة وجائية ، إلى أن ينتهى إلى آخر الخشبة .

وهو لو طولب بهذا العمل أو شىء منه ، لم يحكمه .

هل يبعد تعليم النحو للطلاب فى جامعاتنا عن تلك الصورة «لعالم النجارة» الذى يعرفها ولا يحسنها ، لا أظن !! فالأمر فى جامعاتنا يقوم أيضا على المشقة المضنية فى معرفة القوانين والأقيسة وقضاء الساعات الطوال فى قوانين المبتدأ والخبر ، والمبتدأ المستغنى عن الخبر ، والمصدر النائب عن فعله والمصدر الذى يحل محل «أن والفعل وشروطه» وإعراب الأمثلة والأبيات بطريق الصنعة المعروفة ، وتلك محنة يعانى منها الطلاب والطالبات فى قاعات الدرس عناء أقل ما يوصف به أنه تعاسة وشقاء ، ويحسب الاستاذ الجِهْبِذ أنه حقق لطلابه بهذه القوانين رتبة فى لسان العرب ، وهو وهُمْ أبعد الناس عن ذلك !! .

اننى – بكل أسف – أقرر أن ما ذكرته يطابق واقعيا ما يحدث فى جامعاتنا فالطلاب بعد حصر القواعد وحفظ الأمثلة لايقيمون جملة ولا تستقيم لهم عبارة ، بل إن

بعض أساتذتهم من جهابذة النحو يشرحون لهم باللغة العامية ، وبعضهم - كما رأيت ورأى غيرى - يناقش رسائل الماجستير والدكتوراه فى النحو باللغة العامية ، وهذه «عموم البلوى» - كما يقول الفقهاء - ويا أيها الأعزاء (مسَّنا وأهلَنا الضر) .

* * *

وقضية أخرى تتفاوت الجامعات العربية فى الأخذ بها ، وهى تدريس «المتون» أو تدريس «المطولات» - والأخذ بهذا أو بذاك يسبب مشقة وتكديرا للمتعلمين من الطلاب .

وقد وضع علماؤنا الأقدمون فى النحو «خلاصات ومختصرات» منذ القرن الثانى الهجرى، منها «المختصر الصغير» للكسائى و «مختصر النحو» للجرمى، و«الشيرازيات والبصريات» للفارسى ، و«القانون» للجزولى ، و«الخلاصة الألفية» لابن مالك .

وقد احتفى الكثير من كليات العربية ومعاهدها وأقسامها «بالألفية» احتفاء شديدا، وهى كما سماها مؤلفها «خلاصة» للنحو منظومة فى حوالى ألف بيت. ولا اعتراض على ما ضمته من علم ولا ما بذل فيها من جهد مشكور ومقدور، ولكن الاعتراض على مدى ملاءمتها للطلاب الجامعيين الآن وما تقتضيه من جهد فى حل ألفاظها المنظومة المكتظة بالقواعد .

ان هذا «البرنامج المختصر» - كما سماه ابن خلدون - يؤدى إلى إخلال بالتحصيل والفهم ، لما يترتب عليه من صعوبات معنوية ولفظية .

فالطالب الجامعى الآن - كما يعرف مستواه - ليأخذ النحو من الألفية مطالب بفهم النتائج والغايات والقواعد المكثفة التى حملتها الأبيات، ويشقى الأستاذ فى إفهامه ذلك من أحد شروحها، أو مما نقله من هذه الشروح ، وقد يفهم الطالب ما يشرحه الأستاذ ، والغالب ألا يفهم ، فيكلّ ذهنه، وينكس ، وقد يتمادى فى كسله ، فيعرض عن النحو كلية .

ثم إن الألفاظ الموجزة الكزة لأبيات الألفية فى حاجة إلى شغُل بها لحلها، وحلُّها لفهم المعانى التى تحملها، ثم استخدام ما فهم لتقويم النطق، فتتكاثر المصاعب على الطالب، ويبعد النحو عن غايته بدرجات ، ويضيع الوقت والجهد ، مع قلة الجدوى وسوء المآل .

وعلى العكس من ذلك تتمسك بعض الجامعات المحافظة فى مصر والبلاد العربية بدراسة بعض مطولات النحو «كالأشمونى» تحت شعار «التراث» أو «الكتب الأصيلة» وما أشبه ذلك .

والحق أن من يتمسكون بهذه الكتب تقصر بهم جهودهم عن الاحاطة بكل أبواب النحو للطلاب ، بل تقتصر هذه الجهود على بعض الأبواب التى يتجرعها الطلاب مرغمين، لاشتمالها على كثير من «نحو الصنعة» الذى سبق عرض مظاهره من قبل .

فالتطويل والاستطراد فى هذه الكتب يجعلها هدفا فى ذاتها ، وصنعة نحوية – لا أكثر – يحصرونها فى أدمغتهم ، ليؤدوا منها الأمتحان ، ثم النجاة بجلودهم من هذا العناء الثقيل .

لكن هنا احتراز مهم عن كل ما ذكرت من «نحو الصنعة» وكتبه . فلست أدعو بذلك إلى ترك هذه المادة العلمية وكتبها ، فيمكن العودة إليها لاقتباس بعض نماذج منها للطلاب الشادين فى النحو ، كما يطالب بدراستها من رَقِيَتْ بهم رغبتهم أو هممهم إلى التخصص فى الدراسات اللغوية من الأصوات والصرف والنحو .

ومن البديهى أنها مورد الأساتذة والمعلمين ، لاستقاء مادتهم العلمية منها ، لكن عند عرضها على الطلاب ينبغى تطويرها وتفسيرها وعرضها بوضوح وحيوية والوصول إليها عن طريق النصوص الصحيحة الجميلة ، والأمثلة ذات المضمون الراقى التى تحمل لغة العصر الذى نعيش فيه .

(٢)

«نحو اللغة» ما يحقق هذا الاسم، إنّه المستخلص من اللغة الصحيحة الفصيحة، ويحقق حراسة هذه اللغة نطقا وقراءة وكتابة ، على أن يتناسب مستواه مع المستوى الجامعى المتخصص كما وكيفا ، فلا يقتصر منه على القشور السطحية ، فيكون شذرات من هنا ومن هناك، فإثم هذا النوع أكبر من نفعه ، وهو فى حقيقته «تدليل» لا «تيسير» وبالمقابل لايتوغل فيه دارسه ومدرسه إلى حد التزام ما لايلزم وإلى تجاوز القدر الكافى المراد منه إلى المسالك الوعرة والمبانى الواهنة المتداعية المجهدة .

«نحو اللغة» هو نحو اللباب والجوهر دون تفريط أو افراط وأهم سماته : المحافظة على المادة الأساسية التى تخدم النطق – وعلى مصطلحات النحو المتعارف عليها بين المشتغلين بالعربية قديما وحديثا – وعلى نصوصه الموثقة شعرا ونثرا – مع التركيز على الجداول الشارحة – وأن يعتمد العرض على الاستقراء والاستنباط من النصوص المختارة والأمثلة التى تحمل ثقافة العصر ولغته لا على المعايير والأقيسة .

وهذه الأمور كلها فى حاجة إلى الشرح والبيان :

* * *

كتاب «نحو اللغة» ينبغى أن يعتمد على «*التصفية والاختيار*» *التصفية* من «*الصنعة*» التى سبق بيانها ، و «*الاختيار*» الذى يتجه مباشرة إلى ما يصف النطق من معارف النحو التى استنبطها علماؤه – رحمهم الله – من النصوص وكلام العرب ، فكونت مادة الأبواب والمسائل ، ولنضرب صفحا عما أوغلوا فيه من «اللغات واللغيات والشذوذ والضرورة والاستدراكات والتنبيهات والآراء الجدلية التى تضل الحقيقة بين ثناياها» تلك التى تصل بنا فى بعض الأحيان إلى صحة كل الأشياء وأحيانا أخرى إلى بطلان كل الأشياء» .

ومن المفيد هنا أن أنبه إلى المساعدة التى تقدمها الدراسات اللغوية الحديثة لهذه «التصفية والانتقاء» ، فالذين عرفوا شيئا عن «المنهج الوصفى» الحديث فى دراسة اللغة يعلمون أن من مبادئه – كما ذكر دى سوسير – «دراسة اللغة لذاتها ومن أجل ذاتها» وأن هذا المنهج يعتمد على وصف النص نفسه لا على ما يتخيله الذهن عنه ، وأنه يعتمد كذلك على منطق اللغة المدروسة دون أن تفرض عليها مناهج دخيلة ذهنية أو منطقية أو فلسفية.

إنه لأمر واجب أن نفيد من «*روح المنهج الوصفى*» فى التعرف على «*نحو اللغة*» فى كتبه القديمة التى اختلط فيها الحابل بالنابل ، لنميز بين ما يفيد النطق وما لا ضرر فى تركه .

استخدام «*المنهج الحديث*» لهذا الغرض أجدى من «*حلقة المصارعة*» التى ينصبها بعض من درسوه فى الغرب وأتباعهم ، لفرضه على الدراسات اللغوية العربية وبخاصة

النحو ومسائله ، فيصدرون كتبا ، همها وسدمها النقض والنقد والتعالى الكاذب على النحو العربى ، بدعوى «التجديد أو المعاصرة أو المنهجية» وإنها لمحنة قاسية على الطالب الجامعى إذا فرضت عليه مثل هذه الكتب التى تنقد له معلوماته الضرورية التى حصلها بشق النفس ، وتكرّ على ما فهمه منها بالتشكيك والتكذيب ، وتسحق روحه الغضة تحت وطأة الجدل بين القديم والحديث حول مسائل النحو .

ولا حاجة إلى كل هذا فى تعليم النحو ، فهذا تشكيك وتبديل ، و (من بدّله من بعد ما سمِعه ، فإنما إثمه على الذين يبدّلونه) .

فالمفيد حقا أن ننتقى ونختار مادة النحو من كتبه الأصيلة ، مع المحافظة على مضمونها حين تشكيلها من جديد بأسلوب مفهوم معاصر .

* * *

وكتاب «نحو اللغة» يجب أن يحافظ على «مصطلحات النحو» المتعارف عليها فى تراثه، فقد استقرت هذه المصطلحات من زمن بعيد وألفت عنها كتب تخصصت فيها، كـ«الحدود» للفراء «والحدود النحوية» للرمانى، و«الحدود النحوية» للفاكهى وغيرهما .

هذه المصطلحات ليست خاصة بدراسة النحو وحده ، بل دخلت فيما يحتاجها من علوم الشريعة ، كتفاسير القرآن وشروح الحديث وأصول الفقه .

ومن ناحية أخرى ، صارت هذه المصطلحات مثل (الإعراب والبناء - النكرة - المعرفة - المبتدأ - الخبر - المقصور - المنقوص - لا النافية للجنس ... إلخ) . عرفا علميا له احترامه بين المشتغلين بالعربية علماء ومعلمين ومتعليمن) .

فهذه المصطلحات إذن جزء من نسيج الثقافة العربية والإسلامية على امتداد الزمان ، وهى جزء من العرف اللغوى العربى على امتداد المكان ، فهى ثروة مفيدة أدت وتؤدى مهمتها بكفاءة ووضوح ، وكل من يريد الخير للعربية عليه أن يلتزم منطوق تلك المصطلحات ومدلولاتها إذا قدم للناس من «نحو اللغة» ما يرجو له أن يُسمع فيُحترم فيفيد .

انها لخسارة لا مبرر لها أن نُبَدِّد بسفاهة ما لدينا من ثروة «المصطلحات النحوية» بتحقيرها أو محاولة استبدالها بغيرها وقوعا تحت عوامل «التغريب» التى تتخطفنا من كل جانب ، فتفسد علينا أمرنا ، ولا نجنى منها سوى مُرِّ الثمر الذى لايطيق مذاقه متعلمو العربية ، فيلفظونه على قارعة الطريق قبل ابتلاعه .

لقد حاول المرحوم «ابراهيم مصطفي» منذ عهد قريب أن يضع للعربية -باجتهاده- نحوا جديدا بكتابه «إحياء النحو» وكان تغييره المصطلحات إلى «المسند والمسند إليه وحروف الاضافة والمكملات وغيرها» من أهم الأسباب لرفض طريقته التى طبقت فى المدارس العامة . ثم سقطت بعد هذا التطبيق بزمن قصير . والأستاذ «ابراهيم مصطفي» قد غير المصطلحات مستمدا ما غيَّره من التراث العربى ، فما بالنا بمن يرقِّشون كتبهم التى يفرض بعضها على طلاب الجامعات باشتقاقات لغوية سوفسطائية ، يدفع إليها التظاهر بالتجديد والتطاول على النحو العربى الأصيل والإغراب على الناس بمثل هذا اللغو الذى لامعنى له ، وإثمه أكبر من نفعه بالنسبة للطلاب الشادين فى تعليم النحو .

* * *

وكتاب «نحو اللغة» ينبغى له أن يحقق اسمه بالمحافظة على نصوص الشواهد نثرا وشعرا ، مما يطلق عليه «كلام العرب» بالإضافة إلى ما اهتم به نحاة كابن هشام فى كتبه المتعددة من الاستدلال بآيات القرآن .

فهذه النصوص تحقق للمتعلم من الفائدة ما لا تحققه قوانين الإعراب وصناعته لأنها تساعد فى تكوين الملكة اللسانية لدى المتعلمين من طلاب الجامعات، وتحقق عمليا بنطقها وضبطها وذكرها مع القواعد - بل قبلَ القواعد - ما يهدف إليه دارسو النحو ومدرسوه .

ولابن خلدون هنا نظرة صائبة . فيرى أن كتب النحو نوعان :

الأول : ما يخدم اللغة ويفيد ملكة اللسان ، وهو ما يحوى نصوصا كثيرة من كلام العرب من الأمثال والشواهد والأشعار، فيستقر ذلك كله فى محفوظ الدارس والمتعلم،

ويتنبه به لشأن الملكة .

الثانى : ما لايخدم اللغة ولا يفيد الملكة ، وذلك ما يحوى صنعة الاعراب وحدها عارية عن كلام العرب شعر ونثرا ، فدارسو هذه الكتب – كما قال – يحسبون أنهم قد حصلوا رتبة فى لسان العرب وهم أبْعَدُ الناس عنه .

إن الأخذ بهذا الرأى فيما يدرسه طلاب الجامعات أمر مفيد للغاية، بتوجيه الاهتمام إلى نصوص الشواهد من الشعر والنثر وأيات القرآن والأحاديث ، فالعناية بها تملأ درس النحو حيوية ومتعة وفائدة ، بدلا من هذا الاهتمام الزائد السائد الآن بصنعة الإعراب وجدله ، فيجف درس النحو ، ويغيض ماؤه ، ويكثر الشقاء فيه ، ، مع عدم جدواه وقلة جَداه .

النحو – لدى أهل المعرفة – هو علم النصوص ، فهو منها وإليها ، والتعلق بالقوانين المتجمدة تفريغ له من محتواه الحقيقى ، فيبقى منه ما هو صنعة ثقيلة الوطأة . فيقول أستاذ النحو ما يقول أداء للواجب ، وليس مهما أن يفهم الطلاب ما يقول ، ويسمع طالب النحو ما يغص به حلقه وعقله – وهذا هو واقعنا الأليم للأسف . ونحن فى حاجة إلى إعادة النظر فى هذا الواقع المشوَّه ، بتعديل طريقة ما يقدم للطلاب ، فتكون النصوص موضع اهتمامنا ، فيتحقق لدرس النحو جوهره وهدفه ، ويعود له وجهه المشرق الممتع المقبول .

* * *

لكنى أستشرف أفقا أعلى فى «نحو اللغة» فلا نقنع «بنصوص الشواهد» فى فهم القواعد والمساعدة على تكوين الملكة اللسانية ، بل نطمع أن يكون تكوين الملكة اللسانية نفسها هدفا فى درس النحو – ويتحقق ذلك بوسائل عديدة :

– منها اختيار نصوص قصيرة نوعا ذات مضمون إنسانى أو اجتماعى نثرا أو شعرا توضع بعد كل مجموعة من الدروس النحوية تكون قسما متجانسا كالاعراب والبناء وكالنكرة والمعرفة وكالمبتدأ والخبر ونواسخهما ، ويدرب الطلا ب على قراءاتها صحيحة ومضبوطة بعد فهمها ، وشرح ما غمض من مفرداتها ، مع المناقشة والتوجيه لما حملته

من قواعد الجزء النحوى الذى جاءت بعده .

- ومنها العناية بالتطبيقات باختيار آيات أو أحاديث أو فقرات من خطب العرب أو بعض أبيات من الشعر عقب كل درس نحوى ، لاستقراء الظواهر النحوية فيها والتعرف عليها من خلالها .

- بل إن هذه الطريقة تتحقق كذلك فى استقراء القواعد النحوية من أمثال هذه النصوص، بل من الأمثلة التى تحمل ثقافة العصر ولغته وترتبط بموضوع واحد قدر الإمكان ، أمثلة مخدومة لا مصنوعة - وبالتعرف على هذه النصوص والأمثلة نصل للظاهرة النحوية التى حملتها من خلال المحسوس المكتوب والمنطوق ، وهذا فى مقابل «المعايير» التى تساق ثقيلة كريهة ، يقفى بعدها «بزيد وعمرو» فيفقد كل شىء معناه وغايته ، قواعد مجردة . وأمثلة ميتة ؟؟ فما أقبح هذا ؟؟ .

- ومن عوامل اكتساب الملكة اللسانية فى درس النحو الإكثار من جداول النماذج والنصوص لا جداول الصنعة والقواعد ، ويتحقق النوع الأول بتعليم الطالب مسلك النصوص فى الجدول فى الظاهرة النحوية التى تتعدد حالاتها ، كالفرق بين «نون التوكيد» و «نون النسوة» وكإعراب «المقصور» أو «المنقوص» من خلال ما يلمسه الطالب من مسلك النصوص التى تحمل حالات هذه المسائل فى جدول منظم هادف .

- بل انى لأطمع فيما هو أكثر من ذلك فى المساعدة على تكون الملكة اللسانية لدى الطلاب ، فيكلفون فى المدارس العامة وفى الجامعات بقراءة جزء واحد من القرآن كل عام مع ضبط القراءة جيدا بعد فهم معناه العام . وأؤكد ثانية «قراءة لا حفظا» - ولنا أن نتصور مدى الفائدة التى نجنيها من هذا الاقتراح إذا تذكرنا أن الطالب يقضى فى التعليم العام والجامعى ما يقرب من خمسة عشر عاما .

يقول ابن خلدون عن تكوين «الملكة اللسانية» :

«ووجه التعليم لمن يبتغى هذه الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجارى على ألسنتهم من القرآن والحديث وكلام السلف ومخاطبات فحول العرب فى أسجاعهم وأشعارهم وكلمات المولدين أيضا فى سائر فنونهم ، حتى يتنزل لكثرة

حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم ، ولقن العبارة عن المقاصد منهم . ثم يتصرف بعد ذلك فى التعبير عما فى ضميره على حسب عباراتهم وتأليف كلماتهم ، فتحصل هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال ، ويزداد بكثرتهما رسوخا وقوة . انتهى .

أجل «حفظ كلام العرب والتعبير على حسب عباراتهم وتأليف كلماتهم ... فتحصل هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال .

هذا هو الحل فى رأيه ، وهو حل يصدّقه الواقع ، فكم من أدباء وشعراء كونتهم مخالطة النصوص فى الصغر والشبيبة كأبى تمام والبارودى والعقاد ، بينما كثيرون من المهرة فى صناعة العربية لايجيدون النطق الصحيح ولا يستطيعون كتابة سطور قليلة بدون لحن وأخطاء وركاكة أسلوب .

فالأخذ بهذا الرأى - فيما أظن - مفيد جدا ، وأضعف الايمان أن نقرب منه قدر الإمكان بالوسائل التى ذكرتها وبغيرها عن طريق «العناية بالنصوص الراقية» والتدريب على نطقها بطريقة صحيحة (١) .

(٣)

فى العام الجامعى ١٩٨١/٨٠ كان من المراجع الضرورية لطلاب إحدى الفرق فى مرحلة الليسانس لإحدى الكليات الجامعية كتاب فى النحو عن «الاسماء التى تعمل عمل الفعل» سماه مؤلفه «الفِعْلِيَّات» .

وفى هذا الكتاب جهد علمى لا مماراة فيه ، فهو كتاب جدير بالتقدير والاحترام على المستوى الأكاديمى المتخصص ، وفيه محاولة جادة لفهم أبواب من النحو العربى بصورة جديدة فى إطار منهج علمى ، حاول المؤلف تطبيقه على تلك الأبواب ، فحالفه كثير من التوفيق فى تلك المحاولة .

---

(١) ما ذكر فى هذا الموضوع كله - نحو الصنعة ونحو اللغة - طبقته عمليًا في كتاب (النحو المصفّى) الذى صدرت طبعته العاشرة هذا العام ١٩٨٩ م .

لكن الأمر يختلف إذا نظرنا لهذا الكتاب ونحن فى مقاعد الطلاب فى مرحلة الليسانس ، ففيه كثير مما يَنِد فهمه على مستوى هؤلاء الطلاب فى المادة والطريقة ، مما أوجزه فيما يلى :

١- معظم المادة العلمية فى هذا الكتاب منقول من مطولات النحو القديمة مثل (كتاب سيبوية - شرح الكافية - شرح التصريح - حاشية الصبان - المرتجل لابن الخشاب - شرح المفصل - الأصول لابن السراج) إلى غير ذلك ، ويلاحق المؤلف النصوص المنقولة من هذه الكتب بالنقد والنقض والموازنة والترجيح .

٢- لجأ المؤلف فى شرح الأمثلة التقليدية والنصوص إلى طريقة تشبه المعادلات الرياضية (كذا + كذا + كذا = كذا) و (كذا - كذا - كذا = كذا) . وهذه طريقة قد يقبلها المتخصصو ن فى النحو ، لكنها بالنسبة للمتعلمين صعبة للغاية ، إذ تجعل من درس النحو مجهودا ذهنيا جافا ، وتقطع قنوات الاتصال بينه وبين اللغة ، بما لها من حيوية وسهولة فى الفهم .

٣- الكتاب فى «فلسفة النحو» لا فى «مسائل النحو» فقد عرف المؤلف شيئا عن «النحو التحويلى» فطبقه فى كتابه على «الأسماء التى تعمل عمل الفعل» ... وله ذلك ، بصرف النظر عن جوانب القصور فى هذا التطبيق ، لكن الطلاب فى حاجة إلى النحو الذى يعلمهم تقويم ألسنتهم ، بعرض مسائل النحو نفسها لا فلسفتها .

٤- ترتب على تطبيق «منهج النحو التحويلى» فى الكتاب أن ردد المؤلف كثيرا «فكرة المعني» والمقصود بها «المعنى الافتراضى» الذى يؤدى إلى تغيير ما تعارف عليه دارسو النحو من مسمياته وتقسيماته .

ففى (سواء عليهم أأنذرتهم) يقول المؤلف : فعل + فاعل للحمل على المعنى وفى (على حين عاتبت المشيب) يقول المؤلف : اسم + اسم مضاف إليه للحمل على المعنى وهكذا ... وهذا - بالنسبة للطلاب - اضطراب وبلبلة وهدم

لما حصلوا عليه من معلومات .

٥- لكن أهم ما يلفت النظر فى هذا الكتاب ما يتناثر فيه من مصطلحات غريبة على النحو وتراثه ، ومنها (النحويون الشكليون - العمق والباطن - المركب الاسمى - الكم والكيف - الفعليات المعنوية - الفعليات الملفوظة - الفعليات الملحوظة - التركيب المحايد - الوسطية - جملة من موقع نحوى واحد - تداخل الحدود - التداخل بين المشتقات - الحدود المشتركة - العلامات التركيبية المتقابلة - درجات الفعلية - مركز المعمول - السلوك التركيبى - تركيب أساسى - التحول المعنوى التركيبى - المركب الفعلى - جملة فعلية بالقوة - فعلىّ من الدرجة الثانية - أوضاع شكلية تركيبية - التركيب المحوّل.إلخ).

بل إن عنوان الكتاب نفسه (الفعليات) لا يعرفه المعلمون والمتعلمون للعربية ، بل يعرفون (الأسماء التى تعمل عمل الفعل) فهو المشهور المتداول بينهم .

* * *

وبين وقت وآخر يطلع علينا الجهابذة المجددون بمثل هذا الكتاب بعناوين (دراسات نقدية فى النحو العربى) و (المدخل إلى دراسة النحو العربى) و (المركب الاسمى) و (نحو عربية ميسرة) و (النحو العربى : نقد وتوجيه)

فليكتب من شاء ما شاء ، وليقل من شاء : إن عمله لبناء النحو العربى أو لهدمه ، فالمحظور أن يضطر المتعلمون من الطلاب إلى تجرع مثل هذه الكتب ، فإنها بالنسبة لهم جهد ذهنى صعب قليل الفائدة ، وما ينفعهم حقا أن يقدم لهم «نحو اللغة» كما ذكرت سماته فى هذا البحث (إنْ أريد الا الاصلاحَ ما استطعتُ ، وما توفيقى إلا بالله) ،،

النحو العربى بين النظر والتطبيق

ليس هناك علم من العلوم العربية قد نال من العناية الفائقة والمجهود العقلى العميق ما ناله النحو العربى قديما وحديثا ، فمنذ القرن الأول الهجرى الذى بدأت فيه هذه الدراسة إلى أن أُلف أول أثر علمى باق بين أيدينا إلى اليوم وهو «كتاب سيبويه» والمجهودات العلمية تتوالى فى هذا العلم حتى العصر الذى نعيش فيه ، فتضخمت مكتبة النحو العربى وما يحيط به من دراسات تضخما تجاوز الحد المعقول ، وخرجت هذه الدراسة عن الغرض الذى من أجله يُدرس النحو ويتعلم ، وهو خدمة اللغة فى مستوياتها المختلفة قولا وكتابة وقراءة .

هذه ثروة من تراثنا لاشك فى ذلك ، ومجهود يستحق التقدير لاشك فى ذلك أيضا .

لكن هذه العناية التى زادت عن حدّها قد انقلبت إلى ضدّها – كما يقال – فتعقدت مسائل النحو ، وضلت الحقائق الأصيلة بين الخليط الهائل الذى امتلأت به كتبه نتيجة التأثر بأفكار فلسفية ومنطقية دخيلة ، تسربت إليه فى وقت مبكر ، ثم نمت دراستها فيه واستفحلت ، وكانت بطبيعتها صالحة للتشقيق والتفريع واصطراع الآراء حولها ، ووجد الباحثون من النحاة أنفسهم أمام هذه الأفكار الفلسفية الصالحة – كما قلت – للأخذ والرد والمناقشة والجدل ، فخاضوا فيها برفق أولا ... ثم استخدمت البراعة الذهنية الفائقة بعد ذلك فيما يمكن أن نسميه «فلسفة النحو» لا فى النحو نفسه ، وجعلت أبحاث النحو ودراساته تبعد شيئا فشيئا عن الغرض الذى تخدمه ، أو بعبارة أخرى : حدث الفراق بين النحو واللغة ، فدارت الدراسات النحوية – وبخاصة لدى المتأخرين – حول نفسها تستقى مادتها من الذهن لا من اللغة ، ومن الفلسفة العقلية لا من الواقع ، ومن الشواهد المتجمدة لا من بحوث ميدانية قوامها الاستقراء والمتابعة ، ومن المصادرات التى تعتمد على القياس والافتراضات لإخضاع الأمثلة طوعا أو كرها لا من ملاحظة

الناطقين باللغة واستعمالهم لها ومتابعة ذلك بالدراسات المتطورة .

وهكذا جاءت تركتنا النحوية محملة بعبء ثقيل من أفكار غريبة عن الدراسة اللغوية الصافية ، وبدقائق الفروع والمجادلات التى هى أثر من آثار إعمال الذهن وإجهاده .

وكان لذلك رد فعل عنيف لدى الناطقين والمتعلمين على السواء ، ظهرت آثاره قديما فى مظهرين :

أولا : تلك الخصومات والمشاحنات التى كانت تقوم كثيرا بين الناطقين الفصحاء وعلماء النحو وسدنته ، وهى فى نفس الوقت مظهر لإحساس عام من الناطقين بشدة وطأة القواعد عليهم وضيقهم بما يشهره النحاة فى وجوههم من أقيسة صارمة حادة وتروى لنا كتب اللغة والأدب مواقف لاتكاد تحصى عن ذلك النزاع والصراع والضيق ، وهى وإن كانت مواقف فردية استحقت الرواية والإثبات ، فإنها فى الحقيقة تشير إلى طبيعة العلاقة المتوترة التى كانت بين القاعدة والنص ، وبين المقنن صاحب القواعد والناطق الذى يريد أن يستعمل اللغة بانطلاق وحرية بعد أن اكتسبها من الاستخدام والعرف .

ومن الأمثلة القليلة التى نوردها هنا ما يلى :

* ما يرويه ابن سلام فى كتابه «طبقات فحول الشعراء» عن النزاع المبكر الذى حدث بين «ابن أبى اسحاق والفرزدق» حيث كان الأول يتابعه بالتخطئة والتصويب ، ويورد ابن سلام :

أن الفرزدق حين قال :

مستقبلين شمال الشمال تضربنا   بحاصِبٍ كنديف القطن منثورِ

علــى عمائمــنا تلقى وأرحـلنا   على زواحف تُزْجَى مخُّها رِيرِ

فقد قال له ابن أبى اسحاق : أسأت ، إنما هى (ريرٌ) بالضم ، وكذلك قياس النحو فى هذا الموضع ، وقد ضاق به الفرزدق ، فهجاه هجاء مرا .

* يروى صاحب الأغانى خصومة مماثلة بين «سيبويه وبشار» حين عابه الأول فى بعض ما يقول ، فبلغ ذلك بشارا فقال : ويلى على ابن القصارين !! متى كانت الفصاحة فى بيوت القاصرين ؟! دعونى وإياه ، فلما بلغ ذلك سيبويه بكى وجزع فقيل له ! ما يبكيك ؟! فقال : مالى لا أبكى وقد وقعت فى لسان بشار الأعمى - وانتهى الأمر بأن اعتذر أصحاب العالم النحوى العظيم عنه ، واستوهبوا من بشار عرضه .

* يروى أبو حيان التوحيدى موقفا طريفا من ذلك فيقول : وقف أعرابى على مجلس الاخفش فسمع كلام أهله في النحو وما يدخل معه ، فحار وعجب وأطرق ووسوس ، فقال له الأخفش : ما تسمع يا أخا العرب ؟ ! قال : أراكم تتكلمون بكلامنا فى كلامنا بما ليس من كلامنا .

* وما حدث بين المتنبى وابن خالويه فى مجلس سيف الدولة أشهر من أن يذكر، فقد انتهى إلى مشاجرة مؤسفة سالت فيها دماء الشاعر المقهور .

هذه الروايات - وأمثالها كثير جدا - علائم تستوقف النظر ، وتلفت الفكر إلى طبيعة العلاقة التى كانت بين ناطقى اللغة ودارسى النحو ، وربما كان قول الأعرابى للأخفش «أراكم تتكلمون بكلامنا فى كلامنا بما ليس من كلامنا» - على بساطته وسذاجته وعفويته - عميق المغزى والدلالة على التصدع الذى حدث بين الكلام فى النحو وكلام العرب من جهة ، وعلى الروح التى سيطرت على دراسة النحو من جهة أخرى ، روح الفلسفة والمنطق والمجادلات الذهنية الحادة التى لاتفيد شيئا ذا قيمة .

ثانيا : أحس النحاة قديما بالعبء الفادح الذى حملوا أنفسهم عليه وأرادوا أن يحملوا الناس عليه أيضا، إذ لم تستطع عقول المتعلمين الغضة أن تستوعب النحو كما شاء له النحاة أن يكون فروضا ومجادلات وقضايا منطقية وفلسفة ذهنية عميقة ، فاصطدموا بالنفور والإعراض ، وتنبهوا إلى ضرورة التيسير على المتعلمين من الناس العاديين والصغار الناشئين - تماما كما هو الأمر فى هذه الأيام - وإلى ضرورة مخاطبة الناس على قدر عقولهم بعد أن أوغلوا فى التعقيد والإغراب .

وكان من نتيجة ذلك أن ألفت قديما مختصرات كثيرة فى النحو ، بدأت بالكسائى الذى ألف كتابا للمبتدئين سماه « المختصر الصغير» وهو الكتاب الذى نقل إلى الأندلس فى نهاية القرن الثانى واكتفى الأندلسيون به - بعد أن نقلوه - مايقرب من قرنين من الزمان ، وتوالت بعد ذلك المختصرات التى تطالعنا بها مصادر الكتب والفنون ، مثل «مختصر النحو» للجرمى (ت ٢٢٥) ومختصر ثان لأبى موسى سليمان بن محمد (ت ٣٠٥) وثالث للزجاج (ت ٣١٠) ورابع لليزيدى محمد بن عباس (ت ٣١٣) وخامس لأحمد بن الحسن (ت ٣١٧) ثم «التيسير فى اللغة والنحو» لابن مقسم (ت ٣٥٣) كما ألف أبو على الفارسى فى القرن الرابع «البصريات» و«الشيرازيات» لنفس الغرض ، كما اختصر أبو حيان الأندلسى النحوى (ت ٧٤٥) كتاب «المقرب» لابن عصفور الأشبيلى .

وعلى الرغم من أن معظم هذه الكتب لم يصلنا فإنه من المؤكد أن هذه المختصرات والميسرات وغيرها إنما كانت استجابة - ربما اضطرارية - لما دعت إليه الرغبة الحقيقية للمتعلمين والناطقين للغة أن يجدوا لديهم ما يمكنهم أن يفهموه ويستخدموه من مسائل النحو لخدمة اللغة بعيدا عن التعقيد والاضطراب .

(٢)

تلك قضية النحو قديما ، تركة مثقلة ، ورد فعل عنيف قوامه الرفض والنفور والسخرية أحيانا عند الناطقين باللغة والمتعلمين للنحو ، وهى فى هذا الإطار نفسه واجهتنا وما زالت توجهنا فى الوقت الحاضر .

ولو قمنا بعمل بحث ميدانى اجتماعى عن نظرة المتكلمين بالعربية إلى النحو ودراسته ، بأن لاحظنا ما يحدث عمليا بين الطبقات الاجتماعية المختلفة سواء بين السواد الأعظم من الشعب من فلاحين وعمال أو الطبقات التى هيئت لها فرص الثقافة والتعليم فى العلوم التجريبية أو الإنسانية ، فإننا من خلال هذا الواقع وملاحظته سنجد ما يلى :

أولا : الغالبية الكبرى التى نطلق عليها طبقة «العوام» تحس إحساسا غامضا مبهما أن استخدام الفصحى فى مخاطبتهم أمر غير مألوف لهم ، بل هو سخرية منهم ،

ولذلك يقابلونه فى مواقف المخاطبات العادية هذه بالتحدى والعداء ، وهم كذلك يربطون بين هذا الإغراب عليهم بالفصحى وبين النحو - لا أدرى لماذا ؟؟ - فإذا جانب إنسان التوفيق فى مراعاة المستوى الاجتماعى فى مخاطبة العامة ، فتحدث بكلمة عربية فصحى فى أحد المواقف العادية معهم ، كان عرضة للسخرية المرة واصطدم بالرد الشائع الذى نسمعه منهم كثيرا وهو (يتكلم بالنَّحَوى - بفتح الحاء) وربما صاحبت هذه العبارة حركات باليد واللسان ، وربما ترتب عليها الإخفاق فى قضاء حاجته التى كان من أجلها الكلام .

والإحساس بغرابة الفصحى فى المخاطبات العادية أمر معترف به لغويا، ذلك أن اللغة ظاهرة اجتماعية تختلف باختلاف المستوى الاجتماعى الذى ترد فيه ، فإذا حدث الإغراب بالفصحى فى الموقف العادى على الرجل العامى ، فليس من الغرابة أن يكون رد الفعل لديه هو التحدى والسخرية ، لكن الغريب حقا هو هذا الارتباط فى إحساس العامة بين النحو وموقف السخرية والرفض !!

على كل حال فليس هذا مما يدخل فى الاعتبار فيما نحن بصدد رصده من رد الفعل تجاه النحو ، إذ النحو من خصائص الفصحى التى تستعمل فى مستويات فكرية أرقى من الحياة العادية .

ثانيا : المثقفون فى العلوم التجريبية من طب وهندسة وكيمياء ، وغيرها، وهؤلاء قد مروا حقا فى دراستهم العامة باللغة العربية ونحوها وصرفها ، ولكن رصيدهم منها رصيد ضعيف للغاية ، أو بعبارة أدق : رصيدهم من استعمالها أضعف من الوصول إلى مستوى التمكن والإفهام ، فيندر أن تجد بينهم من يجيد استعمال العربية فى التعبير عن أفكاره ، ويندر أكثر من ذلك أن تجد من يستعملها ينطقها بصورة صحيحة - أدنى درجات الصحة - على حسب مقتضيات النحوِ وقواعد العربية ، وإحساسهم بهذا الضعف يغطيه ويسوغه عندهم «اللامبالاة» أحيانا و «السخرية» أحيانا أخرى من النحو ودراسته ودارسيه ، بل ومن الفصحى عموما . وليس من النادر أن تسمع فى كلامهم الخلط المتعمد بين لغة عامية ركيكة وألفاظ وتعبيرات أجنبية غريبة للتعبير عن أفكارهم ، سواء فى مواقف الحياة العامة أم فى الاستعمال العلمى الجاد ، وقد عاونتهم طبيعة

دراستهم التى تعتمد فى الغالب على اللغات الأجنبية فى الدراسة والتأليف على اتخاذ هذا الموقف الذى قوامه «اللامبالاة والسخرية والضعف» .

ثالثا : المثقفون ثقافة إنسانية تخصصوا فيها ، كالقانون أو الاقتصاد أو التاريخ أو اللغة أو الأدب ، وفى هذا المستوى نجد منهم كثيرين مخلصين حقا فى رغبتهم العميقة لإجادة اللغة العربية ونحوها وصرفها ، لاستخدامها فى التأليف والقراءة والحديث الجاد بمستوياته المختلفة ، ولكن من الحق أيضا أنهم لايستطيعون ذلك ، ومن الحق كذلك أن المسئولية عن إخفاق هذه الرغبة تعود فى جزء كبير منها إلى أسباب اجتماعية وسياسية مرت بها حياتنا العربية فى العصر الحديث – لا مجال هنا لذكرها – ولكن السبب الأكبر للإخفاق فى استخدام اللغة على مقتضيات النحو وأساليب الفصحى – بخاصة بعد أن زالت الآن الأسباب الاجتماعية والسياسية المعوقة – يعود إلى ما نحن بصدده من فشل التقريب بين تركتنا النحوية كما ورثناها، تلقى الدارسين لها بصورة سهلة ميسرة .

وليس من النادر أن تجد فى هذا المستوى مظاهر من اللحن والخطأ تدعو إلى الغرابة والدهشة ، ليس من النادر مثلا أن تجد بين مَن يتعاطون الإنتاج الأدبى – بكثرة هذه الأيام – من لايستطيع أن يقيم عبارة واحدة كاملة صحيحة مضبوطة فى حديثه ، وليس من النادر كذلك أن تجد بين من يدرسون اللغة أنفسهم من يخطئون أخطاء بدائية ناشزا ، وتصطدم آذاننا دائما بأخطاء المذيعين والصحفيين الذين يقفون من الناس موقفا عاما فى المحادثة والكتابة ، بحيث يشك الإنسان فى أنهم قد أفادوا – حتى مجرد المبادىء العامة – فى دراستهم اللغوية التى هيأتهم لهذا الموقف الخطير .

ومن هذه النظرة الشاملة – المعتمدة على الاستقراء والواقع – للمستويات المتعددة للإنسان العربى المعاصر – يمكن أن نقول بصورة عامة : إن الشعور العام بين الناطقين بالعربية – من مستوى العوام حتى مستوى التخصص فى اللغة والأدب – تجاه قضية النحو وقواعد العربية فى الاستعمال والفهم هو ما سبق أن قررناه فى بداية هذه الفقرة وهو : الإحساس بالصعوبة الذى يؤدى بالبعض إلى النفور والرفض والسخرية ، لا من النحو وحده ، بل من اللغة الفصحى واستخدامها كلية حتى لدى المثقفين الذين يقدم لهم

ضعفهم بل عجزهم عن إجادة الفصحى ونحوها مسوغا لتطرفهم ورفضهم .

(٢)

وعلى ذلك قامت حركات علمية متعددة فى العصر الحاضر تتناول هذه المشكلة الموجودة فعلا معتمدة على ما فى هذا الواقع نفسه لتقدم حلولا لمشكلة النحو ودراسة العربية ، واختلفت هذه الحلول اختلافا حادا ، إذ كان بعضهم متطرفا رفض المشكلة ، ودعا إلى اطّراح النحو وقواعد العربية – وكان البعض الآخر أقل منهم تطرفا وأذكى طريقة ، إذ دعا إلى ما دعا إليه الفريق الأول – لكنه حاول أن يتلمس لذلك سندا علميا يدعم به رأيه – وفريق ثالث معظمه من المدرسين المعتدلين الذين لم يناقشو وجود المشكلة أساس بل اتجهوا مباشرة إلى تقديم مجهوداتهم الشخصية وما وسعته طاقتهم لتيسير ما هو عسير من مشاكل النحو العربى للدارسين فى صورة سهلة ، فوفقوا فى كثير من الأحيان ، وإن كان قد جانبهم التوفيق أحيانا – ولا علينا من فريق آخر محافظ لا يخطر بباله حتى مجرد التفكير فى التغيير ، إذ هو سلفى منعزل عن الحياة وحيويتها!!

وسأتناول هذه الحركات الثلاث – بتركيز شديد تسمح به طبيعة هذا البحث – بنفس المستوى الذى دعت إليه واعتمدت عليه مغالطة أو علما أو تربية – مع مناقشتها على أساس موضوعى قدر الطاقة – لنتقدم بعد ذلك بما نعتقد أنه الحق فى هذه القضية المزمنة الخطيرة .

* * *

لقد ركز أصحاب الاتجاه الأول على اقتلاع جذور المشكلة كلية وهدم أساسها ، واتخذوا لأنفسهم «منهج الرفض المطلق» فلم يروا إلغاء الإعراب والنحو من اللغة العربية فقط ، بل رأوا إلغاء اللغة الفصحى عامة ، وقد تشكلت دعواتهم بأشكال متعددة ، مرة بالدعوة إلى العامية وإحلالها محل الفصحى ، ومرة أخرى بالدعوة إلى إبدال الخط العربى باللاتينى ليريحنا ذلك من مشاكل الضبط وقواعد الإعراب – كما اتخذوا

لدعواتهم مسوغات ووسائل للتأثير بها فى نفوس الناس وإذاعتها بينهم – مثل أن اللغة العربية غير علمية ، وهى السبب فى تعطيل قوة الاختراع عند العرب – وأنها صعبة التعلم وبخاصة فى نحوها وصرفها اللذين قد يقضى الإنسان عمره فيهما ثم لايجيدهما بعد ذلك – وأن من الاضطراب والتمزق أن يكون للإنسان لغتان إحداهما للكتابة والأخرى للكلام – إلى غير ذلك من أسباب ومبررات .

– ومن الحق أن تقرر أولا أن معتمد هذه الدعوات المتطرفة تركز بصورة أساسية على النحو العربى ومشاكله ، ذاك الذى يتعب الناس فى تعلمه وفيما يترتب عليه من ضبط أو لحن !!

– ومن الحق الثابت تاريخيا كذلك أن مخترعى هذا الاتجاه ومؤلفيه فى الأصل – وإن لم تحفظ لهم حقوق الطبع بعد ذلك – لم يكونوا عَرَبًا ولا لغتهم الأصلية هى العربية ، بل كانوا من المستشرقين والأجانب ، وتابعهم فى ذلك – ربما بنفس الألفاظ والطريقة – بعض المصريين العرب الذين لا شأن لنا هنا بدوافعهم وأهدافهم ، لأننا نقرر الحقيقة التاريخية والعلمية فقط .

– فى سنة ١٨٩٢ ألقى مهندس الرى الإنجليزى «ولكوكس» محاضرة فى نادى الأزبكية بالقاهرة نشرت بعد ذلك فى إحدى المجلات القاهرية تحت عنوان «لماذا لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين» ؟ وأرجع ذلك لاستعمال اللسان العربى المعرب ، وجاء فى كلامه «إن الحجاب بين المصريين وبين ترقى معلوماتهم إنما هو تسطير أفكارهم بهذا اللسان المهجور الخفى الصعب» .

– وفى سنة ١٩٠١ دعا «مستر ويلمور» – أحد قضاة الاستئناف بالقاهرة – إلى ترك الفصحى وإبدالها بالعامية ، واقترح أن تكون هذه العامية هى لجهة القاهرة على أن تكون كتابتها بالحروف اللاتينية ، ويعمم تعليمها فى المدارس، وكان مما قاله «إن لغة الكتب لايتقن النطق بها إلا المتعلمون جيدا ، ولا معنى لأن توجد لغة للكتابة وأخرى للكلام».

– وفى سنة ١٩٠٠ ألف المبشر «زويمر» كتابه : «جزيرة العرب مهد الإسلام» وقال عن اللغة العربية : «إنها لغة شائعة ، ولكنها شاقة جدا على الراغب فى تعلمها سواء فى

أصواتها أو صيغ كلماتها أو نحوها» .

– وفى سنة ١٩٢٩ ألقى «المستشرق ما سينيون» فى باريس محاضرة عامة حضرها عدد كبير من أبناء المغرب العربى ، هاجم فيها اللغة العربية ، ودعا إلى كتابتها بالحروف اللاتينية ، ورأى ذلك حلا لمشكلة الحروف وحركاتها ، وأهمها الشكل الإعرابى بالطبع .

تلك نظرة عامة وسريعة إلى أصحاب «اتجاه الرفض المطلق» من بعض المستشرقين والأجانب تجاه النحو خاصة والعربية عامة .

وقد تابعهم فى هذا الاتجاه وأفكاره بعض المصريين والعرب !!

– ومن هؤلاء «لطفى السيد» الذى دعا إلى تمصير اللغة العربية تحت ستار اللقاء بين الفصحى ولغة الناس ، وقال عن النحو والشكل الإعرابى «ليس الشكل من أصول اللغة بل هو أمر عرض بعد الإسلام خشية عليها من التحريف فى أواخر الكلمات ومبانيها .

وفى هذه الأيام أهمل الشكل بالمرة ... وإننا لسنا فى حاجة إلى إبطال الشكل وتغييره ، فقد ألغى من تلقاء نفسه» .

– وأسهم «قاسم أمين» فى هذه القضية كذلك ، ورأى أنه لاقيمة للنحو ولا للإعراب ، ويجب أن يطرح ذلك طرحا من لغتنا ، فأواخر الكلمات ساكنة لا تتحرك بأى عامل من العوامل ، وبهذه الطريقة – وهى طريقة جميع اللغات الإفرنجية واللغة التركية أيضا – يمكن حذف قواعد الرفع والنصب والجزم والحال والاستقبال وغير ذلك .

– ولست فى حاجة بعد ذلك إلى متابعة كل هؤلاء التابعين للأجانب والمستشرقين بالاستقصاء ، فالأستاذ «سلامة موسى» أشهر من أن ننبه على آرائه ، وأمامى كتاب «البلاغة العصرية واللغة العربية» وهو يردد الأفكار السابقة نفسها عن «لغة الكتابة ولغة الكلام» و «انتشار اللغة لسهولة نحوها والعكس بالعكس» و «الخط اللاتيني» و «الوقف بالسكون» و «إلغاء النحو والإعراب» ويقول «الإعراب فى لغتنا هو لعبة بهلوانية للذهن واللسان ، ولن نحسنها إلا بعد أن نربى عضلات قوية تستجيب بسرعة ، وكثيرا ما رأينا

القارئ الذى يلتفت إلى الإعراب لايفهم ما يقرأ وهو يعرب» .

– وسار فى نفس الاتجاه «الخورى مارون غصن» فى بيروت ، وكثير من أساتذة الجامعة الأمريكية فيها الآن ، حيث تطالعنا كتبهم بالأسماء الآتية «قواعد النحو على أساس جديد» و «نحو عربية ميسرة» و «دراسات فى النحو» و «اللهجات وأسلوب دراستها» إلى غير ذلك .

نفس الأفكار ، نفس الاتجاه ، نفس الدعاوى ، كأنما قد تواصوا عليها وإن اختلف أسلوب العرض وتغيرت الوجوه والأسماء ، فأنيس فريحه فى كتابه «نحو عربية ميسرة» يقول نصا «الإعراب لايتلاءم مع الحضارة ، نحن نرى فى الإعراب – الإعراب فى أية لغة – بقية من البداوة» و «لو أن الإعراب ضرورة للفهم والإفهام ، لبقى ولحافظت عليه جميع اللغات التى كانت معروفة ، ولكن لكونه غير ضرورى سقط . وقد جارت العربية الحيّة سائر اللغات فى مجراها الطبيعى، فهى من هذه الناحية حية نامية متطورة» ... «إن الإعراب عقبة فى سبيل التفكير، ذلك مما لانشك فيه وسقوطه من اللهجة المحكية – التى يقترح شيوعها – خطوة هامة نحو تيسير الكلام حتى يصبح الكلام طريقا ممهدا للفكر» ومعظم الدعاوى التى ترددت فيما سبق نجدها فى هذا الكتاب ...

ولعلى فى هذا العرض السابق لم أخرج عن قضية موضوعى فى النحو وتيسيره حيث اتخذت صعوبته وصعوبة تعلمه منطلقا لهذه الأفكار المتطرفة بمظاهرها المختلفة .

والملاحظة العامة التى أعلق بها على هذا الاتجاه هى : أن دعاواهم فى معظمها لا تعتمد على أسس علمية ذات قيمة ،بل هى فى معظمها أفكار سطحية تتملق الجماهير وتستفزها بكلام براق خادع ، لا وزن له فى مجال الحقيقة والعلم مع صرف النظر عن النيات الأخرى التى تكمن وراء كل ذلك – مما لا مجال هنا لذكره – حتى إن رد الفعل أمام هذه الدعاوى لدى الجماهير العربية المثقفة كان أيضا «الرفض المطلق» كما اعتمدت هى أيضا على «الرفض المطلق» .

* * *

أما الاتجاه الثانى فإنه – كما سبق – يتفق مع هذا السابق تجاه قضية النحو لكنه حاول أن يستند إلى أسس علمية يبرر بها فكرته، ليبدو فى مظهر الاعتدال والتعقل، وأبرز

من يعتد بهم هنا هو «الدكتور إبراهيم أنيس» وسأعرض فكرته باختصار شديد.

فى كتابه «من أسرار العربية» تناول الموضوع تناولا هادئا طويل النفس جميل العرض ، فتحدث عن نشأة الإعراب وتمكنه ثم تعقده ، وأن النحاة قد اخترعوه ونسقوه ، وجعلوه حصنا لهم يؤكدون من خلفه لأنفسهم القوة المادية والمعنوية «فقد صارت قواعده معقدة شديدة التعقيد ، وقد تفنى الأعمار دون الإحاطة بها أو السيطرة عليها ، وصرنا الآن ننفر منها لما اشتملت عليه من تعسف وتكلف ، بغّض إلى الكثيرين دراسة اللغة فى العصر الحديث » .

هذه الظاهرة ونظامها وقوانينها مخترعة إذن ومزيفة ، وكل هذا التراث المتضخم منها قام على أساس غير موضوعى وغير علمى ، وليس من شأنى فيما أنا بصدده أن أخوض فى تفصيلات رأيه ومناقشته – فلذلك موقف آخر – ولكن ألخص اتجاهه العام فقط فى عبارات قصيرة :

الأصل فى الكلمات أن تشكل أواخرها بالسكون ، وهكذا كان الأمر فى القديم ، وتحرك أواخل الكلمات يكون لأسباب صوتية يدعو إليها وَصْلُ الكلام ، والذى يحدد الحركة قانونان صوتيان هما :

١– إيثار بعض الحروف لحركة معينة كحروف الحلق مثلا التى تؤثر الفتحة .

٢– الميل إلى تجانس الحركات فى الكتلة الكلامية الواحدة .

باختصار : إن الإعراب عمل آلى يدعو إليه النطق المتصل فى الكلام دون أن يكون وراءه معنى أو نظام ، مما جهد النحاة فى تتبعه والتأليف فيه حتى دخلوا متاهات ضل فيها السالكون .

هذا الافتراض العلمى على الرغم مما فيه من جرأة يقف قاصرا أمام أهم ما لدينا من نصوص لغوية هى : الشعر والقرآن ، وإذا استطاع أن يفسر بعض الظواهر الجزئية ، فإن الكثرة العامة فى هذه النصوص تخالفه تماما وتجافيه، وهو بصفتيه هاتين – الافتراض والقصور عن تفسير النصوص العربية الصحيحة – لايحل لنا المشكلة الموجودة فعلا ، وهكذا بقى افتراضنا قاصرا على الرغم مما أثاره ويثيره من مناقشات وجدل .

ما علينا !! فلنتناول الاتجاه التعليمى الثالث ، هذا الاتجاه المتواضع الذى لم يناقش أساس المشكلة ، بل اتجه إلى تقديم ما يراه من تيسير على المتعلمين ، وقد بدأ مع بداية هذا القرن ، وانتهى بقصة «المسند والمسند إليه» ... ويالها من قصة !!

(٤)

بدأت فصول هذه القصة فى السنوات الأولى من هذا القرن ، إذ ألف «حفنى ناصف» ومعه آخرون كتبا لتعليم قواعد العربية تحت عنوانى «**الدروس النحوية**» للمدارس الابتدائية و «**قواعد اللغة العربية**» للمدارس الثانوية ، وقد اتبع فى ذلك طريقة الإجمال أولا ، ثم التفصيل ، ثم التفصيل الأكثر ، على معنى أن الذى يعلّم أولا هو نفسه الذى يعلم ثانيا مع اتساع فيه ، وهكذا بالتدرج ، والمادة العلمية الموجودة فى هذه الكتب تتناول الفعل وأحكامه ، ثم الاسم ، ثم الجملة بنفس الطريقة النحوية القديمة ، بل إن الطريقة نفسها قديمة ، اتبعها ابن هشام النحوى المصرى فى القرن السابع ، وأشار إليها ابن خلدون بقوله : ووصل إلينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر منسوب إلى جمال الدين بن هشام من علمائها ، اسوفى فيه أحكام الإعراب جملة ومفصلة ، وتكلم على الحروف والمفردات والجمل ، وحذف ما فى الصناعة من المتكرر فى أكثر أبوابها وسماه «المغنى فى الإعراب» .

لم يكن فى هذا التيسير تغيير فى المادة ولا فى الطريقة إذن ، وقد استمر معمولا به حتى أواخر العقد الثالث من هذا القرن ، حين ألف «**على الجارم**» كتابه الشهير «**النحو الواضح**» للمدارس الابتدائية والثانوية ، وأهم ما يميز هذا الكتاب أمران :

(أ) أنه غير فى الطريقة ، إذا اتبع استقراء الأمثلة للخروج منها إلى الملاحظة العامة أو القاعدة .

(ب) أنه لم يلتزم فيما يستقرأ من هذه الأمثلة شواهد النحو القديمة البعيدة عن روح العصر ، بل استخدم من الأمثلة النثرية والشعرما انتقاه بروح الأديب الشاعر ، لجذب الانتباه ومخالطة الوجدان ، ليسهل على الدارس الوصول إلى القاعدة .

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب قد ألف منذ زمن بعيد ، وانتهى العمل به فى المدارس بعد سنوات من تأليفه ، فإنه ما يزال – لهاتين الصفتين السابقتين – وسيلة ناجحة لتعليم النحو ، وتتوالى طبعاته حتى اليوم .

إلى هنا ، ولم يحدث تيسير فى المادة العلمية ، فهى نفسها مادة النحو القديم بمصطلحاته وأفكاره ، ولكن منذ سنة ١٩٣٥ بدأ التيسير فى المادة نفسها دون المصطلحات ، وبدأ الأمر هينا أولا باعتماد أصحابه على الارتباط – ولو بأدنى الأسباب – فى تيسيرهم بآراء النحاة الأقدمين ، على أن يكون فى ذلك نوع من التخفيف على الدارس وفهمه ، ومن أمثلة ذلك :

* فى الآية القرآنية (وكلوا واشربوا حتى يَتَبيَّنَ لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) يرى جمهور النحاة أن الفعل (يتبين) منصوب (بأن) مضمرة بين (حتى) والفعل ، ومن رأى بعض النحاة أنه منصوب بعد حتى بلا إضمار ، – وهذا ما أخذ به الميسرون .
* المستثنى التام المنفى فى مثل قول القرآن (ما فعلوه إلا قليل منهم) فيه وجهان لدى النحاة النصب على الاستثناء والرفع على الإتباع ، وقد اختار الميسرون وجها واحدا منهما – وهكذا فى كثير من مسائل النحو .

هذا تيسير فى المادة فى حدود الصلة بالآراء القديمة ، أو بعبارة أخرى : هو تيسير حَذِر اعتمد على اختيار الأسهل فيما هو موجود فى الكتب النحوية ولكنه لم يغير شيئا من المصطلحات التقليدية المتعارف عليها .

وهكذا ظل الأمر حتى سنة ١٩٥٨ – إنِ لم يخطئنى التاريخ – وفى هذه الأثناء ألف الأستاذ «إبراهيم مصطفى» كتابه «إحياء النحو» الذى اتخذ أساسا للطريقة المشهورة «المسند والمسند إليه» والتى لم تقتصر على التغيير فى المادة فقط ، بل غيرت أيضا المصطلحات ، وطُبقت فكرتها فى كتاب آخر هو «تحرير النحو العربى» وعلى أساسها كانت الكتب التعليمية المدرسية .

وسأقدم فكرة موجزة عن هذه الطريقة التى ما يزال دويها فى آذاننا ، لنخلص

بعد ذلك إلى الرأى فى هذا الموضوع .

لقد قامت هذه الطريقة على أسس اجتهادية أهمها :

* إن حركات الإعراب فى الكلام العربى ليست أثرا لعامل من العوامل بل هى دوالّ على معانٍ فى تأليف الجمل وربط الكلام .

ويتلخص هذا فى أمور ثلاثة هى :

– الضمة علم على الإسناد ، ودليل على أن الكلمة المرفوعة يراد أن يُتَحدّث عنها ويسند إليها .

– الكسرة علم على الإضافة وإشارة إلى ارتباط الكلمة بما قبلها .

– أما الفتحة فليست علامة إعراب ولا دلالة لها على شيء ، بل هى الحركة الخفيفة المستحبة عند العرب .

وإلى هنا قد يبدو الأمر سهلا وهينا ومقبولا أيضا ، ولكن صاحب الرأى حين أراد تطبيق فكرته على مسائل النحو العربى كلها ، اضطر إلى جهد عقلى كبير يحتاج لجهد مماثل فى الفهم والتطبيق .

فقد أراد أن يجمع تحت اسم (المسند إليه) كل شيء أسند إليه مثل المبتدأ والفاعل ونائب الفاعل واسم «إنّ» والمنادى وغيرها ، واضطر تبعا لذلك أن يتلمس لذلك وسائل تعسف فيها أحيانا – وبخاصة لما ليس شكله الضم فى اللغة – وبدت غريبة على الطريقة التقليدية المألوفة ، ومن أمثلة ذلك (اسم إن) والمنادى وغيرهما فى كلام طويل ليس هنا مجال ذكره – وكذلك فعل فى اصطلاحه (المسند) الذى جمع حوله الفعل والصفة والخبر ، واضطره اطراد قاعدته من افتراضه ان (المسند) يجب أن يكون بطريقة واحدة إلى تلمس وسائل اعتبرت أيضا غريبة ، وذلك كإهمال الضمير المستتر ، وجعل الضمائر فى الفعل إذا تأخر عن الفاعل علامات فقط للنوع والعدد ، وليست أسماء كما درج على ذلك النحو التقليدى .

وفى اعتبار الكسرة علامة للإضافة ، غير أيضا مصطلحات مألوفة ، كتسمية

حروف الجر حروف الإضافة ، وقوله : الإضافة تكون للأفعال كما تكون للأسماء .

كذلك سمى المنصوبات كلها «مكملات»

وليس من شك فى أن الأستاذ «إبراهيم مصطفي» كان شريف القصد نبيل الهدف، وأن عمله هذا يدل على حيوية عقله واجتهاده ، كما يدل أيضا على طول النظر فى النحو سنين طويلة حتى أطلق عليه الأستاذ العقاد لقب «سيبويه العصر» .

وبعد أن تهيأت له فكرته وفلسفته الخاصة قام بمجهود كبير لتعترف بذلك الهيئات المتخصصة ، وتطبقه فى التعليم ، وفعلا نال اعتراف المجمع اللغوى بذلك فى سنة ١٩٤٥، ثم أجهزة وزارة التربية والتعليم بعد ذلك سنة ١٩٥٧ وما بعدها ، وتحقق له ما أراد ، فطبقت طريقته فى المدارس الإعدادية والثانوية ، ولكن لم يقدر لها البقاد أكثر من ثلاث سنوات ، فصادفتها صعوبات وعقبات تربوية وقومية أكثر منها علمية .

ذلك أن هذه الطريقة فى محاولتها جمع مسائل النحو المتعددة فى إطار فكرتين أو ثلاث قد اصطدمت بمستوى الطلاب القاصر الذى يعجز عن التجميع والتجريد والإحاطة بالمسائل المتعددة فى إطار فكرة واحدة .

كما أن تغيير مصطلحات النحو المتعارف عليها من فاعل ونائب فاعل ومبتدأ وخبر وغيرها إلى مصطلحات أخرى كالمسند والمكملات وحروف الإضافة اعتبر أمرا خطيرا هز الوجدان العربى بصورة رهيبة – وبخاصة أنها طبقت فى عهد الوحدة بين مصر وسورية – ناهيك بسدنة التراث القديم الذين تنادوا من أرجاء الوطن العربى ، وتواصوا فى المؤتمر الذى انعقد بالقاهرة سنة ١٩٦١ على إسقاط جهد الرجل وطريقته ، فسقطت !! وعاد الأمر إلى ما كان عليه من قبل ذلك .

(٥)

والآن ما هو الحل ؟!

إن قضيتى الفكرية التى التزمتها فى كل الفقرات السابقة لهذا الموضوع هى :

التصدع القائم بين القواعد واللغة ، أو بعبارة أخرى : بين علم النحو واستخدامه عمليا فى النطق والتعلم ، وقد تابعت مظاهر هذه القضية فى تراثنا ، وفى المستويات الاجتماعية المتعددة للناطقين بالعربية ، ثم فى موقف الدارسين منها على اختلاف مللهم ونِحَلِهم .

ولكن المشكلة ما تزال قائمة !! فما هو الحل ؟؟

وفى رأيى أن الحل فى وقتنا الحاضر ذو شقين :

الأول : يتعلق بالظروف القاسية التى أساءت وما زالت تسىء إلى «نحو» اللغة العربية خاصة دون لغات العالم ، فإن هذه الظروف قد كونت طبقة عازلة سميكة ومدمرة تحول بين رغبة الفهم والفهم نفسه ، وأقامت حاجزا معوقا يمنع الالتقاء المتسامح بين طرفى القضية من الدارسين ومادة الدراسة .

الثانى : يتعلق بمادة الدراسة نفسها ، وذلك لتصفيتها مما خالطها من أفكار دخيلة عليها والاعتماد فى ذلك على الروح العلمية التى يمكن أن نفيدها من علم اللغة الحديث للقيام بهذه التصفية على أساس منهجى محدد ، ثم الطريقة العلمية التى نقدمها بها إلى الدارسين فى مستوياتهم المختلفة دون أن يصطدم ذلك بامتداد تراثنا الثقافى عبر الزمن ، ولا بامتداد وحدة فكرنا القومى المعاصر كله عبر المكان .

* * *

ومن الناحية الأولى ينبغى أن تطرد من حياتنا تماما تلك الدعوات الانهزامية التى ترتفع بين الحين والحين لتشكك فى لغتنا وترميها بالتحجر والجمود ، وتصف نحوها بالصعوبة والتعقيد ، والتى يقوم بها أحيانا — مع الأسف — بعض من يستمع الناس لهم ، إذ وضعتهم الظروف منهم موضع الرواد والموجهين ، فهم — وإن لم يحققوا بدعواتهم تلك ما يهدفون إليه منها — يسيئون إلى قضية اللغة ودراستها أكبر الإساءة ، إذ يضعون أمام أذهان الناس ووجدانهم وجها آخر مظلما للقضية اللغوية ، مع أن القضية ينبغى ألا يكون لها سوى وجه الحرص على هذه الأداة الاجتماعية الرائعة ، نعبر بها عن ثقافتنا وتفكيرنا وشعورنا ، تلك النغمات النشاز التى من هدفها التشويش

لا الإصلاح والتعويق لا التقدم نغمات ينبغى لها أن تصمت ، فهى غير عملية من ناحية ، وهى من ناحية أخرى لا تقدم للأمة غير التشكيك والتشاؤم والبلبلة الفكرية ، فمن الذى يتصور أن الأمة العربية ستكتب باللاتينية أو تصطنع العامية ؟؟ إننا يمكن أن نتصور ذلك إذا صح لنا أن نتصور أن الإنسان يستطيع أن يغير جلده ومقوماته النفسية والفكرية !!

– وهناك أمر ثان ينبغى أن يقرر وأن يشيع هو : أن لكل لغة من لغات العالم نحوها الذى يعبر عن طريقة تأليف جملها وكلماتها والوسائل الشكلية التى تعبر بها تلك اللغات عن وظائفها النحوية من ترتيب الكلمات أو الإعراب حسب العرف الذى اختارته اللغة وجاء نظامها عليه ، وأن «النحو» فى اللغات الأخرى ليس من السهولة إلى الحد الذى يدرسه به الدارس دراسة مترفة تعتمد على التدليل والتيسير ، بل إنه ليدرس باهتمام بالغ دون أن تقابله روح الاعتراض والتذمر التى أصبحت عادة من عاداتنا الخلقية، والتى استتبعها – وما يزال – الاستجابة الذليلة للتيسير ... ثم التيسير .

ولنأخذ الكتب اللغوية الانجليزية مثالا لهذه الفكرة ، فالمطولات التى تدرس اللغة وقواعدها فيها من الدقة والتفرع – بل ومظاهر الشذوذ – ما يجهد الدارس المتخصص فى معرفته والإحاطة به ، ومع ذلك لم يسمح لروح التدليل أن تفرض على علمائها ما يعانيه علماؤنا من هذا الخلق، والذى هو أصلا نتيجة التعود الخلقى قبل أى شيء آخر . انظر فى الانجليزية مثلا :

(١) Sapir, Langunge, An inroduction to study of Speech

(٢) Bloomfield, Language

– وأمر ثالث أشرت إليه فى هذا الموضوع سابقا ، وهو الروح الاجتماعية التى ما زالت تنظر شزرا إلى النحو وقواعده ودارسيه ، وهذه الروح وليدة ظروف عصيبة مرت بها لغتنا القومية فى القديم والحديث وأثر نفسى باق انعكاسا لظروف التخلف والانحدار التى منيت بها الأمة العربية نتيجة الاستعمار والجهل ، وأعتقد أن هذه الروح فى طريقها إلى الزوال قريبا بعد التغيير العام الذى وجه أوضاعنا السياسية والاجتماعية والقومية فى طريق سليم ، إذ بدأت الأمة العربية تبحث عن ذاتها ومقوماتها الأصيلة بعد أن

افتقدت ذلك من زمن طويل سمح لبعض الأفكار البغيضة أن تعيش وتتعنكب !!

- وهناك أمر آخر ينبغى أخذه مأخذ الجد وهو «القدوة الحسنة فى النطق» تلك التى يتسع مداها فيمن يقفون من الناس موقف المخاطبة العامة ، وأعنى بذلك أجهزة الإعلام من صحافة وإذاعة وتليفزيون ، حيث نسمع ونقرأ أخطاء سافرة فى مبادىء النحو الصرف ، وإن الإنسان ليدهش حين يقارن بين بعض المذيعين الأجانب الذين يتحدثون العربية ، فيسمع صياغة متقنة سليمة والمذيعين فى الإذاعات العربية حيث تكثر أخطاؤهم بطريقة منفرة مزعجة - ومثل ذلك تماما ما يحدث فى قاعات الدرس والمحاضرات مما ينبغى أن يتحقق له مستوى معقول فى مراعاة المبادىء العامة للنطق الصحيح ، وما زال يرنّ فى أذنى وأنا طالب صغير ما كان يكتبه وينطقه لنا مدرس الرياضة (ينطبق المثلثين على بعضهما تمام الانطباق) ويضغط على كلمة (المثلثين) ضغطا شديدا كأنما يؤكد به الخطأ فيها .

وما دمنا نأخذ الموضوع مأخذ الجد فأقترح أن يكون فى كل تلك الأجهزة مراقبون لغويون من أساتذة الجامعات والمتخصصين ، تكون مهمتهم التوجيه اللغوى والتثقيف والتنبيه على نماذج الأخطاء . ومن واقع الميدان العملى نفسه .

بهذه الأمور الأربعة «إسكات المشوشين الذين يسيئون للغة ودراستها - ورفض روح التدليل فى تعلم قواعدها - وتبدل النظرة الاجتماعية التى ستحدث تلقائيا بفعل ظروفنا الجديدة - ثم القدوة الحسنة» يتهيأ لنا بحق مناخ العمل المجدى لكل تسهيل وتيسير .

* * *

أما الشق الثانى من الحِلّ الذى مجاله المادة النحوية نفسها ، فيعتمد على الخطوط العامة الآتية :

أولا : الاعتماد على المنهج اللغوى الحديث فى التفكير فى اللغة وفى تصفية النحو مما عَابَه من خلط وأفكار دخيلة فلسفية ومنطقية .

وليس هذا موضعى لأخوض فى تفصيلات هذا المنهج ، ولكنى فقط أقدم بعض أسسه التى يمكن أن نفيد منها فى ذلك .

* يعتمد هذا المنهج على دراسة اللغة دراسة تنبع من اللغة وتعود للغة أيضا دون السماح لأية أفكار أخرى غير لغوية أن تتدخل فى هذه الدراسة .

* قيمة التفكير المعتمد على هذا المنهج تقوم أساسا على مبادئه العامة التى تقدم روحا جديدة للبحث والنظر ، وتتناول النصوص لتحليلها كما تنطق فعلا على مستوى الأصوات والحروف وبينه الكلمة والتركيب والدلالة ، فهو يعتمد على هذه المبادىء المنهجية لا على اجتهاد فرد من الأفراد يجوز على آرائه الخاصة الصواب والخطأ - كما حدث فى التبسيرات التى قامت على الأساس الأخير .

* من مبادئه الهامة أن يفرق بين منطق اللغة ومنطق أرسطو المعروف بالمصطلح الأوربى Logic ، وهو يعاضد الأول ويرفض الثانى ، وبذلك تتضح قيمته فى التفكير فى النحو الذى جنى عليه المنطق الأخير .

* يرفض هذا المنهج التخريجات النحوية والفضول والمماحكات والتخيل والظنون ، إذ يستقرىء اللغة فى حدود نصها لاما يتخيله الذهن منها ، وبذلك يبدو دوره فيما امتلأ به كتاب النحو العربى من هذه الأمور .

* من مبادئه الاعتراف بالاستقراء لا بالقياس ، والاستقراء يؤدى إلى «الملاحظة العرفية العامة» لما يستقرأ ، وبذلك يخفف كثيرا من حدة الأقيسة التى فرضت سلطانها فى دراسة النحو فى مقابل «الاستنباط» الذي ينبغى أن يأخذ به التأليف المعاصر .

* من مبادئه كذلك البحث فى العلاقات بين الظاهرة اللغوية والصفات والظروف التى أوجدتها دون البحث عن غاياتها ، وفى ضوء ذلك تتضح ضرورة إسقاط العلل والمهاترات الجدلية التى ضخمت كتاب النحو العربى دون فائدة .

* يهتم هذا المنهج فى المقام الأول بالبحث فى اللغة عن الشكل والوظيفة المستقرأة بالفعل لا المتخيلة فى العقل ، وفى ضوء ذلك يتضح ما ينبغى

إسقاطه من التأويلات الغريبة التى ضخمت كتاب النحو العربى وعقدت دراسته.

وليس فى الإمكان فى موضوعى هذا أن أزيد ذلك تفصيلا (١) .

ثانيا : هذه التصفية التى تقوم على أساس المنهج اللغوى الحديث ينبغى لها – فى الوقت الحاضر على الأقل – أن تكون عملية ، بأن تحافظ على مصطلحات النحو وتقسيماته رعاية للجانب الثقافى من حياتنا ، وكذلك موقف العالم العربى كله من ذلك ، حتى لايكون مصيرها الفشل ... ثم الرفض .

هى فقط وسيلة منهجية فيها غنى علمى تستمد أسسها من الدراسات اللغوية الحديثة التى قوامها : دراسة اللغة لذاتها ومن أجل ذاتها ، يقوم على أساسها التصفية والتنقية إلى أن يمكن تطبيقها تماما .

ثالثا : يتدرج التطبيق على أساس ذلك – مع مراعاة رفض التدليل والتيسير المخلّ – لتقديم أبواب النحو ومسائله فى مستويات متعددة للمتخصصين فى اللغة – ثم المحتاجين إليها فى حياتهم العملية فى الفروع الإنسانية الأخرى كالقانون والسياسة والإدارة والتأليف – ثم التثقيف العام فى المدارس العربية على اختلاف مستوياتها (٢) .

وبعد

فلعل هذا الموضوع قد أفلح فى توضيح قضية النحو العربى – نظرا وتطبيقا – فى مظاهرها المختلفة تاريخيا واجتماعيا وعلميا – مرتبطا فى الأمرين الأخيرين بواقعنا المعاصر – وساهم إيجابيا فى تقديم تخطيط عملى لما ينبغى أن نسير عليه فى الحاضر والمستقبل .

---

(١) انظر كتابى : أصول النحو العربى في نظر النحاة ورأي ابن مضاء وضوء علم اللغة الحديث .

(٢) أسهمت بناء على هذا المنهج الذي ذكرته بكتاب «النحو المصفّى» للمتخصصين في اللغة العربية .

مجال الصراع بين اللهجات والفصحى

ظاهرة خطيرة تبدو فى علاجنا لقضايانا الهامة ، فنحن لانصل فيها إلى حل حاسم ، بل تبقى معلقة تتناوشها آراء غير المتخصصين ، وكلما زاد هؤلاء إلحاحا فى مسألة من مسائلنا القومية أو اللغوية أو الأدبية ، ازدادت المسألة تعقيدا واضطرابا وسوقية ، لأنهم يتحدثون فى تلك المسائل بدون منهج مدروس أو ثقافة عميقة يدفعهم للحديث نوع من العناد أو العواطف الكاذبة أو حب الظهور . فيأتى حديثهم فَجًّا لا فكر فيه ولا خصوبة ، وترهبنا العناوين ، وضجة الألفاظ التى لاتثبت أمام الفكر والحقيقة ... وهكذا أتعبنا هؤلاء مع «الشعر الحر والتقليدى» و «مسئولية الأديب والناقد» و «اللغة والقومية» و «العامية والفصحى» تلك التى شغلت كثيرا الصحف .. والعقول .

ولقضية العامية والفصحى مظاهر ثلاثة ، تختلط فى أذهان المتحدثين عنها من ناحية ، وتختلط عليهم نتائجها من ناحية ثانية ، فإذا حددت كل قضية منها ، وإطارها الذى تدور فيه ، وجدنا أمامنا أرض المعركة ، ومجال الصراع ، فنتحدث حينئذ عن رؤيا فكرية صحيحة .

والمظهر الأول هو : طبيعة وجود اللهجات العامية بجانب العربية المشتركة ، وهل فى هذا الوجود خطر على أحدهما ؟ وأقرر أولا قضية لغوية يعرفها المتخصصون جيدا بأن اللغة ظاهرة اجتماعية خطيرة ، إن لم تكن أخطر الظواهر الاجتماعية على الإطلاق ، فموقف المتكلم من اللغة موقفه من العادات والتقاليد والدين والملابس وطريقة المعيشة فى المجتمع الذى يعيش فيه ، وفى ذلك يقول «فندريس» : «ففى كل مجتمع مهما كانت طبيعته وحجمه تلعب اللغة دورا ذا أهمية أساسية ، إذ هى أقوى الروابط بين أعضاء هذا المجتمع ، وهى فى الوقت نفسه رمز لحياتهم المشتركة وضمان لها» . فاللغة إذن هى إحدى الخصائص الهامة للجماعات البشرية ، فهل من طبيعة لغة من اللغات أن

توجد وحدها فصيحة مشتركة ، ولا شيء غيرها ؟ أم ان من طبيعة اللغات أن توجد المشتركة ومعها لهجانها العامية مع اختلاف النسبة بين اللغات فى ذلك ؟ إن صلتنا باللغات الأجنبية وثقافتها كالانجليزية والفرنسية تسمح لنا بأن نقول : إن اللغة المشتركة العامة المستعملة فى الثقافة والعلوم والإذاعة والصحف والحديث الجدى تعيش بجوارها لهجاتها المحلية التى يتحدثها رجل الشارع والمثقف فى حياته العادية ، وعلى سبيل المثال فى اللغة الانجليزية تختلف لهجة اسكوتلندا عن لهجة انجلترا اختلافا بينا فى نطق بعض الكلمات، فمثلا فى كلمة Start ينطق أهالى «اسكوتلندا» الحرب r ولا ينطقه أهالى «انجلترا» فإذا تعلم «الاسكوتلندي» الفصيحة منع من ذلك النطق ، ويختلف الأمريكيون عن الإنجليز فى تفخيم وترقيق الحرف A فمثلا الكلمات Half و Night أو I can مفخمة عند الإنجليز ومرققة عن الأمريكيين .

وفى لغتنا العربية وجدت اللهجات بجوار اللغة الفصيحة قديما وحديثا ، واعترف بها العلماء دون خوف . يقول أبو سعيد السيرافى شارح كتاب سيبويه متحدثا عن نظم الكلام العربى : معانى النحو(١) منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته ، وبين وضع الحروف فى مواضعها المقتضية لها ، وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير وتوخى الصواب فى ذلك ، وتجنب الخطأ من ذلك ، وإن زاغ شيء عن هذا النعت ، فإنه لايخلو أن يكون سائغا بالاستعمال النادر ، والتأويل البعيد ، أو مردودا لخروجه على عادة القوم الجارية على فطرتهم ، فأما ما يتعلق باختلاف القبائل فذلك شيء مسلم لهم ، ومعروف عنهم (٢) ويرحب الجاحظ بنوادر العامة فى عصره ، ويرى أن تؤخذ كما نطقت بلهجة متحدثيها ، ويحذر من استعمال الإعراب فيها فيقول : «وإذا سمعت نادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطغام ، فإياك وأن تستعمل فيها الإعراب أو تتخير لها لفظا حسنا ، أو أن تجعل لها من فيك مخرجا سويا (٣) » ويروى صاحب الخصائص عن ثعلب قوله : «ارتفعت قريش فى الفصاحة عن عنعنة تميم ، وكشكشة ربيعة ، وكسكسة هوازن، وتضجع قيس ، وعجرفية ضبة ، وتلتلة بهراء» .

---

(١) يقصد بالنحو نظم الكلام لا قواعد اللغة

(٢) الإمتاع والمؤانسة جـ ١ ص ١٢١

(٣) البيان والتبيين جـ ١ ص ١١١ .

فاللهجات – ولغات القبائل – قد وجدت على مدى العصور، ووجدت المشتركة أو الفصيحة مع تلك اللهجات، في الجاهلية وفي الإسلام، في العصور الوسطى في عصرنا الحديث ، في اللغة العربية وفي غيرها من اللغات، ولا يعنينا في هذه القضية ماخاض فيه اللغويون القدماء والمحدثون في فروضهم للتطور اللغوي بينهما ، وأيهما كان سببا في الآخر، أكوّنت المشتركة اللهجات ؟ أو تولدت اللهجات من المشتركة ؟ فكلا الغرضين في حاجة إلى مناقشة طويلة ، ومجاله تاريخ التطور اللغوي – كما ذكرت – ذلك العلم الذي يحاول فيه اللغويون المحدثون من مستشرقين وعرب تصور الفروض، وتأييدها بالنظريات المستخلصة من ظواهر الصراع بين اللغات الحديثة، وذلك لقلة عناية العرب القدماء بتلك الناحية دراسة أو تسجيلا ، وقلة الإشارات المحددة لذلك زمانيا أو مكانيا في المعاجم العربية.

لقد وجدت الفصيحة إذن ، وعاشت مع اللهجات جنبا إلى جنب ، ومن الطبيعي أن كلا منهما عبرت عن مشاعر وأفكار من نوع خاص ،

فاللهجات المحلية استعملت قديما وحديثا في شئون الحياة العادية من المثقفين وغير المثقفين ، والذي لاشك فيه كذلك انها أنتجت أدبا خاصا بها ، كان مظهره في تلك الملح والنوادر التي يشير إليها الجاحظ في نصه السابق ، وفي غير موضع من كتابه «البيان والتبيين» وكذلك الأزجال والمواليا وبعض مظاهر النطق في الأشعار والأمثال القديمة ، وفي أيامنا هذه في المواويل والأغاني والأزجال والأمثال والملاحم الشعبية التي تغنى على الربابة –

والفصيحة كانت وما زالت ترجمان الثقافة والفكر ، فأنتجت ذلك التراث الزاخر بين أيدينا من مطبوعات ومخطوطات علميّة وأدبية ، وهي طوع المتمكنين منها الحديث بها في المجالات الجدية الراقية ، في الخطابة والمحاضرات والنشرات ، وكثير من مواد الإذاعة وكما يقول الأستاذ محمود تيمور : «إن الدعوة إلى تسويد الفصحى تطاوع تلك المشاعر النفسية في الأمة ، وتجاري الدافع الطبيعي الرقي الاجتماعي ، وكل دعوة تتغاضى عن النزعة النفسية العامة ، وتستخف بالطبائع الاجتماعية الدافعة دعوة ذاهبة مع الريح[١] » .

---

(١) مشكلات اللغة العربية .

* * *

وهنا ... نجد أنفسنا أمام الجانب الثانى من القضية . وهو دراسة وبحث كل من اللهجات واللغة المشتركة ، فهل نقتصر فقط على اللغة الفصيحة ندرس لغتها وأدبها ؟ أو ندرس كلا المظهرين الاجتماعيين بلا محاباة ؟ والجواب لايحتاج إلى كبير عناء ، وقد فرضت الحوادث نفسها فى تلك القضية ، فإنتاج الفصيحة من علم وفن قد درس قديما وحديثا ، وأما الإنتاج العامى الشعبى فقد درس قديما من الناحية اللغوية ، ولكنه خرج عن مجاله كما سنرى فى معالجة المظهـر الثالث ، وبين أيدينا بعض الآثار القليلة التى سجلت مظاهر ذلك التراث ، ومن ذلك كتاب «صفة جزيرة العرب» للهمدانى (٣٣٤ هـ) و«أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم» للمقدسى (٣٧٥ هـ) وبعض الشواهد المبعثرة فى كتب النحو والمعاجم وبعض المخطوطات التى سجلت بعض القصص والحوار الشعبى الذى كان يلقى مع عرض الشخوص المعروفة «بخيال الظل» فى عهد المماليك ، ولكن تلك الآثار قليلة جدا من ذلك الطوفان الشعبى الذى اندثر لعدم العناية بتسجيله ... ولذلك كانت اليقظة الحديثة للعناية باللهجات ودراستها من الناحيتين اللغوية والأدبية ، ففى جامعة القاهرة معمل للأصوات [١] اللغوية ، من مقاصده دراسة اللهجات ، وكرسى للأدب الشعبى [٢] وبين لجان المجلس الأعلى للفنون والآداب لجنة خاصة بالأدب الشعبى لتشجيعه ورعايته وفى وزارة الثقافة إدارة خاصة بالفنون الشعبية .

ولا خطر مطلقا من دراسة كلا المظهرين فى لغتنا ولا خطورة على احداهما من تلك الدراسة ، بل فى ذلك استكمال لنقص فى ثقافتنا ، وإتمام لحلقة فقدت قديما فى ابحاثنا اللغوية والأدبية .. والتحفظ الوحيد لتلك الدراسة ينبع من داخلها بأن ندرس كلا منهما فى مجاله الخاص كظاهرة طبيعية لعواطف وأفكار خاصة ... وبذلك نفهم طبيعة ذلك الموقف الحاد الذى تعالج به الدكتورة «بنت الشاطىء» هذه القضية ، فتقول : «إحدى اثنتين : إن كانت العامية مرضا ورجسا فإن أيّ ترخص فى استعمالها جريمة فى حق الوطن ، وأى اعتراف بأدبها الشعبى ، أو عناية بتراثنا منه خيانة للأمة ، وثغرة فى بناء

---

(١) بكلية دار العلوم

(٢) بكلية الآداب

النهضة ... أما إذا كانت الدولة قد اعترفت بالعامية فى أدبنا الشعبى الذى تشجعه وترعاه ، وتستنقذ تراثه من الضياع وهى تقدر أن هذه العامية أداة التأثير الوجدانى فى الشعب ، والاتصال به ، والنفوذ إليه ، وطريق الفهم لمزاجه وعواطفه وتاريخه ، فقد وجب أن توضح الهيئات الثقافية المسئولة موقفها منه [١] . فهى توقفنا (بإمًا) هذه موقف الخيار فيما لا خيار لنا فيه ، والأمر لديها أمر ترخص ... ودولة ... وهيئة مسئولة ، لا أمر ظواهر اجتماعية تدرس فى مجالاتها الطبيعية ، كما سنرى فى علاج الجانب الثالث من القضية وهو «التعاون بين المظهرين اللغويين» كما يسميه المتسامحون ... أو «الخلط بينهما» كما يراه المحافظون ، أو «الصراع بينهما والانتصار لأحدهما كما يدعو لذلك غير المتخصصين، ومظاهر هذا التعاون أو الخلط أو الصراع - حسب ما تراه كل طائفة - تبدو فى مظهرين هما الدراسة والاستعمال .

* * *

فمن الناحية الأولى يجب أن يحدد الدارس مجاله الذى يدرسه ، فاللغوى الذى يدرس لهجة من اللهجات أو الدارس الأدبى الذى يتناول مظاهر الفنون الشعبية المختلفة له مجاله الخاص به ، وهو متفرد فى بحثه عن ذلك الذى يتناول عملا أدبيا من اللغة الفصحى ، أو يستنبط ظاهرة لغوية من استقرائه للغة الأدبية المشتركة ، والخطورة هى فى الخلط الدراسى بينهما أثناء البحث ، ولنا على ذلك دليل واضح فيما صنعه اللغويون القدماء ، إذ خلطوا بين الفصحى لغات القبائل فى الدراسة فخلفوا لنا تركة مثقلة بالأخطاء المنهجية ، نضل فى تعرف وجه الحق والصواب فيها ، فعلماء اللغة القدماء قد دونوا كل ما سمعوه من اللغات العربية ، أو كما يقول الأستاذ أحمد أمين : «اعتبروا اللغة العربية وحدة مع اختلاف القبائل ألفاظا وتراكيب ولهجة [٢] » أو كما يقول السيوطى فى المزهر معددا قبائل كثيرة دونت لغاتها ... إن الذين نقلت عنهم اللغة العربية ، وبهم اقتدى ، وعنهم أُخِذ اللسان العربى من قبائل العرب هم قيسٌ وتميمٌ وأسد . ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين [٣]» فماذا كانت نتيجة ذلك ؟ لقد كانت نتيجته الخلط والاشتراك

(١) ملحق جريدة الاهرام فى ١٩٦١/٦/٢٣ .

(٢) ضحى الإسلام جـ ٢ صـ ٢٥٢ .

(٣) المزهر جـ ١ صـ ١٠٤ .

فى معانى الألفاظ فى المعاجم العربية حتى إن اللفظ قد يطلق احيانا على معان لا صلة بينها ، وكان من نتيجته كذلك تلك الآراء الكثيرة المتعارضة فى كتب النحو ، يعتمد كل رأى منها على شواهد منسوبة للغات مختلفة ، وليس هنا مجال التعداد التطبيقى لذلك ، ولكنى أسوق ذلك دليلا على ما يمكن أن يؤدى إليه الخلط الدراسى بين المظهرين ... فقط يمكننا أن نستعين بنتائج دراسة اللهجات الآن إذا وجدنا فيها عناصر أو ألفاظا عربية أصيلة ، فنشيع استعمالها فى اللغة المشتركة ، فنرد إليها اعتبارها ، ونستغلها فى تلك اللغة .

وأما الناحية الثانية من الخلط بين المظهرين فهى استعمال اللهجات فى مجالات الفصحى أو العكس ، وربما كان أهم فن أدبى يقع فيه ذلك الآن هو «فن القصة» – وقد قلت فيما سبق : إن العامية تستعمل فى التعبير عن الأفكار الدارجة والمواقف العادية ، ويبدو أن التهجم على ذلك الفن الأدبى ممن لايحسنونه قد دفعهم إلى نقل تلك الأفكار والمواقف فيما يكتبون من قصص ، فكثير منها يدور حول المقاهى ... والأحياء البلدية و«الشاويش عوكل» و «عمى مدبولى» إلى آخر ذلك مما يسأل عنه من يجلسون فى مواضع التحكيم بين قصص الناشئين ، ولذلك كان من الطبيعى أن يستعملوا فى ذلك اللهجات العاميّة ، فأصبحت قصصهم بلا موضوع ولا لغة .

وأما القصص الفنية الراقية التى يلجأ أصحابها إلى استعمال العامية فى الحوار فيها – مع افتراض حسن النية والتمكن من اللغة – فإنى أسائلهم : أتبيحون أن تُستعمل الفصيحة فى مجالات الحديث العادى ؟ وهل تضمنون – يفعل ذلك – ألا يسخر منه المجتمع ، وإذا لم نستطع التهجم على المجالات العامية باللغة الفصيحة فبأى حق نستعمل اللهجات فى مجالات الفكر ... والفن ... والابداع ؟ على أن هناك وسيلة أخرى للحوار باللغة الفصيحة لاتبعد بنا كثيرا عن الأداء النفسى واللغوى للطبقات الشعبية ، وهى استعمال الجمل القصيرة على أن تكون ألفاظها من العربية التى تدور بين العامة ، ولأضرب لذلك مثلا من قصة «وديعة الله» لقصاص ناشىء ، حيث يتحدث جماعة من التجار عن زميل لهم نال بأمانته الثراء والثقة .

– إن الحاج عبدالرحمن رجل فاضل ... يشكر الله فى أمواله ، فيحسبن إلى

الناس.

- صدق الله العظيم ... لئن شكرتم لأزيدنكم .

- إنه يعاون المحتاجين فى الحى ، ويفتح محلات صغيرة للتجارة ، وييسر العمل للناس .

- هكذا يكون الرجال ... اللهم زده من نعمتك ، وأكثر من أمثاله .

وأعتقد أن العامة - خصوصا والأمية فى طريقها للزوال من المجتمع - يتحدثون بمثل هذه الجمل وتلك الألفاظ مع التغاضى عن بعض الخصائص الصوتية ... وإعراب الكلمات .

فهلا تركنا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لِله ، فلم نخلط بين المظهرين إلا بالقدر الذى لايمس الصيغ والنظم فى اللغة المشتركة ، وتوافق فى نفس الوقت على ضمه لأسرتها وتنظيماتها ؟

* * *

تلك هى المظاهر الفكرية الثلاثة التى خلط بينها من تناولوا الموضوع ، وقد واجهتها فى هذا المقال ، فبينت ، أنه لاخطر فى وجود العاميات بجانب المشتركة ولا فى دراسة كلا المظهرين فى لغتنا ، وليس فى ذلك ثنائية لغوية أو دراسية ، لأن طبيعة وجودهما تتفق مع طبائع اللغات بصفة عامة من ناحية ، ومع طبيعة العربية بصفة خاصة من ناحية أخرى .

والخطر فقط فى الخلط بينهما فى الاستعمال أو الدراسة نتيجة التعمد أو القصور وبذلك انكشف مجال الصراع فى تلك القضية ، وقد بينت وجه الرأى فيه .

مراجع الموضوع

١- مستقبل اللغة العربية المشتركة	الدكتور إبراهيم انيس
٢- الخصائص جـ ٢	لابن جنى
٣- المزهر فى علوم اللغة جـ ١	السيوطى
٤- البيان والتبيين	الجاحظ
٥- مشكلات اللغة العربية	الأستاذ محمود تيمور
٦- قضايا الفكر فى الأدب المعاصر	وديع فلسطين
٧- اللغة بين المعيارية والوصفية	دكتور تمام حسان
٨-اللغة	فندريس ، ترجمة الدكتور عبدالحميد الداوخلى.
٩- الإمتاع والمؤانسة	ابو حيان التوحيدى ، تحقيق الأستاذ أحمد أمين
١٠- ضحى الإسلام جـ ١	الاستاذ أحد أمين .
١١- مقالات نشرت بجريدتى الأهرام والجمهورية	

التأثير الديني واللغوي في الروح القومية

إن عامل الدين وصلته بالقومية من المسائل الحساسة التى يحجم كثير من الكتاب عن تناولها والخوض فيها ، إذ يؤثرون السلامة على التجربة والمحاولة .

لكن إغفال الواقع لاينفيه ولا ينفى تأثيره ، والواقع أن الدين يفرض وجوده بقوة على عقول الملايين ووُجْدَ اناتهم ، كما يفرض نفسه قضية بالغة الخطر على كل باحث يتصدى فكريا للحديث عن القومية .

ويرجع الإحجام عن تناول هذا الموضوع إلى وجود أقليات غير مسلمة ، قد يكون من الحساسية لها الخوض فيه ، بل إن هذه الحساسية نفسها تصدق أيضا على الأكثرية المسلمة عند إثارة هذا العامل ، ولكن الذى أعلمه أننا فى هذه المرحلة قد تجاوزنا فكريا مراحل الانفعالات الفجة، والمراهقات الفكرية إلى مرحلة موضوعية ناضجة ترتفع فى فهم قضايانا القومية عن ضيق الأفق والتشنجات السطحية إلى نظرة رحبة متسامحة، فيها تقرير للحقيقة كما هى فى الواقع، لا كما تلونها العصبيات والتقاليد .

وإذا صرفنا النظر عن هذا الموقف السلبى تجاه هذا الموضوع ، فإن من يحومون حوله يلمسونه لمسا رفيقا لا يعتصر كل ما فيه ، ولا يعطينا صورة متكاملة عن هذا الموضوع الحيويّ الخطير ، وباستقراء هذه الآراء بما هى عليه من الرفق وقصر النفس نجد أنها تنقسم إلى تيارين فكريين يتصارعان فى أذهان الباحثين ، ويكوّنان بصورة عامة أبعاد الصراع وأعماقه .

* * *

أما التيار الأول فمن رأيه أن الدين عامل مؤثر كل التأثير فى القومية ، بل هو أهم العوامل التى أوجدت الشعور القومى ووحدة العرب وحضارتهم ، فهم مدينون له بكل ما يتغنون به من أمجاد التاريخ والحضارة والمشاعر القومية ،

ومن أبرز الآراء فى هذا الاتجاه رأى الدكتور طه حسين الذى أعرب عنه غير مرة فى تصريحات متناثرة ومقالات متباعدة ، نذكر منها على سبيل المثال ما صرح به فى الكلمة التى ألقاها فى مؤتمر الأدباء الثالث الذى انعقد بالقاهرة ، والذى خصصت مجلة «الآداب» أحد أعدادها الممتازة لنشر أهم ما جاء فيه [١] . قال الدكتور طه «فالقومية العربية إذا أردنا أن نعرف متى تكونت بالمعنى الدقيق لكلمة القومية ، فينبغى أن نردها إلى ظهور الإسلام ، فالمكون الحقيقى للوحدة العربية بجميع أنواها وفروعها - الوحدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية واللغوية أيضا - إنما هو النبى (ص) هو الذى جاء بالقرآن ودعا إلى الحق[٢]»

ثم يستعرض بعد ذلك مراحل ارتباط القومية بالإسلام - من وجهة نظره - منذ ظهوره فانتشاره فى البلاد الإسلامية المختلفة مؤكدا فى هذا العرض الفكرة السابقة من أن الإسلام هو أساس القومية ومنشؤها ، ومنه وبه انتشرت بين العرب والمتعرّبين على السواء «فإذن هناك قومية عربية جديدة أنشأها الإسلام ، لم تكن تأتلف من عنصر عربى خالص ، وإنما كانت تأتلف من جميع العناصر التى كانت تسكن هذه البلاد - يقصد البلاد المفتوحة - فأنشأ الإسلام إذن أمة جديدة ، وجعل هذه الأمة عربية ، عربية اللغة ، وعربية التفكير والشعور ، عربية الحضارة ، وعربية العلم والثقافة والأدب [٣] »

والدكتور طه لايمثل بهذا الاتجاه السابق نفسه فقط ، بل هو على رأس اتجاه فكرى عام له أنصاره ومؤيدوه وإن لم يبرز لهؤلاء عمل علمى متكامل يعتد به .

---

(١) الآداب : يناير سنة ١٩٥٨ عن : الأدب والقومية العربية .

(٢) الآداب : العدد السابق صـ ٧

(٣) الآداب : العدد السابق / ص ٩ يناير سنة ١٩٥٨ .

أما الاتجاه الآخر فى النظر إلى الموضوع فهو أشد وضوحا من الاتجاه السابق ، وأعنف حدة فى الفصل بين الدين والقومية ، وفى الهجوم على من يربطون بينهما بأقوى الأسباب أو بأوهاها ، بل انهم ليرون على العكس من ذلك تماما أن الدين كان أحد العوامل المعوقة فى بعض الأحايين، وذلك حين اختلطت الناحية القومية بالدينية، أو بعبارة أخرى حين احتضنت الناحية الدينية الفكرة القومية ، فيحنئذ دب إليها الضعف والهزال ، وكادت الشخصية العربية تضيع تحت وصاية الناحية الدينية . وهم يستشهدون على ذلك بأحداث التاريخ العربى الطويل ويرون أنها كلها تؤكد وتؤيد وجهة نظرهم فى الفصل بين الدين والقومية . فمثلا فى فجر التاريخ العربى حين خرج العرب من جزيرتهم فى انتشار المد القومى أيام دولتى الفرس والروم انضاف عرب الحيرة المسيحيون مع اخوانهم المسلمين ضد الفرس الوثنيين على الرغم من اختلاف الدين ، بل أكثر من ذلك انضم عرب الغساسنة إلى اخوانهم ضد الروم الذين يتحدون معهم فى الدين [1] .

بل إن حياة الدولتين الأموية والعباسية من أهم ما يستشهد بها لهذا الاتجاه فالدولة الأموية كان الفرد العربى فيها يدين بالولاء للجماعة العربية مباشرة ، وكان العرب فى عهدها فى قوة ومنعة ، أما فى عهد العباسيين فقد أصبح هناك وسيط بين ولاء الفرد العربى لأمته وهو الناحية الدينية أو الخلافة ، وبذلك انحدر الوعى القومى واستمر فى الانحدار حتى وصل إلى أقصى انحداره بفقدان العرب حريتهم واستقلالهم ، حيث جمدوا وتصلبوا نتيجة نوم الروح القومية فى أحضان الفكرة الدينية منذ عهد الخليفة المتوكل إلى العصر الحديث [2] .

بل إن الشاهد القريب على ذلك هو الدولة التركية التى أصيب العرب فى عهدها بأقسى المهانة والتخلف ، وأصبح المجتمع العربى منطويا على نفسه ، بل أصبح طعمة للطامعين والمستعمرين نتيجة ولاء الفرد العربى للفكرة الدينية ، حيث ارتبطت بالدولة العثمانية التركية ، فقد استُغل الدين لضمان الولاء للدولة ، بينما العرب فى ظلها يهوون إلى الحضيض ، ويعيشون فى التخلف والجهل .

---

(١) أصول الوعى القومى العربى صـ ٢٤ ، ٢٥ .

(٢) راجع السابق ص ٢٦ وما بعدها .

كل هذا - فى رأى أصحاب هذا الاتجاه - يؤكد ضرورة الفصل بين الدين والقومية ، بل يؤكد ما هو أكثر تطرفا وهو انحدار الروح القومية فى ظل الناحية الدينية، يقول بعضهم : «إن القومية فى أصلها وجوهرها شعور ، والأمة هى نتيجة هذا الشعور هى نتيجة شعور الأفراد واعتقادهم بوجودها ، وهذا يتحقق بالاشتراك فى اللغة والتاريخ والأفكار ، ولا يهمنا أن يشتركوا فى الدين أو العنصر [1] » فمن غير المهم فى رأى الباحث الاشتراك فى الدين ، فالقومية فى رأيه يجب أن تفصل عن الدين .

ومن أبرز المنادين بهذا الاتجاه الاستاذ (ساطع الحصرى) والأستاذ (منيف الرزاز) وقد ألحّ الأول على هذه الفكرة إلحاحا متواليا فى كثير من كتبه ، ومن رأيه أن الحركة الإسلامية «كانت إحدى الهزات الهامة فى حياة العرب القومية ، ولكنها لم تكن أساسا للقومية ولا موجدة لها «فالحركة الإسلامية لم تبق مرتبطة بالقومية العربية ارتباطا تاما ، لأن بعض الجماعات استعربت دون أن تعتنق الديانة الإسلامية ، وبعكس ذلك فإن بعض الجماعات اعتنقت الديانة الإسلامية دون أن تستعرب ، وتكونت بذلك جماعات عربية غير مسلمة من ناحية ، وأمم مسلمة غير عربية من ناحية أخرى [2] » وهو بذلك يقدم شاهدا آخر على عدم ارتباط الدين بالقومية ، إذ لم تبق الفكرة القومية مرتبطة بالدين ، بل انها لم تكن مرتبطة به من قبل وجوده ، فهناك فاصل فكرى بين الاثنين ، وهو نفسه الذى كان مظهره عمليا فى الشعوب العربية والمسلمة ، حيث لم يكن ارتباط تام بين الأمرين .

والأستاذ «الحصرى» يركز فى كتاباته دائما على أن الارتباط الحقيقى إنما هو بين اللغة والقومية ، إذ يعتبرها عامل القومية الأول والأصيل فى الوقت نفسه .

أما الأستاذ «الرزاز» - وهو أحد ممثلى حركة البعث العربى - فيتفق مع الأول فى نفس الاتجاه ، إذ يرى أيضا أن هناك فاصلا فكريا بين الدين والقومية ، وهو ما ترجم واقعا فى الفصل بين الأمم العربية والإسلامية [3] لكنه يضيف إلى ذلك أن الدين

---

(١) محمد والقومية العربية ص ١٢ .

(٢) ماهى القومية ص ٢٤٣ .

(٣) انظر : معالم الحياة العربية الجديدة ص ٢٦٨ وما بعدها .

الحق قيم دافعة خالقة تربى فى الجماعة وفى الأفراد عناصر الخير والحق والقوة ، وأن هذه القيم لا تنبع فقط من تعاليم الإسلام أو أى دين آخر ، بل تنبع أساسا من الظروف الاجتماعية والتربية النفسية اللتين تشكلان هذه القيم التى تكون ترجمتها فى السلوك عزة وقوة أو ضعفا وذلة «فالأخلاق الحقيقية هى التى تنبعث من النفس بحرية ، ولا تفرض فرضا ، إنها نتيجة لتفاعل النفس مع المجتمع وتجاربها ومعاناتها للحياة ، لا نتيجة النصح والإرشاد من جهة والقيود من جهة أخرى ، إن القيود قد تحدد السلوك ، ولكنها لا تحدد ما ووراء ذلك من دوافع خلقية [1] فالدين ليس طقوسا ، ولكنه قيم ، وليس تعاليم ولكنه سلوك نظيف ، فهو يخطو بنا خطوة متطرفة عما قاله الأستاذ الحصرى ، وإن كان كلاهما يتفقان فى الاتجاه القائل بالفصل بين الدين والقومية .

وإذا كان من الحق ان الاتجاه الأول قد تطرف فى جعل الدين هو كل شيء بالنسبة للعرب ، فإن من الحق كذلك أن الاتجاه الثانى قد تطرف - فى أبحاث بعضهم - فى تجريد الدين من كل شيء يتصل بالقومية ، بل زاد فحمله وزر التخلف والهوان الذى لحق بالعرب فى فترات مؤسفة من تاريخهم الطويل ،

والقضية بين هؤلاء وأولئك تتأرجح من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ، وربما اتخذت شكل صراع حاد خفى لم يصل الأمر به إلى حد الصدام الفعلى الظاهر ، ولكن هذا لاينفى وجوده ، ولا ينفى خطورته فى الوقت نفسه ، وإن كان الاتجاه الأخير أكثر حيوية ، وأنشط تأليفا وإنتاجا لتأييد فكرته وتنظيم صفوفه ، ولا ضير مطلقا من وجود مثل ذلك الصراع الفكرى ، مادام يثرى الروح القومية ويخدم الحقيقة .

* * * .

والدين الذى يدور حوله موضوع هذا المقال هو «الدين الإسلامى» الذى هو دين الغالبية العظمى من أبناء الوطن العربى ، إذ يكوّن معتنقوه النسبة العددية الغالبة فى الأقطار العربية ، وتبلغ هذه النسبة حوالى ٩٥٪ أغلبهم سنيون والباقى شيعة ، موزعون بين الزيديّة فى اليمن والإمامية فى العراق .

---

(١) السابق.

أما بقية السكان فهم من المسيحيين الذى يتركز معظمهم فى جمهورية مصر ولبنان واليهود الذين لايزيدون عن ربع مليون موزعين فى مصر والعراق والمغرب (١) .

وبنظرة إلى هذا الإحصاء يتضح ما تقدم من أن المقصود بالدّين الذى دار الخلاف فيما سبق عن تأثيره في القومية والذى سنتبين مسالك تأثيره فى القومية هو الدين الإسلامى ، بحكم أنه هو الذى فرض وجوده واقعيا فى العالم العربى منذ أمد بعيد، ويعتنقه حاليا معظم السكان العرب .

وعلى ذلك سأقرر أولا الرأى فى هذه القضية بصورة عامة ، ثم أتتبع مسالك التأثير الدينى فى الروح القومية بعد ذلك .

* * *

إن وضع القضية بهذه الصورة الحادة الحاسمة - تأثير أو لا تأثير - هو الذى أدى إلى الخلط والاضطراب ، وهو فى نفس الوقت قد دفع إلى الانحياز ، ثم محاولة تسويغه بعد ذلك بكل الوسائل الممكنة ، والوقوف من الرأى الآخر موقفا ضِديّاً للمعارضة وتلمس جوانب الضعف فى الجانب المقابل .

والذى أعلمه أنه من غير المعقول أن نفترض الحسم فيما لايحتمل بذاته الحسم وأن نعيش فى تجريدات فكرية ، فيما نعرفه أمامنا واقعا من واجبنا أن نصفه فقط ، دون أن تكون لدينا أفكار سابقة نفترضها قبله ، ثم نفرضها عليه ، سواء كان مضمون هذه الأفكار القول بالتأثير التام للإسلام على القومية أو بالرفض القاطع لذلك التأثير ، لأن هذا منهج لايتسم بالتسامح ، وهو مرفوض فى البحث العلمى السليم .

والحقيقة ان كلا الاتجاهين يمكن أن يلتقيا إذا طرحنا من حسابنا الانحياز الأعمى والقول بالحسم ، وافتراض النتيجة قبل البحث .

---

(١) هذا الاحصاء عن كتاب : وحدة الوطن العربى ص ٦٨ وما بعدها .

فالإسلام حقا ليس أهم المؤثرات فى القومية العربية ، فإن للقومية العربية عوامل أخرى وحّدت مشاعر الأمة العربية ، وما زالت توحّدها ، وتجمع بينها برباط متين ، ولكنه من ناحية أخرى يتداخل مع بعض هذه العوامل ليكون مؤثرا فيها بطريق مباشر ، وفى الروح القومية بطريق غير مباشر .

وسأحاول جهدى – فى حياد وموضوعية – استقراء هذه المسالك التى يسلكها التأثير الدينى ، ليسند الروح القومية وينمّيها ويزيدها تأججا واشتعالا ، ولا علىّ أن أقدم ما اعتقده الحق فى هذا الموضوع معتمدا على الواقع وعلى شتات آراء بعض الباحثين التى تؤيد هذا الواقع وتتفق معه .

* * *

إن للقومية العربية واقعا شعوريا ، كان وما يزال نابضا حيا تتلاقى عنده الشعوب العربية كلها على الرغم من اختلاف ظروفها للآن فى التنظيمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وإذا لم يكن هذا الشعور الموحّد قد ترجم تطبيقا فى التنظيمات السابقة ، فإنه يمثل لنا واقعا أكيدا يشع منه أمل قوىّ فى الالتقاء حول تنظيم واحد عاجلا أو آجلا، فمادامت النفس العربية عامرة بممكناتها الشعورية الموحدة، فإن التفاعل المستمر سيجعل من التنظيم العلمىّ حقيقة ممكنة ومحتومة .

والإسلام يدخل من هذه الزاوية على أنه يؤدى رسالة المعاونة على وحدة هذا الشعور فى بعض جوانبه «فالقرآن هو الذى صفى طباع العرب ، وصقل جوانب الروح العربية ، حتى صارت المعانى الإلهية تتراءى فيه ، وكأنها عين معانيه [١] .

فالأحاسيس الروحية النابعة عن الدين الإسلامى نلمسها متغلغلة فى أعماق النفوس العربية ، يصدر عنها الكثير من التعامل والسلوك ، والإسلام أيضا أوجد فيهم طريقة تكاد تتحد فى بعض جوانب الثقافة والمثل ، ولا أقصد بذلك الثقافة الساذجة

---

(١) محمد والقومية العربية ص ٧٤ .

المستكينة المستسلمة ، كما لا أقصد بالمثل تلك الصور البلهاء للتفويض والمسالمة ، ولكن ثقافة المسلم الحق الذى يفهم الإسلام على أنه لممارسة الحياة بفن وسمو ، وكذلك المثل العملية التى تنبع عن المبادىء الدينة العامة ، لترسم للعربى طريق الحق والخير والجمال ، والإسلام قد أدى هذه الرسالة، ومن ثَمَّ خلق بين العرب تماثلا عقليا استكمل به ما كان بينهم من التماثل القائم على أساس البيئة والجنس ، ولا يزال الإسلام يؤدى هذه الرسالة وإن اختلفت قيمة هذا الأداء بين الأفراد العرب حسب طريقة التناول والفهم ، ولكن هذا لايمنع أنه يؤدى رسالة الوحدة أيضا فى هذا المجال .

وهكذا يتدخل الإسلام فى بناء الشخصية العربية من الناحية النفسية ، إذ تتأكد فيها فضائل دافعة إيجابية تجد لها سندا من الدين كالثقة بالنفس والتضحية وأداء الواجب والإخلاص للمبدأ والعقيدة ، وبعبارة قصيرة : كل ما يصدق عليه أنه صادر عن «ضمير نظيف» .

ولا شك ان الدين – فى ذاته – يؤدى هذه الرسالة ، وإن لم يكن يؤديها وحده من ناحية ، ومن ناحية أخرى يُشَوهه التطبيق الساذج الأبله عن غايته النبيلة بتحويله إلى عامل مخيف رهيب .

ومهما يكن من أمر فإن للدين بعض الجهد فى خدمة الناحية الشعورية القومية ، إذ هو أجْلى مفصح عن شعور العرب الكونى ونظرتهم للحياة ، وهو أقوى تعبير عن وحدة شخصيتهم التى يندمج فيها اللفظ بالشعور والفكر ، والتأمل بالعمل ، والنفس بالقدرة ، فعلاقة الإسلام بالعروبة ليست كعلاقة أى دين بأية قومية [1] ، إذ يتلاحم مع مشاعرنا الروحية والمثالية والعقلية ، ويتفاعل معها لخدمة الروح القومية .

---

(١) ذكرى الرسول العربى ص ١٦ .

* * *

إن الفهم الغائم للإسلام الذى يعتنقه مجموعة كبيرة من الناس - أميين ومن يشبهونهم من المثقفين - أنه مجموعة من التقاليد والعادات الدينية المرسومة أو بفَهْم أكثر نضجا : انه قضايا فكرية وتنظيمات تربوية وخلقية تحقق سعادة الناس .

ولا شأن لى بما يحقق الدين للناس من سعادة دنيوية أو أخروية - فهذا لا يدخل فى نطاق عملى - ولكن الذى يهمنى حقا هو هذا الفهم المتخلف للإسلام ، ذلك أن فهمه بهذه الصورة فهم جامد ميت لا روح فيه ولا حياة ، إذ هو وصف خارجى له ، لايصل إلى جذوره ولبّه ، وصف المتفرج الذى يقف بعيدا عن تياره العميق الدافق .

أما الإسلام فى جوهره وحقيقته فهو تلك التجربة العميقة الخصبة التى عاشها الرسول (ص) وصحبه أكثر من عشرين عاما، تجربة هزت الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها، وقبلها هزت النفس العربية كلها حيث انغمرت فيها بكل عواطفها ومشاعرها وبعدها انطلقت لتحقيق التجربة خارج الجزيرة فى امتداد النفس والأرض معا، فالإسلام ليس فقط تقاليد وعادات وليس قضايا فكرية مجردة ، ولكنه تجربة قومية عميقة وأصيلة.

وليس الإسلام كذلك فقط ، بل هو أيضا حضارة صبغت حياتنا العربية فى ذلك المدى التاريخى الطويل [1] فصبغ تفكيرنا وتقاليدنا وعاداتنا وأساطيرنا ومعتقداتنا وحياتنا اليومية والمعيشية، وإن المسيحيين العرب الذين عاشوا فى هذه البلاد قد تأثروا بها إلى حد كبير على رغم اختلاف الدين ، فالإسلام لم يكن مجرد دين فحسب ، بل كان تاريخا وحضارة وحياة عقلية [2] .

هذا هو الإسلام فى صورته الحية النابضة - تجربة قومية وحضارة خصبة شاملة - وهو بذلك ليس دينا جامدا ، وليس حادثا ماضيا نفاخر به دون فهم كما يحدث من السذّج والبسطاء ، بل هو بهذين المظهرين السابقين صورة متطورة دائما فى كيان الأمة العربية، يعيشها المسلم الحق دائما فى درجة عالية من عمق النفس وغليان الشعور، وهى

---

(١) راجع : فلسفة الوحدة ص ١٠ وما بعدها - وحدة الوطن العربى ص ٦٩ .

(٢) معالم الحياة العربية الجديدة ص ٢٧٠ .

أيضا متجددة تجدد الواقع وأحداثه ، ومقدار تشكيل هذه الاحداث للخطر الذى يواجهنا .

ومن هنا يسلك الدين مسلكا آخر إلى الروح القومية لنخوض التجربة القومية من جديد ، فنتمرّد على الواقع المتخلف ، والانقسام المفتعل ، والمظهر الشكلى العتيق للإسلام الذى يخفى وراءه ما يخفى من عيوب ومساوىء . لكى نعيش الدين حضارة متجددة تتفاعل مع روح العصر فى سمو ومثالية ، فنتطور فى طريق الغد مصحوبا بما ورثناه من حضارة إسلامية ارتبطت أتم الارتباط بالدين . يقول أحد الباحثين متحدثا عن قوة الإسلام بمفهومها القومى والحضارى» فأوربا اليوم كما كانت فى الماضى تخاف على نفسها من الإسلام ، ولكنها تعلم الآن أن قوة الإسلام قد بعثت وظهرت بمظهر جديد هو القومية العربية ، لذلك فهى توجه على هذه القوة الجديدة كل أسلحتها ، بينما نراها تصادق الشكل العتيق للإسلام وتعاضده (١) .

وبرغم ما فى هذا الكلام من مجردات وتعميم ، فإنه يحدد القضية تحديدا صحيحا إلى حد بعيد .

إننا إذا عشنا الإسلام من جديد ، تجربة قومية وحضارة متطورة ، كان فى ذلك تحقيق لألفتنا الدينية والقومية ، وانتصار فى الوقت نفسه لقيمتنا الروحية .

* * *

أما المسلك الثالث الذى يؤثر به الدين فى القومية فهو اللغة ، ويكاد الإجماع ينعقد على أن اللغة العربية هى العماد الأول للقومية ، إذ هى التى تعبر عن ثقافة العرب وعن حياتهم ، وعن أفكارهم ووجدانهم ، وهى الرابطة الأساسية التى تتضاءل بجوارها الروابط الأخرى حتى روابط الدم والرحم «فالقومية العربية بهذا رابطة بين العرب أهم مظاهرها اللغة ، فمن تكلّم العربية واتخذها لغة له ، وعاش فى المجتمع العربى عيشة العربى ، وأحس بما يحس به العرب من ألم أو أمل فهو عربى ، ولو لم يكن عربى الدم والجنس (٢) .

---

(١) ذكرى الرسول العربى صـ ١٥ .

(٢) الفكر العربى ومكانه فى التاريخ صـ ٤ .

فاللغة العربية للعربي وعاء ثقافته ومحل عنايته وصلة مشاعره المشتركة ، وقد عنى بها منذ فجر تاريخه أشد العناية وتأثر بأشعارها وموسيقاها ومفرداتها وأساليبها أبلغ التأثر ، ولم يكن من المستغرب أن يصرف العرب من وقتهم وجهدهم ومؤلفاتهم الشيء الكثير لدراستها وبحثها وتطويرها ، ولقد ظلت العامل الأول - حتى فى عصور التدهور السياسى والاجتماعى - الذى حفظ لهم شخصيتهم ، وصان بقاءهم ، فهى متأصّلة تأصلا عميقا عند جميع الشعوب العربية من الخليج إلى المحيط ، بل هى الرابطة بين جيل وجيل ، يتوارثونها خلفا عن سلف ، فهى لغة تخاطبهم المشتركة حتى عند من لايدينون بالإسلام من مسيحيين ويهود [١] .

ذلك باختصار هو الدور الهام الذى تؤديه اللغة العربية للقومية ، فما هو دور الإسلام فى هذا العامل الأول من عوامل القومية ؟

لقد نزل القرآن باللغة العربية ، وهكذا ذكر فى أكثر من موضع (إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) ، (قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون) و (وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها) وغير ذلك من الآيات .

فقد ارتبط القرآن باللغة العربية ، وكذلك ارتبطت اللغة العربية بالقرآن . ومن هنا كان تأثير الدين عميقا فى هذا العامل الهام ، يلخصه الأستاذ «ساطع الحصرى فى أمرين :

أولا : الديانة الإسلامية كانت القوة الدافعة للفتوحات العربية التى نشرت اللغة العربية ووسعت نطاق القومية العربية .

ثانيا : صارت القوة الواقية التى اكسبت اللغة نوعا من المناعة ضد عوامل التفرع والتفتت ، وصانت بذلك القوة العربية من الانشطار فى عهد انحطاطها الطويل [٢] .

---

(١) انظر : الطريق إلى السوسى صـ ١٨ وما بعدها .

(٢) ماهى القومية : ص ٢٤٩ .

وإذا كانت اللغة تنزل من روح العربي وشعوره هذه المنزلة التي ذكرتها فيما سبق باختصار، فإن من المؤكد أن الاندماج الروحي للإسلام بالنفس العربية ذو تأثير مزدوج من قوة الدين وقوة اللغة أيضا ، هذا الاندماج لدى العربي فطرة يعيشها دون أن يشعر ، لأنها أصبحت لديه بديهية لا تقبل الجدل أو النقاش ، هكذا كان هذا الاندماج ، وهكذا ظل عميقا وأصيلا في نفس العربي حتى الوقت الحاضر .

وبذلك يضاف لما ذكره الأستاذ (الحصري) بعد ثالث لتأثير الدين في اللغة وبالتالي في القومية .

ولكن ما هي الأدبيات العامة التي أحاطت باللغة حتى اكتسبت هذه المناعة والحيوية عن طريق الدين ؟

معلوم أن الدين – أي دين – له من القداسة والهيبة ما يفرض بهما على معتنقيه وأتباعه المحافظة على مظاهره وروحانيته ، وقد سرت هذه القداسة نفسها إلى اللغة العربية ، فحافظ عليها من الانحراف والذوبان في تاريخهم الطويل ، وظلت محتفظة – بصورة عامة – بألفاظها وتراكيبها وأساليبها ، مع تطور في ذلك تمليه طبيعة اللغات التي هي من الظواهر الاجتماعية التي تتطور باستمرار ، يعود جزء كبير من هذه الروح المحافظة إلى نظرة القداسة التي سرت إليها من قداسة القرآن وتعظيمه .

ومعلوم كذلك أن اللغة التي نقصدها هنا هي اللغة المشتركة التي يفهمها كل العرب دون اللهجات التي تفرعت عنها ، فاللهجات ليست عامل توحّد ، لأنها إقليمية محصورة بين فئات خاصة ، حيث تستخدم في الحياة العادية ، وفي مجالات لاترقى بحال إلى ما للمشتركة من الشمول والقوة ، وقد تعرضت المشتركة الفصحى لمحن كثيرة نتيجة التفكك السياسي والاجتماعي الذي عاناه العرب من قبل .

وفي رأي بعض الباحثين انه كان من الممكن أن تنحل المشتركة إلى لهجات ، ثم تذوب وتضيع ، وفي رأيه كذلك أن القرآن قد وقف سدا منيعا أمام هذا الخطر الجسيم ، فحافظ على اللغة الفصحى من الاندماج في اللهجات [1] .

---

(١) ماهي القومية ص ٢٤٦ .

وهذا الرأى الذى سبق لايتفق فى فكرته العملية مع ما تقرره الدراسات اللغوية الحديثة التى تقرر أن وجود المشتركة بجانب اللهجات أمر طبيعى فى اللغات ، وليس ذلك خاصا باللغة العربية وحدها ، وليس من جسامة الخطورة بالصورة التى يصورها السيد الباحث ومن يرى رأيه ، وقد عالجت هذا الموضوع فى بحث سابق تحت عنوان «مجال الصراع بين اللهجات والفصحى [١] » ولكن على الرغم من ذلك فقد كان الدين الإسلامى بعامة والقرآن بخاصة من العوامل التى ساعدت فى الحفاظ على قوة اللغة العربية وصفائها فى هذا المدى الطويل ، وعن ذلك الطريق - طريق اللغة - نلمس أيضا أثر الدين فى القومية .

* * *

«الرسول عربى والرسالة التى جاء بها حملها العرب» من هذه العبارة يتحدد المسلك الرابع الذى يسلكه الإسلام إلى القومية .

ذلك أنه كان لشخصية محمد (ص) جانبان مضيئان يتكاملان معا . وتؤيدهما النصوص التى وردت فى القرآن وفى أحاديث الرسول وأفعاله ، فهو باعتباره صاحب دعوة ورسالة قد جاء لجميع البشر ، لا فرق فى ذلك بين عربى وغير عربى ، ولا بين أسود وأبيض ، جاء فى القرآن (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا) و (قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا) ويقول الرسول (ص) (ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى) و (بعثت إلى الناس كافة) .

فهو من هذا الجانب إنسانى يؤدى رسالة الله إلى جميع البشر ، ويبلغها إلى الناس ، كل الناس .

ولكن محمدا باعتباره فردا نشأ فى المجتمع العربى ، وعاش فيه ، وتأثر به ، وأثر فيه، مع تقدير للدور الهام لهؤلاء العرب فى أداء رسالته العامة للناس، كان يعتز بعروبته ، ويقدر خطرها دورها فى تحقيق رسالته والوصول إلى أهدافه ، وهذا إحساس طبيعى بشرى لا غرابة فيه ، إحساس بالولاء العظيم لقومه ، واعتزاز من الفرد بمجتمعه، وتقدير

---

(١) سبق هذا البحث فى هذا الكتاب .

القائد لجنده ، وقد ورد كثير من النصوص التى تزكى هذا الجانب وتؤيده (إنما أنا رسول الله إلى الناس كافة غير أنى عربى ولدت فى قريش واسترضعت فى بنى سعد) .

وعن سلمان الفارسى (ض) قال : قال لى رسول الله (ص) لاتبغضنى فتفارق دينك . قلت : وكيف أبغضك يارسول الله ، وبك هدانى الله ، قال : تبغض العرب ، فتبغضنى ، وقد اهتم الرسول (ص) أشد الاهتمام فى مرضه الذى مات فيه بالعرب وأوصى بهم خيرا .

هذان الجانبان يتكاملان فى حياة محمد ليقدما صورة رائعة للعربى صاحب الرسالة ، وهما أنفسهما ما يجب أن يعيشه العربى المسلم الآن من جديد ، رسالة دينية يحملها فى روحه تطالبه أن يعتز بنفسه وقومه ، وأن يؤكد هذا الاعتزاز بشعوره وفكره وعمله، وأن يحيا هذه الشخصية العظيمة فى إطارها الدينى والعربى بكل مالها من روعة وجلال «فيستطيع أى عربى أن يكون مصغرا ضئيلا لمحمد ، مادام ينتسب إلى الأمة التى أنجبت محمدا ، أو بالأحرى ما دام ينتسب إلى الأمة التى حشد محمد كل قواه فانجبها [١] » وبذلك نستمد من حياة الرسول الخاصة دفعة قوية لاعتزاز العربى بقيمته وقومه .

* * *

أما الجزء الأخير من القضية فهو واقع عاشه العرب وما يزالون ، ذلك أن الدين الإسلامى حين نزل على محمد (ص) كان مجال تبليغه قومه العرب ، وأشار الرسول لذلك فى أول إعلان لدعوته (والله إنى لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة) وقد دارت أحداث التبليغ والتشريع والنشر والانتشار بين هؤلاء العرب ، فقد كانوا إذن مسرحا للتجربة السماوية العظيمة التي نزل بها القرآن ، فحملوها ببطولة ومثالية ، وانطلقوا بها إلى الناس فيما وراء حدودهم بعد ذلك ، ليخلقوا من التجربة تماثلا جديدا بين من وفدوا عليهم ، وتآلفوا معهم ، واندمجوا فيهم .

(١) ذكرى الرسول العربى ص ٩ - ١٠ .

هذا العمل العظيم كان العرب له أهلا ، ولحمله أكفاء ، ولقد حملهم القرآن مسئولية ذلك وشرفهم به ، يقول (وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون) وفى تخصيصهم بشرف الذكر بعد الرسول ، وأنهم (قومه) الذين ارتفعوا إلى مستوى المسئولية تقديرٌ رائع لقيمة هؤلاء القوم الذين أدوا دورهم بفدائية قلّ أن يحدث لها نظير فى تاريخ الهزات القومية .

ومن هذه الآية السابقة نفهم سر التوالى بين القرآن (إنه) وبين الرسول (لك) وبين قومه العرب (لقومك) إذ نرى الرسول العربى وقومه العرب يتضامنان لتحمل المسئولية (وسوف تُسألون) ونستنتج تبعا لذلك أن الانطلاق العربى الأول ارتبط بالدين الإسلامى لتبليغه ونشره ، وبذلك كان الدين فى وجدان العربى هدفا لتبليغه وعنوانا ليقظته وطاقة تفجير ثورية لروحه .

ومن واجب العربى المسلم الآن أن يبعث مرة أخرى هذه اليقظة ، ويفجر إمكاناته وطاقاته ليعيد فضائله الأولى التى ارتبطت بيقظته ، وأطلقت احساسه بقوميته ومسئوليته وإن كانت هذه المسئولية تختلف أهدافها تبعا لاختلاف الظروف بين عهد العربى الأول بالإسلام ، وبين عهده بظروفه الآن ، إذ كان واجبه الأول - كما سبق - التبليغ ونشر الرسالة الدينية ، أما الآن فإن واجبه ينبع من روح هذه الرسالة للتمرد على التخلف ، وتحقيق الألفة والوحدة متخذا من فضائل الإسلام العامة النظيفة دافعه ورائده ، ذلك أنه من غير الممكن أن يقوى العرب على أداء دورهم الآن كما أدّوا دورهم الإسلامى من قبل دون أن يكونوا متآلفين متحدين ، فقد كانت وحدتهم هى سر نجاحهم فى أداء دورهم الإسلامى ، وهى نفسها الغاية التى نعمل الآن جاهدين من أجلها . «فإذا اتحد العرب ، وغدت جيوشهم واقتصادهم وتشريعاتهم وثقافتهم وسياستهم موحدة ، استطاعوا أن يقوموا بواجبهم على أحسن وجه ، بعكس ما إذا ظلوا متفرقين حيث تظل قوتهم المادية والمعنوية عاجزة عن إدراك الهدف والتفرغ له (١)

---

(١) الوحدة العربية ص ١١٣ .

فالعرب الذين عاشوا أولا تجربة الإسلام قد نجحوا لاتحادهم وألفتهم ، وهم مطالبون اليوم - دينيا وقوميا - بالاتحاد والتآلف لتأدية رسالتهم القومية الجديدة التى حتمت ظروفهم الجديدة حملها ومسئوليتهم عنها .

المراجع الواردة فى الهامش

١- مجل الآداب	
٢- أصول الوعى القومى العربى	عبد العزيز رفاعى
٣- محمد والقومية العربية	على حسنى الخربوطلى
٤- ماهى القومية	ساطع الحصرى
٥- معالم الحياة العربية	منيف الرّزّاز
٦- وحدة الوطن العربى	يوسف أبو الحجاج
٧- ذكرى الرسول العربى	حسين خلاف
٨- فلسفة الوحدة	ميشيل عفلق
٩- الفكر العربى ومكانه فى التاريخ (أوليرى)	ترجمة تمام حسان
١٠- الطريق إلى السويس	ارسكين تشيلدرز / ترجمة : خيرى حماد
١١- الوحدة العربية	محمد عزة دروزة

اللغة العربية والنقاد الإعلاميون

أعد الأستاذ «ابراهيم الصيرفي» ندوة من البرنامج الثانى لإذاعة القاهرة ، وكان المُنتدون هم «عبدالقادر القط ورشاد رشدى وصلاح عبدالصبور» ، ثم أرسل الأستاذ الصيرفى ملخص الندوة إلى مجلة (الآداب) حيث نشرتها فى العدد الخامس (مايو ١٩٦٤) بعنوان (أزمة الشعر العربى المعاصر) .

ولقد دهشت حقا بعد أن قرأت ما جاء فى هذه الندوة العجيبة حيث بعثر السادة الأساتذة آراءهم بغير حساب ، ونصبوا من أنفسهم قوامين على الشعر الحر والشعر المقفى ، والثقافة المعاصرة والتراث القديم ، وعلى الأدب وعلى اللغة أيضا ، فتحدثوا فى هذه الأمور السابقة كلها وحشدوا فى حديثهم كل ما عَنَّ لهم قوله عن الأدب واللغة والثقافة دون تثبت ، ودون سند علمى تستند إليه تلك الآراء السطحية .

ولا أود أن أخوض - على طريقتهم - فى نقاش يتناول كل هذه الأمور ، فليست لدىَّ القدرة ولا الاستعداد لمواجهة نفسى أو غيرى بمثل هذه الأمشاج فى ندوة تذاع على الناس ، أو مجلة يقرؤها المثقفون العرب كمجلة (الآداب) ولكنى فقط أخص حديثى معهم بما أعتقد - بتواضع - أن لدى القدرة للحديث عنه ، وهو ما ذكروه من آراء عن : اللغة العربية .

* * *

أول قضية ذكرت عن اللغة فى تلك الندوة هى «إن اللغة ربما كانت عائقا بالنسبة لرواج الشعر كفن من الفنون الأولى [1] » .

---

(١) ازمة الشعر المعاصر (مجلة الآداب) مايو سنة ١٩٦٤ ص ٥ .

وإذا صرفنا النظر عن «الفنون الأولى» و «الفنون الأخرى» إذ ليس فى الفنون «أولى» و«أخرى» فإن هذه القضية تبدو غريبة حقا من الناحيتين الفنية واللغوية .

إن من المعروف لدى أقل الدارسين «أنّ الشعر فن من الفنون وسيلته التعبيرية هى اللغة» ولا يمكن أن يتصور شعر دون لغة تعبر عنه على حسب قدرة الشاعر وتمكنه من التخيل والتصوير والإيحاء بالألفاظ من جهة، وعلى حسب تمكنه من الدلالات العرفية للغة من جهة أخرى. فالشاعر المتمكن هو الذى يستطيع أن يستخدم مدلولات الألفاظ والتراكيب بطريقة ترضى الذوق والفن أولا عن طريق الايحاء والجرس، وذلك بتجاوزه مرحلة الدلالة العرفية للكلمات التى تعتمد على دقة المعنى وفهمه. وبعبارة قصيرة : إن الشاعر الحق هو الذى تتهيأ لديه القدرة على التعبير معتمدا على الرمز فى مدلوله الفنى واللغوى (١) .

وإذا كان الأمر كذلك لدى من يعتد بهم من الباحثين والعلماء فأى خطأ يلزم الدكتور رشاد حين يذيع على الناس مثل هذه الفكرة الغريبة التى لا سند لها من الفن أو اللغة ؟

وكيف يمكن أن تكون اللغة عائقا لرواج الشعر وهى أداته ووسيلته ؟ ربما كان علم ذلك عند السيد الناقد الذى ذكر الفكرة فقط ، ولم يوضحها بعد ذلك ، وحسنا فعل ! لأنها واضحة الخطأ .

* * *

أما الفكرة الثانية التى أثارها السادة النقّاد عن اللغة العربية فهى عن «الطريقة الخاطئة التى يسير عليها تعليمها» وقد هاجموا تعليمها بعنف معتمدين فى هذا الهجوم على أساس فنى هو : أن تعليم اللغة العربية – بطريقته الحالية – لا يثير الاحساس بالجمال ، ولا يحقق رواج الأدب شعرا أو نثرا ، ومتدرجين من ذلك إلى إرجاع هذا العيب الفنى إلى عيب لغوى هو : صعوبة النطق باللغة معربة والخوف من اللحن فيها ،

يقول الدكتور القط «وليس بين الكتب كلها قصة تثير خيال الولد ، وتعلمه جمال الألفاظ ، هذا من ناحية المرحلة الأولية ، أما من ناحية المراحل التالية فنجد نماذج أغلبها

(١) انظر : اللغة بين المعيارية والوصفية . د . تمام حسان صـ ١٠٢ .

قديمة» ويقول الدكتور رشاد «يجب إعادة النظر فى تدريس اللغة العربية كلية لا من أجل الأدب . من أجل الحياة ، ومن أجل روح هذا الشعب» ويضيف صلاح عبدالصبور» إن كتب التعليم قد نجحت فى بث البغضاء للغة فى نفوس طلبة المدارس ، ولكل ما يتصل باللغة ، وإن أى متلقٍ عادىّ باستطاعته أن يستقبل الشعر ، وما يحول دونه وذلك كراهيته لكل ماهو مشكول ، ويخشى أن يلحن فيه (١) »

وسأوضح نقطتين لغويتين يضمان الحل الموضوعى لهذه الآراء المتحمسة

١- الهدف من تعليم اللغة - أية لغة - بالنسبة للجماعة التى تتكلمها .

٢- ضرورة الصحة اللغوية والشكل فى لغتنا العربية .

إن وظيفة اللغة الأساسية وظيفة اجتماعية ، هى الربط بين الجماعات المختلفة ثقافيا وشعوريا . ويختلف المستوى اللغوى فى كل جماعة من الجماعات باختلاف الجماعة اللغوية نفسها والعرف السائد بينها عن اللغة أصواتا وألفاظا وتراكيب ، وما لهذا العرف من قوة قاهرة يستمدها من الجماعة فى إخضاع الجميع لقهره الغلاب .

والشعوب العربية جماعة ضخمة اصطلحت على أن تكون لغتها هى اللغة المشتركة الفصيحة ، بها يتخاطبون عن طريق وسائل الاعلام المتعددة ، كما أن بها يدونون إنتاجهم الفكرى وجهودهم العلمية ، وكذلك يستخدمونها فى التعبير عن مظاهر وجداناتهم من قصة وشعر ومسرحية وغيرها من الفنون الأدبية (٢) .

وإذا فهمنا وظيفة اللغة بهذا المعنى الاجتماعى العام ، فإن هذا الحماس فى الانحياز إلى جانب تعلم الشعر وحده وقياس تعليم اللغة بمقياسه فقط لا يتفق وهذه الفكرة السابقة ، فاللغة تعلم للشعر ولغير الشعر ، أو بعبارة أخرى : يجب لاستيعاب وظيفة اللغة ان تعلم فى مستوى موضوعى قد يكون جافا ولكنه ضرورى ، كما يجب أيضا أن يعنى بها فى مجالها الفنى الذى يريد السادة أن تُوجَّه إليه كل الجهود ، وهو جزء فقط من مهمة اللغة ، وبالتالى من مهمة تعليمها ، وإذا كانت هناك بعض الأخطاء فى

---

(١) أزمة الشعر المعاصر (مجلة الآداب) مايو سنة ١٩٦٤ ص ٦ ، ٧ .

(٢) انظر : اللغة فى المجتمع (لويس) ترجمة تمام حسان ، اللغة والمجتمع محمود السعران .

طرق تعليمها ، فإنه كان من اللازم أن يحددها السادة النقاد فى مجالها ، ويقدموا لها حلولا عملية معتمدة على أسس تربوية ولغوية يعتد بها ، بدلا من هذا الحماس الذى لايجدى شيئا ، ويسيء اساءة بالغة إلى التربية واللغة والفن على السواء .

أما ضرورة الصحة اللغوية (الخلوّ من اللحن) والشكل (الإعراب) فقد أرجع إليهما صلاح عبدالصبور مسؤولية بغض اللغة والشعر وتنغيص الناس عند قراءته .

والمعروف ان اللغة تختلف مستوياتها بين (اللغة المفهمة) و (اللغة الصحيحة) و(اللغة البليغة) والأولى اداة للافهام فى أدنى درجاته والمستويان الأخيران أعلى من المستوى السابق، والوصف الأول يمكن أن نجد تطبيقه واضحا فى «العاميات» أما الوصف الثانى فهو لازم لكل ناطق بلسان عربى سليم ، والأخير ضرورة للغة فى مستواها الفنى سواء أكانت شعرا أو نثرا «فالتعبير الصحيح هو التعبير الذى يصل إلى الحد الأدنى الذى يتطلبه العرف اللغوى ، أما التعبير البليغ فيتجاوز هذا الحد الأدنى إلى أفق آخر [١] » .

فاللحن إذن يتناقض تماما مع أدنى مستوى مطلوب للتعبير اللغوى السليم – وهذا ما قرره اللغويون الأجانب والعرب أيضا – فكيف إذن يسوغه السيد الشاعر، ويرى أن الخوف منه يؤدى إلى مجموعات الكراهية التى ذكرها ، ونحن لا نتطلب منه شاعرا مجرد التوقى من اللحن ، بل نتطلب منه فوق ذلك مستوى البلاغة .

وباختصار شديد سنتبين فكرة الشكل اللغوى من وجهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة

من القواعد اللغوية المشهورة الآن «فهم اللغة يبنى على الشكل والوظيفة» فاللغة – أية لغة – منظمة من الأجهزة وكل جهاز منها يؤدى دوره حسب النظم العرفية لتلك اللغة ، وأبواب النحو ما هى إلا تعبير عن الوظائف النحوية التى تنتظمها لغة من اللغات ، ففى العربية مثلا كثير من الوظائف كالفاعل والمفعول وغيرهما ، وكل وظيفة من هذه الوظائف تتخذ لها طريقة شكلية للتعبير عنها ، وتختلف تلك الطرق الشكلية حسب عرف اللغة واصطلاحاتها ، فبعض اللغات تكون وسيلتها الشكلية للتعبير عن وظائفها هى «الترتيب»،

---

(١) اللغة بين الفرد والمجتمع (اتو جسبرين) ترجمة عبدالرحمن ايوب ص ١٤٢ وما بعدها .

وذلك كاللغة الفرنسية والانجليزية ، وبعض اللغات الأخرى كاللاتينية والعربية يكون الشكل فيها هو «الاعراب» وليس للترتيب فيها قيمة كبيرة ، وكل ذلك يرجع إلى العرف الاجتماعي للغة حيث يفرض شكلا خاصا للتعبير عن تلك الوظائف (١) .

فاللغة العربية قد ارتضى عرفها القديم والحديث ان تعبر عن وظائفها بالاعراب وهكذا جاء إنتاجها الفنى والعلمى والدينى ، فكيف إذن يمكن أن تقبل من السيد الشاعر مجموعات الكراهية التى حشدها ضد الشكل والإعراب ، وهو أمر ترفضه الدراسات اللغوية الحديثة ، والعرف العربى الاجتماعى ، والثقافة العربية فى ماضيها وحاضرها.

* * *

أما النقطة الثالثة التى أثارها السادة النقاد عن اللغة فتتلخص فى «تشخيص داء اللغة العربية وتعليمها وتقديم العلاج عن طريق ذلك التشخيص» .

يتلخص ذلك فى أن اللغة العربية وتعليمها محافظة وسلفية ، فلم تتطور ولم يتطور تعليمها منذ عهد بعيد ، وعدم التطور فيها يعود إلى ارتباطها وارتباط دراستها بالدين يقول الأستاذ عبدالصبور «ذلك أنه قد حدث فى تاريخنا حدث خاص بنا وهو مسألة ارتباط اللغة بالعقيدة ، واللغة لم ترتبط بالعقيدة عن طريق العقيدة نفسها ، ولكن الذين اشتغلوا باللغة كان معظمهم أو كلهم يشتغلون بالعقيدة، فاتخذوا النحو واللغة وسيلة لحسن فهم العقيدة ، لأن القرآن كتاب بلاغى ، ومن هنا حدث عندنا الارتباط بين الأدب وتفسير الدين» ويؤيده الدكتور القط بقوله : «وقد ظل تعلم الشعر واللغة العربية عندنا كما هو» ويصفق الدكتور رشاد مستبشرا ويرى «أنه لابد من إعادة النظر فى تعليم اللغة العربية (٢) » .

فداء اللغة العربية إذن – فى نظر السادة النقاد – أنها لم تتطور فى ذاتها ولا فى تعليمها وبقيت كما ورثناها من أسلافنا السابقين ، لأنها ارتبطت بالعقيدة وبالدين ، وترتب على ذلك الجناية على الأدب ، والعلاج إذن هو فى الفصل بين اللغة والدين .

---

(١) أصول النحو العربى ص ٢٦٨ – ٢٦٩ – محمد عيد

(٢) الآداب – العدد السابق ص ٧ – ٨

وسأوضح علميا نقطتين هما :

١- ارتباط اللغة بالدين ومدى تأثير ذلك فيها .

٢- التطور اللغوى والعوامل التى يخضع لها .

إن اللغة العربية قد ارتبطت بالدين ما فى ذلك شك ، فالقرآن قد نزل بها وقرر ذلك فى أكثر من آية (إنّا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) و (قرآنا عربيا غير ذى عوج) وغيرها من الآيات التى تقرر ذلك .

وقد كان ذلك حقا ذا تأثير عميق فى اللغة وأبحاثها، إذ كان دافعا لكثير من الجهود المخلصة الطيبة التى خدمت اللغة والدين معا ... وإلى هنا نتفق مع السادة النقاد.

أما الذى نفترق عنهم فيه فهو أن ارتباط اللغة بالدين كان عاملا من عوامل الجمود والتوقف ، فإن هذه النظرة قاصرة ، لأن القرآن بخاصة والدين بعامة كانا من العوامل المحصنة للغة مما تتعرض له اللغات من التفتت والتبدد ، فقد كان القرآن أحد العوامل المهمة فى المحافظة على قوة اللغة العربية وصفائها فى ذلك المدى الزمنى الطويل .

فالدين بذلك عامل يستحق الشكر لا اللوم ، لأنه أدى مهمة معنوية خطيرة للغة طوال أكثر من ألف سنة - أحصاها السادة النقاد فى ندوتهم - أما الجمود والتوقف فلا أرى لهما أثرا لا من الدين ولا من غير الدين ، إذ نزل القرآن باللغة العربية بألفاظ وتراكيب وأساليب بقى لها إلى اليوم قوتها وصفاؤها بين الناطقين العرب .

والخلاصة أنه يجب ان نضع فى اعتبارنا هذه الحقائق : القرآن نزل باللغة العربية ولم يوجدها ، فهو أحد آثارها الفنية الراقية ، شأنه شأن غيره من آثارها العظيمة - هو أحد العوامل التى حافظت عليها من الاندماج فى اللهجات ولغات القبائل، وقد أدى دوره فى ذلك خير أداء ، ولا شأن لذلك بفكرة الجمود والتطور التى سأعرض الرأى اللغوى فيها الآن .

إن التطور ضرورة حتمية في الظواهر عامة، وبخاصة الظواهر الاجتماعية التى من أهمها اللغة، فاللغة كما يقول «فندريس» : تتأثر باستعمالاتنا التى تلونها ظروف المجتمع ، وهذه دائبة العمل على تغيير النطق ، ومن غير المعقول ان يتوقف هذا التعديل والتبديل الدائم، وتبعا لذلك لا يتوقف تطور اللغة، فلا يمكن لأحد - مهما كان - أن يصف اللغة بالجمود، لأن طبيعتها لا تقبل التجميد والتحديد، باعتبارها إحدى الظواهر الاجتماعية التى تتطور باستمرار ، وعمل الباحث هو وصف هذه الحركة المستمرة للغة فقط

ويمكن تقريب هذه الفكرة للفهم فيما لو وازنا مثلا بين لغة العصر الجاهلى واللغة المشتركة التى ننطقها الآن فى الألفاظ والتراكيب والأساليب ، فلا شك أن هناك فرقا كبيرا يبين قوة التطور ومداه الذى تتبعه الآن فى المعاهد المتخصصة دراسات علمية متطورة وأصيلة .

ومن ذلك يتضح أمامنا الحقائق التالية :

أولا : لم يحدث تجمد للغة ولا سلفية فى دراستها ، لأنه هذا ينافى طبيعة اللغات ومنها اللغة العربية .

ثانيا : القرآن كان من عوامل قوة اللغة وصفائها وصيانتها من الانقسام والتفتت، ولا شأن له بما وصم به السادة النقاد اللغة من الجمود والتوقف .

ثالثا : اللغة العربية بخير ، وتقوم بدورها العظيم الآن كما قامت به من قبل فى أداء وظيفتها الاجتماعية لخدمة الثقافة والوجدان .

وبعد :

فلى رجاء أتقدم به لأساتذة الجديد والتجديد - من المُتَنَبِين أو من غيرهم - أن يتوقفوا عند حدود ما يعلمون ، وألا يخوضوا فيما لايعلمون ، خصوصا إذا وضعتهم الظروف فى مكان القيادة والريادة لجيل عربى ناشىء ، يقرأ لهم ، ويسمع منهم وعنهم «ورحم الله امرءا عرف قدر نفسه» .

* * *

البلاغة العربية بين منهجى اللغة والأدب

البلاغة العربية ، بعلومها الثلاثة - البيان والمعانى والبديع - جانب مهم مما ورثناه من ثقافتنا العربية القديمة ، ولقد جاءتها هذه الأهمية من سمات القداسة التى تعودنا أن نُضْفِيهَا - دون تثبت أو تقويم - على كل ما جاءنا من تراثنا القديم ، وهكذا ظلت علوم البلاغة إلى اليوم تفرض على عقولنا هذه الأهمية التى تنبع من القدم أكثر مما تنبع منها نفسها ومن مسايرتها لروح التطور اللغوى والأدبى الذى يفرض علينا مسايرته والإفادة منه إفادة حقيقية يمكن استخدامها فى مجال الواقع المتطور باستمرار، والذى يفرض علينا مواجهته بأسلوبه ، سواء فى مجال النقد أو فى مجال الإنتاج الأدبى .

وقد أحسست وأنا أتلقى دراسة علوم البلاغة - كما أحس بذلك كثيرون غيرى - أن هذه الدراسة لاتفيدنا فكريا ولا وجدانيا ، ولا تنمى ثقافتنا أو شعورنا ، وأن الموضوع كله صناعة آلية ذهنية تدور فى إطار تجريدى بعيد تماما عن متطلبات العصر ، وروح الأدب ، إذ تتجه الدراسة البلاغية - كما هى عليه الآن - إلى إيراد قواعد نحفظها عن «مقتضى الحال» و«التشبيه المفرد والمركب» و«المجاز» و«الاستعارة التمثيلية» و«الكناية» و «الخبر والإنشاء» و «الفصل والوصل» و «الإيجاز والإطناب والمساواة» وغير ذلك من الأبحاث التى تدور فى إطار الصناعة البلاغية ، وهى مشهورة ومتداولة .

وأكبر دليل يحسه الدارس عن تمكن «الصناعة الآلية» فى هذه الأبحاث هو تجمد الأمثلة والشواهد فيها ، إذ إن كتب البلاغة - حتى ما ألف حديثا فيها - تكرر نفس الأمثلة التى أوردها علماء البلاغة السابقون ، نفس الأمثلة التى اعتمد عليها «السكاكى» منذ القرن السادس والسابع الهجريين ، وتابعه فيها دارسو البلاغة وشارحوها حتى

العصر الذى نعيش فيه - وهذه ظاهرة لانجدها فى علم البلاغة فقط ، بل نجدها كذلك فى كثير من الدراسات التى تجمدت عند وضع معين مثل الدراسات النحوية والفقهية القديمة - وهذا يشير بدوره إلى عيب خطير فى دارسى البلاغة والباحثين فيها ، إذ لم يتوقف أحدهم - إلا الأقلون - ليتساءل عن قيمة هذه الدراسة فى ذاتها ؟ أو عن قيمتها فى ارتباطها بالواقع العلمى فى الدراسات الأدبية أو الإنتاج الأدبى الدائم التطور والاستمرار؟

«فلم تعد بلاغتنا تساير التطور الجديد فى أساليبنا التعبيرية ، حتى كادت تصبح تاريخا فقهيا للغة فى بعض العصور الأخرى ، بدلا من أن تبقى علما متطورا يخدم اللغة ويعكس أحوالها ويسجل مراحل نموها . والواقع أن بلاغة أية لغة ينبغى أن تبقى علما مطاطا قابلا للنمو معها ، وإلا بعدت الشقة بينهما ، وانحط شأن البلاغة [1] » .

وهذا ما حدث للبلاغة العربية إذ استمرت الدراسات الأدبية واللغوية تتطور وبقيت البلاغة تتفرج - بفعل ما سنبينه من عيوب فيها - فبعدت الشقة بينها وبين غايتها ، وراحت تمضغ نفسها فى تلك القواعد الذهنية بشواهدها الصناعية .

* * *

هذا المقال العلمى محاولة نتلمس فيها تاريخ الدراسات البلاغية بصورة مجملة -ثم أهداف علوم البلاغة العربية - بعد أن تجمدت - كما قررها البلاغيون القدماء والمحدثون أيضا - ثم نحاول معرفة العيوب المنهجية التى بعدت بدراسة البلاغة عن أن تؤدى دورها الحقيقى فى تفسير الأدب وتذوقه ، ومنها وفيها يكمن سر الجفاف والعقم الذى منيت به هذه الدراسة ، وبذلك قصرت عن تأدية دورها فى تفسير النصوص وتذوقها ، وتمثل عناصر الجمال أو العيوب فيها - وأخيرا أتقدم بما أعتقد أنه الحق فى تقويم هذه التركة البلاغية ، وذلك بمقابلة أهم مباحثها بمناهج دراساتنا الحالية للغة والأدب ، لنضع هذه المباحث فى مكانها الذى يجب أن تكون فيه ، لتخرج عن جمودها التقليدى من

(١) قضايا الشعر المعاصر ص ٢٤٠ .

ناحية ، ولتؤدى دورها – دراسة وعملا – فى موضعها الحقيقى من ناحية أخرى ... وما علّىّ أن أكون مصيبا أو مخطئا فى ذلك ، فإنه – على كل حال – رأى يستند إلى دراسة علمية متطورة فى اللغة والأدب ، وربما قد جانبنى فيه التوفيق ، وكلنىّ مجتهد !

* * *

لقد مرت الدراسات البلاغية قبل السكاكى بمستويات مختلفة من حيث الهدف والكيفية ، ذلك أن هذه الدراسات قد نشأت أولا – شأنها شأن غيرها من العلوم العربية – لخدمة القرآن الكريم ومحاولة التعرف على ما فيه من المفردات والأساليب الغريبة . باستقراء ذلك وتصنيفه ، ويوضح هذه الحقيقة أن أول أثر بلاغى بين أيدينا هو «مجاز القرآن» لأبى عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١١) ثم استمرت هذه الجهود العلمية المرتبطة بالقرآن بعد ذلك فى القرون الثلاثة التى تلت مجاز أبى عبيدة ، وكلها محاولات لفهم القرآن ومعرفة سر إعجازه – فعلى امتداد هذه القرون تطالعنا كتب مثل «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة (ت ٢٧٦) و«النكت فى إعجاز القرآن» للرمانى (ت ٣٨٤) و«إعجاز القرآن» للباقلانى (ت ٤٠٣) وغير ذلك من المجهودات الطيبة التى يجمعها كلها أنها تتجه إلى ذلك الأثر الخالد – القرآن – فى محاولات متتابعة لدراسته ، وإن كانت هذه الدراسة فى مجملها ذات طابع عام متناثر ، ترتبط بالجزئيات أكثر من ارتباطها بالنص الكامل . ومحاولة تحليله وتفسيره وحدة واحدة ، للانتهاء من ذلك بقضايا فنية عامة يعتد بها فى النص القرآنى وفيما عداه من النصوص الفنية الأخرى ، كما رأينا ذلك لدى بعض الدارسين فى العصر الحديث من دراسة «التصوير الفنى فى القرآن» و«مشاهد القيامة فى القرآن» وغيرهما .

وفى نفس الوقت قامت دراسات بلاغية أخرى ، لم تكن ذات صبغة دينية ، بل كان لها استقلال فى موضوعاتها وأهدافها اختلفت مستوياته على مدى الزمن ، وبدأت هذه الدراسات مبكرة أيضا بصحيفة بشر بن المعتمر (ت ٢١٠) ومتجاورة مع الدراسات البلاغية القرآنية السابقة ، وظلت متجاورة معها طوال القرون الثلاثة التالية للصحيفة

المذكورة مع اختلاف نموها وقيمتها فى كل قرن على حدة .

ففى القرن الثالث الهجرى اختلطت الدراسات البلاغية بدراسات أخرى غير أدبية، ضمتها كتب عامة موسوعية الطابع ، أهمها «البيان والتبيين» للجاحظ (ت ٢٥٥هـ) والكامل فى اللغة والأدب للمبرد (ت ٢٨٥) وهى كتب غير مختصة فى موضوعاتها ، ولا فى هدفها العام، إذ تحوى أخبارا وأشعارا ، ودراسات فى البلاغة وغيرها من مسائل الأدب واللغة .

وفى القرن الرابع اختلطت دراسات البلاغة بالدراسات النقدية القديمة ، وكأنما الهدف هو الحديث عن الأدب بصورة عامة ، كما نجد ذلك فى «عيار الشعر» لابن طباطبا (ت ٣٢٢) و«نقد الشعر» لقدامة ابن جعفر (ت ٣٢٧) وتنبع قيمة هذه الدراسات — على مافيها من عيوب — من اعتمادها — ولو نظريا — على النصوص الأدبية، ومن تخصص مصطلحاتها التى كانت عامة فيما سبق .

وكان أقصى مدًى وصلت إليه الدراسات البلاغية — قبل السكاكى — فى القرن الخامس على يد عبدالقاهر الجرجانى (ت ٤٧٤) فى كتابه «دلائل الاعجاز» ففيه قدرة فنية عالية لعرض النصوص الأدبية وتحليلها متكاملة ، وعناية بدلالات الألفاظ وإيحاءاتها مرتبطة بالإحساس العام بالنص ومدلوله — وهذا لم يحدث فيما سبق من دراسات — كما يغلب فيه التطبيق على نصوص القرآن والشعر والنثر .

بعد ذلك ... كان السكاكى (ت ٦٢٦) وفيه يقول ابن خلدون : ولم تزل مسائل الفن — البيان والمقصود كل علوم البلاغة — تكمل شيئا فشيئا ، إلى أن مخض السكاكى زبدته، وهذب مسائله ورتب أبوابه على نحو ما ذكرنا آنفا من الترتيب ، وألف كتابه المسمى «بالمفتاح!» فى النحو والتصريف والبيان ، فجعل هذا الفن من بعض أجزائه ، وأخذه المتأخرون من كتابه ، ولخصوا منه أمهات هى المتداولة لهذا العهد ، كما فعله السكاكى فى كتاب «التبيان» وابن مالك فى كتاب «المصباح» وجلال الدين السيوطى فى كتاب «الإيضاح» و«التلخيص» وهو أصغر حجما من الايضاح [1] .

أجل ... إنه هو أبو يعقوب السكاكى . الذى جمد دراسة البلاغية وقنن قواعدها

(١) راجع : مقدمة ابن خلدون (تحقيق وافي) جـ ٤ ص ١٢٦٥

وخنق الصلة بينهما وبين الأدب، ودخلت دراستها - بسببه ومن بعده - مجاهل ضل فيها الذين يعلمون والذين لايعلمون، وأثر كتابه كل التأثير فيمن تابعوه من الشراح والملخصين حتى العصر الذى نعيش فيه (١) وهذا ما سيتضح بصورة أكبر فيما يأتى من فقرات هذا المقال .

* * *

«البلاغة فى الكلام هى مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته» بهذه العبارة تتفتح وجوه البحث فى دراسات علوم البلاغة بتفصيلاتها الكثيرة ، وتبدو براعة البلاغيين فى أبحاثهم حول تفسير هذه العبارة وفهمها كى تشمل كل علوم البلاغة الثلاثة «فالمراد بمناسبات الحال الخصوصيات التى يبحث عنها فى علم المعانى ، دون كيفيات دلالة اللفظ التى يتكفل بها علم البيان . إذ قد تحقق البلاغة فى الكلام بدون رعاية كيفيات الدلالة . بأن يكون الكلام المطابق لمقتضى الحال مؤديا للمعنى بدلالات وضعية ... نعم إذا أدى المعنى بدلالات عقلية مختلفة فى الوضوح والخفاء . لابد فى بلاغة الكلام من رعاية كيفية الدلالة أيضا (٢) » .

فالمطابقة لمقتضى الحال تقتضى تعبيرا يؤديها ، وإذا كانت دلالات الألفاظ فى هذا التعبير وضعية على حسب عرف اللغة فقط ، اختصت هذه العبارة - مطابقة الكلام لمقتضى الحال - بعلم المعانى ، أما إذا كانت تلك التعبيرات التى تؤدى هذه المطابقة مما تدخل فيها الصنعة العقلية والقدرة البلاغية بحيث تختلف وضوحا وخفاء - لاحظ أن الخفاء لدى البلاغيين أبلغ - فإن العبارة تشمل علم البيان أيضا ، إذ تختلف فيه مستويات التعبير بين الارتفاع والهبوط حسب حظها من الوضوح والخفاء ، وحسب حظ

---

(١) يلاحظ أن دراسة البلاغة فى جامعاتنا ومدارسنا لا زالت تسير على نفس الطريق الذى وضعه السكاكى وشراحه ، وتردد نفس الأمثلة والشواهد ولم يحدث بها تجديد فكرى بل شكلى .

(٢) شروح التلخيص جـ١ صـ ١٢٣ (الإيضاح : للقزويني) . فقد لخص القزوينى مفتاح السكاكى ونال هذا التلخيص ما لم ينله الأصل من الاهتمام والشروح الكثيرة ومنها مجموعة مشهورة فى كتاب واحد بهذا الاسم .

قائلها من القدرة على الصناعة - التى وصفت بأنها عقلية - من حقيقة أو مجاز ومن تشبيه أو استعارة أو كناية ، إذ تتفاوت رتب هذه الأمور السابقة ، وماكل إلا له مقام معلوم يقدره أهل الفضل من علماء البلاغة .

غير أن البلاغيين يكادون يتفقون بعد مجهود عنيف فى شرح العبارة السابقة والدوران حولها وتقليبها على وجوهها الممكنة وغير الممكنة بإعمال العقول فيها على أنها تشمل علمى المعانى والبيان - بل علم البديع أيضا - إذ «يسمى العلمان علمى البلاغة لأن لهما مزيد اختصاص بالبلاغة ، أما فى «المعانى» فواضح ، لأن به يعرف ما يطابق به الكلام مقتضى الحال . والبلاغة مطابقة الكلام مقتضى الحال ، واما فى «البيان» فلأن مفاده وثمرته معرفة ما يزول به التعقيد المعنوى ، وهو مما يتوقف عليه البلاغة .. فإزالة التعقيد المعنوى لايتعرض له إلا من له طموح للبلاغة [١] » .

فمادام البحث فى البلاغة .. وطموح إليها ، فلابد أن يشمل هذا البحث فى الواقع التفاوت فى طرق التعبير وهو ما انبنى عليه علم البيان- بل إن الأمر يشمل ما هو أكثر من ذلك وهو دراسة وجوه «الفهلوة» والتفنن التى يحسن بها الكلام نتيجة الإيقاع اللفظى والتلاعب بالألفاظ والحروف أو اللمحات المعنوية الجزئية فى المعانى ، وهو مما يزيد الكلام حسنا لحسن البلاغة .

فالعبارة التى افتتحت بها هذه الفقرة - مطابقة الكلام لمقتضى الحال - هى المحور الذى درات حوله أبحاث البلاغيين القدماء والمحدثين أيضا ، فتابعوهم فى نفس المصطلحات وشرحها وتحددت تلك الأبحاث فى :

١- **علم المعانى** : وهو مايعرف به المعانى التى يصاغ لها الكلام ، وهى الدلالات العقلية المسماة بخواص التراكيب .

٢- **علم البيان** : وهو ما يعرف به بيان إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالات وخفائها .

٣- **علم البديع** : وهو ما يعرف به وجوه تحسين الكلام لفظيا ومعنويا .

---

(١) السابق : ص . ١٥ (مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربى)

* * *

ولكن ... ما هى الفائدة التى تؤديها الدراسة البلاغية كما يراها البلاغيون ؟ أو بعبارة أخرى : ما أهداف هذه الدراسة التى يمكن أن يفيد منها الدارس من وجهة نظرهم ؟

أولا : فى رصد هذه الفكرة ينبغى أن يصرف النظر عن الحديث العام ذى الطابع الإنشائى ، إذ إنّ طبيعة هذا الحديث لاتفيد شيئا محددا ذا قيمة ، وذلك مثل «وعلم البلاغة أشرف أنواع الأدب قدرا وأعلاها مكانة وخطرا ، لأنه علم الاستخراج لأسرار البلاغة من معادنها ، والكشف عن محاسن النكت المودعة فى مكامنها» أو مثل «علم البلاغة نافع للأديب والناقد والمؤرخ ، ولكل كاتب أو متكلم أو خطيب أو مدرس ، فإنه ينير السبيل أمام هؤلاء جميعا ، ويعينهم على أن تكون آثارهم اللغوية مفيدة مؤثرة ممتعة تغذى العقل والشعور والأذواق[1] » .

فإن المفاضلة بين علم وآخر لاتفيد شيئا ، فليكن علم البلاغة أشرف قدرا وأعلى مكانة أو محروما من كلا الوصفين ، فهذا لايهم ، ولا يدخل فى نطاق البحث – ولا أدرى كذلك كيف تفيد البلاغة كل هؤلاء المذكورين وبخاصة المؤرخ . والحقيقة أن مثل هذه العبارات العامة وأمثالها لم تعد من سمات التفكير العلمى المنظم ، بل لم تعد من سمات عصرنا على الإطلاق ، إذ لا تتمخض عن شيء له وزنه الحقيقى ودعائمه العلمية الصحيحة .

ثانيا نت الممكن أن نحدد أهداف هذه الدراسة بما نعثر عليه بين العبارات العامة والإنشائية سواء فى الكتب القديمة أو توابعها من الكتب الحديثة . يقول ابن مالك : «وإذا حذقت هذا العلم اطلعك على إعجاز نظم القرآن ، وعلى خفاء انصباب نظمه فى تلك القوالب ، وورود على تلك المناهج والأساليب ، وأقدرَك فى نسج جيد الكلام على ما يشهد لك من البلاغة بالقِدْح المعلى[2] » فالهدف من دراسة البلاغة إذن يتحدد فى أمرين هما :

---

(١) العبارة الأولى من «المصباح» ص ٣ – والثانية من الأسلوب ص ٩

(٢) المصباح ص ٣ .

١- معرفة طريقة القرآ في نظمه ، وبالتالى الكشف عن سر إعجازه .

٢- معرفة الطريقة التى يكون بها الدارس بليغا فى نطقه ، بما يشهد له - كما قال ابن مالك - بالقدْح المعلى .

وقد قرر أستاذنا «احمد الشايب» الفكرة الثانية بنفس المعنى مع اختلاف الأسلوب فقط إذ يقول :

«فقواعد البلاغة ترشدنا إلى الإنشاء الصحيح ، وإلى الطرق المختلفة لتأليف الكلام الممتاز بالإفادة وقوة التأثير [(١)]» .

أجل ... فأهداف البلاغة أن نعرف بها إعجاز القرآن ، وأن تعلمنا الإنشاء الصحيح . وكلا الهدفين لايمكن أن تؤديهما البلاغة العربية بصورتها الحالية - لما سيأتى فى الفقرة التالية - لكن أقرر هنا أن الهدف الثانى منهما يقف فى طرف مخالف تماما للروح الأدبية والعلمية ، ذلك أن الأدب ليس قواعد ينتج الأديب على أساسها ، ولكنها استعداد فنى لدى الأديب ينميه النقد البناء لإنتاجه ، مع موالاة هذا الإنتاج وهذا النقد ، ولا أتصور أديبا أصيلا يتوقف ليسائل نفسه عن قواعد البلاغة لكى يتوافق معها فيما يقدمه من أساليب وأفكار ، وبعبارة أخرى : إن الإنتاج أولا ثم يكون التفسير ، فالاستقراء يكون لما هو كائن بالفعل لا لما يجب أن يكون ، وهو منهج يتسم بالتسامح وعدم التحكم . ولكن شاء البلاغيون أن يجعلوا هذا العلم للإقدار على «نسج جيد الكلام» و«تعليم الإنشاء الصحيح» فجانبهم التوفيق فيما أنتجوه وفيما هدفوا إليه .

* * *

- من الأسباب التى أدت إلى عقم البلاغة وتجمدها أنها تأثرت أبلغ التأثر بالأبحاث الفلسفية التى تأثر بها الباحثون العرب فى وقت مبكر مع نشأة العلوم العربية ، ونمت معها نموا وصل فى العصور المتأخرة إلى حد التمحّل والتكلف ، وإلى درجة جعلت

---

(١) الأسلوب ص ٧ .

الدراسة فى علم البلاغة مجهودا مضنيا للعالم والمتعلم على السواء ، وإذا كان هذا المجهود يبذل فقط فى الفهم والمعرفة ، فكم يكون مؤسفا أن ما نفهمه وما نعرفه مما لاعلاقة له بالأدب ولا بالفن الأصيل .

وفى يدى من تراثنا البلاغى المتأخر «شروح التلخيص» وهى خمسة مرتبة فى الصفحة الواحدة ترتيبا تنازليا على طريقة الأنهر - وكلها تشرح ملخصا لكتاب «المفتاح» وضعه الخطيب «القزوينى» .

وقد فتحت أحد أجزاء هذا الكتاب ، فوجدت أمامى حديثا عن أدلة الحذف فى مثل قوله تعالى (حرمت عليكم الميتة) فقد قال الملخص : العقل يدل على الحذف، والمقصود الأظهر - هل سمعتَ به. - يدل على المحذوف، وجاء فى أحد الشروح «وفيما قاله المصنف نظر من وجهين : أحدهما : أن الدليل المسوغ للحذف لابد أن يكون دليلا على تعيين المحذوف ، إما لفظيا كالمعين ، أو خارجيا كما فى المجمل لا على أصل الحذف ، فليس ذلك دليلا مسوغا للحذف إلا لغرض الابهام ، وإن اراد أن العقل دل على أصل الحذف ، والظهور دل على تعيينه ، فالدال حينئذ على المحذوف المعين وهو الظهور ، فالأولى أن يقال ظهور ارادة المحذوف دليل عليه ، وتارة يجوِّز العقل مع ذلك إرادة المنطوق به ، وتارة لايجوز ، بأن يدل العقل على استحالة إرادته ، والثانى : ان قوله : ادلته كثيرة منها أن «يدل العقل» لايصح ، لأن «يدل العقل» ينحل إلى «دلالة العقل» فكأنه قال أدلته الدلالة وهو فاسد [1] » .

هل فهمت شيئا !! وإذا كنت قد فهمت ، فمذا يفيد ذلك فى الفن والأدب . أو حتى - كما قالوا - فى معرفة الإعجاز فى الآية المجهدة تحت وطأة هذه المعانى الذهنية الفلسفية التى لاتقدم شيئا غير التشويش والعياء.

- إن السر الذى يكمن وراء هذا اللون من البحث أن كثيرا من الباحثين فى هذا الدور المتأخر كانوا متكلمين ومناطقة ومتفلسفين قبل ان يكونوا أدباء أو نقادا، فالسكاكى متكلم ، والتفتازانى (ت ٧٩٢) متكلم ومنطقى ، له من الكتب «شرح العقائد» و «المقاصد

---

(١) شروح التلخيص جـ ٢ ص ٢٠٥

فى الكلام» و«شرح الشمسية فى المنطق» والشريف الجرجانى على بن محمد (ت ٨٢٦) أستاذ فى البحث والجدل والفلسفة ، ومن كتبه «شرح حكمة العين» و«شرح كتاب المواقف فى الكلام» وكان من الضرورى إذن ان ينعكس تكوينهم الذاتى -عن قصد أو غير قصد- على مجهودهم البلاغى ، فكانت تلك التركة البلاغية التى تعلم كل شيء إلا البلاغة .

- على أن فكرة «مقتضى الحال» نفسها التى قامت عليها دراسة البلاغة - كما سبق - فكرة دخيلة عرفت عن أرسطو ، وقد ذكر ذلك الدكتور ابراهيم سلامة - وهو مترجم كتاب : الخطابة لأرسطو - إذ قرر أن هذا مبدأ أقره أرسطو ، فما كان يسمح ان يتكلم فى الخطابة القضائية بما هو ملتصق بالخطابة السياسية ، بل طالب الخطباء بمراعاة الجنس والسن والحالة العقلية للسامعين - فلا تكلم النساء بما يكلم به الرجال ، ولا يكلم الشباب بما يكلم به الشيوخ ، ولا يكلم الجاهل بما يكلم به المتعلم (١) .

- ونتيجة لهذا السبب الرئيسى من عيوب البلاغة ، يجيء سبب آخر هو «قصور الدراسات البلاغية عن مجاراة الأدب» ذلك أن الأدب فن يتطور باستمرار، فى موضوعاته وأشكاله ، وهذا يستدعى بدوره دراسة متطورة تلاحقه بالتفسير ... والتنوير ، وهذا لم يحدث للبلاغة فى عصورها المتأخرة ، لأن طبيعة دراستها - كما وصلتنا - منفصلة عن الأدب من ناحية ، ولأن الجهود بعد ذلك اتجهت للتلخيص والشروح والحواشى من ناحية أخرى ، فلم تصبح المادة المدروسة هى الأدب ، بل أصبح المدروس المشروح هو مجهودات السابقين المقيدة بشواهد محدودة ، يرددها الخلف بعد السلف ، ولست أغالى إذا قلت : إنها قد انتخبت عن قصد لتصلح ميدانا للأخذ والرد والمجهود الذهنى الرائع فى غير ما يستحق الروعة . ولو أوردت هنا بعض هذه الشواهد لكان فيها ما يثير ابتسامة الغيظ ومرارة الأسف !!

- وهناك عيب آخر فى الإطار الذى وضعه البلاغيون لدراستهم إذ لم يضعوا فى اعتبارهم دراسة النص وحدة متكاملة ، بل جعلوا هذه الدراسة تدور حول المفردات والجمل منفصلة عن روح النص ومضمونه ، فالبحث فى المعانى إنما هو بحث فى طرفى

---

(١) راجع : بلاغة أرسطو بين العرب واليونان صـ ٣١ .

الجملة – المسند والمسند إليه – ثم بحث الجمل من حيث تقع موقع المفردات أو لا تقع فتوصل أو تفصل ، وكذلك نجد أبحاث البيان من تشبيه واستعارة وكناية ليست إلا جملة واحدة أو كالجملة الواحدة إذا كانت تشبيها مركبا أو مجازا كذلك وهكذا .

فالبلاغة العربية بوضعها الراهن – كما يقول أحد الدارسين – لا تكاد دائرتها تتعدى البحث فى الجملة إلى مظاهر الجمال للقطعة الأدبية المتكاملة .

والواقع أن البلاغة لو كانت بحثا فى الجمال –حتى فى نطاق الجمل والمفردات – لارتبطت بالنص كله – ربما بقوة الدفع الذاتى – وقدمت للذوق والأدب ما هو أجدى مما هى عليه الآن .

* * *

والآن .. ماهو الحل ؟

هناك طريقان يَرِد ان على الذهن تجاه مشكلة البلاغة ، أولهما هو طريق الإصلاح والترقيع ، والثانى هو طريق المواجهة الجذرية للمشكلة ، نضع فيه أبحاث البلاغة فى مناخ جديد تتنفس فيه بعمق وحيوية ، والأول يعتمد على أن نُصَفِّىَ دراسة البلاغة مما فيها من الخلط والاضطراب وأن نبقى ما نستصفيه من دراستها على ما هو عليه الآن بنفس التقسيمات والمنهج ، أما الثانى فيعتمد على أن نواجه أبحاث البلاغة العامة مواجهة صريحة وجريئة ، لكى نوجهها الوجهة التى تتفق مع مناهج الدراسات الأدبية واللغوية الحديثة .

وأنا أختار الطريق الثانى ، لأن الأول لن يحل المشكلة حلا نهائيا ، حيث ستبقى الروح العلمية المتخلفة – حتى مع هذا الاستصفاء – موجودة فى المادة العلمية نفسها ، وتبقى جذورها – شئنا أو لم نشأ – ضاربة فى أعماق الدراسة القديمة بما فيها من تعقيد وصعوبة .

والمعلوم أن الأبحاث العامة فى علم البيان تتلخص فى : التشبيه والاستعارة والكناية، والحقيقة والمجاز – اما أبحاث علم المعانى فهى عن : المسند إليه والمسند،

والقصر والخبر والإنشاء وأنواعهما والفصل والوصل ، والإيجاز والإطناب والمساواة ويتبعهما علم البديع .

وسأتناول هذه الأبحاث فى مستويات ثلاثة :

١- التشبيه والاستعارة والكناية ودراسة الصورة الأدبية فى النقد الحديث .

٢- الحقيقة والمجاز وتطور الدلالة فى الدراسات اللغوية الحديثة .

٣- أبحاث علم المعانى ونظام الجملة والتركيب فى الدراسات اللغوية الحديثة.

لنرى كيف يمكن لهذه الأبحاث أن تؤدى دورها فى وطنها الجديد فتستفيد وتفيد

.أولا : التشبيه والاستعارة والكناية ودراسة الصورة الأدبية

من غير المعقول أن أستعرض هنا فى هذا البحث الموجز فكرة المذاهب الأدبية المختلفة عن الصورة الأدبية من كلاسيكية ورومانتيكية وبرناسية ورمزية وسيريالية ونفسية وغيرها – فلذلك أبحاثه ومواضعه الأخرى – لكنى أشير فقط إلى بعض الخطوط العامة التى أفدناها من هذا الجهد الأدبى الغنى فيما نحن بصدد زعمه من دراسة هذا المباحث البلاغية ضمن هذا الإطار .

– من ذلك أن الصورة الأدبية لايلزم أن تكون ألفاظها أو عباراتها مجازية – كما هو رأى علماء البلاغة – بل تكون الألفاظ والعبارات أحيانا حقيقية وتصور المشهد أو الموقف النفسى تصويرا فنيا صادقا يدل على خيال خصب ، من ذلك مثلا فى القرآن (ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ، ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون) فجميع الألفاظ فى هذه الآية حقيقية الاستعمال ، ولكنها مع ذلك تصور مشهدا حزينا من مشاهد القيامة ، وهو الموقف الذليل للمجرمين (ناكسو رؤوسهم) يزيده ذلة أنهم (عند ربهم) بل ان حديثهم كذلك ذليل يصور أمنياتهم المحرومة البعيدة المنال (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا) وأنّى يكون الرجوع بعد فوات الأوان ؟

ومن ذلك أيضا قول «أبى صخر الهذلي» فى حبيبته :

ويمنعنى من بعض إنكار ظلمها   إذا ظلّمت يوما وإن كان لى عـذر

مَخافةً أنى قد علمت لئن بدا   لى الهجرُ منها ما على هجرها صبر

وأنى لا أدرى إذا النفس أشرفت   على هجـــرها ما يبلغنْ بِىَ الهجــر

فليس فى هذه الأبيات الثلاثة كلمة مجازية بأسلوب البلاغة ، لكنها مع ذلك تصور بصدق أزمة «ابى صخر» النفسية ، إذ تظلمه حبيبته أحيانا ، فيغلب على أمره ، ولا يستطيع حتى «بعض الإنكار» مع أن الحق فى جانبه لو أنكر «وله عذر» ولكنه لايستطيع ويقدم لنا مبررات ضعفه فى خوفه من هجرها حقيقة «وماله على هجرها صبر» بل رهبته من نفسه هو إذا قاربت الهجر وأشرفت عليه ، وما يسببه له ذلك من آلام ومتاعب ، فما بالك بالهجر نفسه «ما يبلغَنَّ بى الهجر» وهو بذلك يثير فينا الاشفاق عليه وإعذاره فى ضعفه بدلا من الحنق عليه والأسف من جبنه .

وبهذا نرى أن دراسة الصورة الأدبية فى النقد الحديث تتسع لدراسة أشمل بكثير مما قصرته الدراسات البلاغية القديمة على التشبيه والاستعارة والكناية . وهى فكرة لا تزال شائعة لدى كثير من العاكفين على دراسات السلف وحدهم .

– ومن هذه المبادىء أن تكون الصور فى العمل الأدبى مرتبطة بالتجربة – على معنى أن تجسد الصورة فكرة أو عاطفة مما تثيره التجربة المتناولة نفسها من أفكار أو عواطف ، وإلا كانت افتعالا مزيفا يدل على براعة العقل وقوة التخيل ، ولكنها فى نفس الوقت تفتقد الصدق ولا تفيد شيئا ، إذ تدل فقط على «فهلوة» العقل والخيال إن صح هذا التعبير «فالصورة جزء من التجربة ، ويجب أن تتآزر مع الأجزاء الأخرى فى نقل التجربة نقلا صادقا فنيا وواقعيا، وهذا قدر مشترك بين المذاهب الأدبية الحديثة [١] » .

وفى ضوء ذلك يمكن أن نقدّر قيمة كثير من التشبيهات والاستعارات التى اعتد بها البلاغيون فراحوا يحللونها معجبين ، مع أنها عارية تماما عن الصدق والفن . من مثل :

فإنْ تَفُقْ الأنامَ وأنت منهم   فإنّ المِسْكَ بعض دم الغزال

---

(١) النقد الأدبى الحديث ص ٤٤٩ .

ويقول الفرزدق يرثى ابنيه :

بِفِىِ الشامتين التربُ أن كان مسَّنى   رزيةُ شِبلَى مخدَر فى الضَّراغم

ومـا أحـــد كان المنايـــا وراءه   ولو عاش أياما طوالا بســالم

يذكرنى ابنيَّ السِـــمَا كَانِ مَوْهِنًا   إذا ارتفعا فوق النجوم العواتم

ففى البيت الأول احتجاج عقلى لتفوق الممدوح على الناس (بأن المسك بعض دم الغزال) وهو احتجاج مزيف ، وتجربة الفرزدق هى (فقد ابنيه) وما يثيره ذلك من أشجان وأحزان ، لكنه راح يتحدث عن الأشبال والأسود والسِّمَاكَيْنِ والنجوم ، وهى صور منشؤها قوة التخيل ، لكنها كاذبة ضعيفة التأثير لا نفصامها عن تجربته .

– ومن رأى النقد الحديث أيضا أن الصور الأدبية فى النص ينبغى أن تكون تجسيدا قوى الصلة بالمشاعر التى تسيطر على النص كله ، وان يكون التيار الذى يرفدها من داخل العمل الأدبى نفسه ، فتصبح بذلك دلالة على قوة هذا الشعور وعمقه ، فهى فورة من فوراته الغنية تجسدت فى صورة حسية قوية ، وكلما كانت الصورة أكثر ارتباطا بالشعور كانت أقوى صدقا ، وأعلى فنا ، وكلما بعدت عن ذلك انقطع التيار الذى يمدها بالحيوية والحياة .

وفى ضوء هذا المبدأ يتبين أن كثيرا من التشبيهات والاستعارات التى تدل فقط على البراعة الحسية دون أن يكون وراءها شعور يغذيها – وهو الشعور الذى يسيطر على النص كله – لاقيمة لها فى الميزان النقدى الحديث، ومن ذلك مما يُدرس فى البلاغة :

النَّشْرُ مِسْكٌ والوجوهُ دنانيرٌ ، وأطرافُ الأكُفِّ عَنَم

فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسَقَتْ وردا ، وعضت على العناب بالبرَد

وكم يجهد الدارس فى معرفة هذه الوجوه البيانية وأبعادها ؟؟ ومثلها ركام هائل فى الشعر العربى نفسه وفى دراسات البلاغة القديمة .

ويتبين كذلك فى ضوء هذا المبدأ أن مجرد الصنعة البلاغية فى بيان أطراف التشبيه ووجه الشبه «الجامع فى كل» وإجراء الاستعارات بمظاهرها المختلفة وبوسائلها

المجهدة عملٌ لا قيمة له ، لأن أساسه بتر الصورة الأدبية عن تيارها الشعورى والنفسى ، وبعثرتها جثثا ميتة لا حياة فيها .

وإليك هذا النص النثرى الموجز الذى أورده المبرد فى كتابه «الكامل فى اللغة والأدب» لنوازن فى صوره بين منهج البلاغيين ومنهج النقد الحديث .

قال أبو العباس : ومِمَّا يُؤثر من حكيم الأخبار وبارع الآداب ما حُدثنا به عن عبدالرحمن بن عوف أنَّه قال : دخلت يوما على أبى بكر الصديق رَضى الله عنه فى علّته التى مات فيها ، فقلت له : أراك بارئا ياخليفة رسول الله (ص) .

فقال : أمَا إنّى على ذلك لشديد الوجع ، ولَمَا لَقيت منكم يامعشر المهاجرين أشدُّ عَلَيّ من وجعى ، إنّى وَلّيْت أموركم خيركم فى نفسى ، فكلكم وَرِمَ أنفُه أن يكون له الأمرُ دونه ، والله لتتخذُنَّ نضائدَ الدّيباج وستورَ الحرير ولتألَمُنَّ النوم على الصُّوفِ الأذْرَبِيّ كما يألم أحدُكم النومَ على حَسَكِ السَّعْدان ، والذى نفسى بيده لأنْ يُقدَّم أحدُكم فتُضْرَبَ عُنُقُه فى غيرِ حَدّ خيرٌ له من أن يَخُوضَ غَمَرَاتِ الدنيا ، ياهاديَ الطريقِ جُرْتَ ، إنما هو والله الفجرُ أو البَجْرُ .

فقلت : خَفّضْ عليك ياخليفة رسول الله (ص) فإن هذا يَهيضُك إلى مَابِكَ ، فوالله ما زلْتَ صالحاً مُصلِحاً ... لا تأسَ على شىءٍ فَاتَكَ من أمرِ الدنيَا ... ولقد تَخلّيْتَ بالأمرِ وحدك فما رأيت إلا خيرا .

فقد دخل «ابن عوف» على «الصديق» وهو يحمل مشاعر المُواسى ، أما أبو بكر فمتألم حانق مما هو فيه من مرض بدنى وشعور نفسى مُمِضٍ ، وقد عبر كل منهما عن مشاعره بصدقٍ ، فعبد الرحمن يواسى الصدّيق عن آلامه البدنية أولا بما يجمل بالمقام من الحديث عن الصحة والعافية (أراك بارئا ياخليفة رسول الله) ، ويرد أبو بكر بعبارة قصيرة عن ألمه الجسمى «إنى على ذلك لشديد الوجع» ثم يلتفت بسرعة إلى ألمه النفسى فيطيل الحديث عنه دلالة على شدة سيطرته على نفسه ، وعِظَمَ أهميته بالنسبة له ، مبينا أن الذى أثار حفيظة المهاجرين واعتراضهم عليه إنما هو حب الدنيا ... وإرادة الفتنة — وأخيرا يأتى دور ابن عوف فيواسيه مرة ثانية عن ألمه النفسى بعدما واساه عن مرضه

البدنى ، فيقول له : هَوِّن عليك الأمر (فإن هذا يهيضك إلى ما بك) فيهدئه بعض الشيء، ثم يهدنه تماما بعد ذلك بوصفه (بالصلاح والإصلاح) وأنّه لم يخطىء فى اختياره (فما رأى إلا خيرا) ولقد اختار فأحسن الاختيار .

ففى هذا النص يتسلسل الشعور تسلسلا طبيعيا لا تكلف فيه ولا افتعال ، وهو من ناحية أدائه اللفظى ترتبط فيه الكلمات والعبارات فى مدلولاتها وإيحاءاتها بتلك المشاعر ارتباطا ناميا دون حشو أو توقف ، ثم تنساب تلك العبارات فى سهولة ورفق دون طنطنة أو ضجيج – وذلك مناسب تماما لموقف المحادثة الجادة بين الأصدقاء – وفى خلال ذلك تتناثر فيه بعض الصور البيانية التى هى موضع حديثنا هنا وهى (كلكم ورم أنفه – يخوض غمرات الدنيا – أن يقدم أحدكم فتضرب عنقه خير له من أن يخوض غمرات الدنيا – ياهادى الطريق جرت ، إنما هو والله الفجر أو البجر) .

فماذا يفعل البلاغيون لو افترضنا تناولهم لهذا النص وتلك الصور ؟

– إنهم يعزلونها أولا عن الموقف والمشاعر التى يؤديها النص ، ثم يتحدثون عنها بعد ذلك هكذا :

* كلكم ورم أنفه : كناية عن الغضب ، وهى من النوع الذى يذكر فيه اللازم ويراد الملزوم .

* يخوض غمرات الدنيا : يدخل فى الفتن وفى الفعل استعارة تبعية وفى الغمرات استعارة أصلية (يجرونهما) .

* عبارة لان يقدم ... إلخ : فيها تشبيه ضمنى مركب ، يحددون هيئاته وأجزاءه .

أما النقد الحديث فيعتبر تلك الصور فى أماكنها التفاتات جانبية ذات صلة طبيعية بمجرى الشعور السارى فى كيان النص كله .

ففى عبارة (كلكم ورم انفه) نحس أن أبا بكر قد أشعرنا بالتشويه النفسى الذى دفعهم للغضب والاتهام بتلك الصورة التى يتضح فيها التشويه البدنى – صورة أنوفهم

التى تضخمت حتى أساءت إلى وجوههم - فإذا انتقلنا إلى من (يخوض الغمرات) وما تبعه من (ياهادي الطريق جُرت ، إنما هو والله الفجرُ أو البَجْر) نحسّ حقا رهبة الدخول فى الفتن بما تجسد أمامنا من صور الظلمات والخائضين فيها ... والمندفع فى السير ليلا وقد ضل الطريق مع ما يترقبه من شر وهلاك ، وكل ذلك يجسد حقيقة المأساة التى يخشاها أبو بكر ، ويحذر منها ، وهى الدخول فى الفتنة .

أجل ... فالتصوير إن ارتبط بمضمون النص بتلك الايحاءات المجسدة مما لاتؤديها العبارات فى مستواها العرفى الحقيقى ، فهو صادق فنيا ، وإلا كان افتعالا لاقيمة له وحشوا لا فائدة فيه - وهكذا تجب دراسته .

وأخيرا ... فليس من الممكن - فى هذا البحث الموجز - أن استمر فى عرض ما أفدناه من هذا التراث الإنسانى فى دراسة الصورة الأدبية - فهو كثير - مع الموازنة بين ذلك وبين تركتنا البلاغية القديمة ، ولكنى أكتفى بما قدمته ، معتقدا أن من الانصاف والوفاء لبحوث التشبيه والاستعارة والكناية فى البلاغة العربية أن تصفّى نفسها، لتنضمّ بعد ذلك إلى دراسة الصورة الأدبية فى النقد الحديث لتستفيد وتفيد .

ثانيا : الحقيقة والمجاز وتطور الدلالة فى الدراسات اللغوية

تبين - فى الفقرة السابقة مباشرة - قيمة المجاز البلاغى ، وكيف يمكن لدراسته أن تكون مجدية فى مستواها الجمالى باعتبارها جزءا من دراسة الصورة الأدبية فى النقد الحديث ، وهنا نتناول مبحث الحقيقة والمجاز - وهو أحد مباحث البلاغة المهمة - فى مستوى آخر موضوعى هو المستوى الدلالى ، إذ إن الحقيقة والمجاز ليسا سوى مظهر «للتطور الدلالي» لا فى اللغة العربية وحدها ، بل فى كثير من لغات العالم ، ولذلك فإن بحثهما الآن يندرج تحت فرع من فروع الدراسات اللغوية الحديثة هو «علم المعنى أو الدلالة» Semantics وبتحديد أدق : فى البحث عن «تطور الدلالة» .

لقد قسم علماء البلاغة الأقدمون الألفاظ إلى حقيقة ومجاز مفترضين أن هناك واضعا أوّل قد وضع الألفاظ لمعانٍ معينة، فإذا استعملت هذه الألفاظ فى معان أخرى غير ما وضع أولا خرجت من حقيقتها إلى المجاز، كما جاء فى «شروح التلخيص»: إن الحقيقة هى الدلالة الأصلية لِلَفْظٍ من الألفاظ فإذا استُعملت فى معان أخرى غير ما وضع أولا خرجت عن حقيقتها إلى المجاز الذى به غُيِّرَ المعنى الأصلى الموضوع له فى أصل اللغة.

وينقل السيوطى عمّن لقبه «بالإمام وأتباعه» قوله : «المجاز خلاف الأصل : لأنه يتوقف على «الوضع الأول والمناسبة والنقل» وهى أمور ثلاثة ، والحقيقة على «الوضع» وهو أحد الثلاثة فكان أكثر [1] » .

وعلى الرغم من ذلك فإن علماءنا الأقدمين – ومنهم البلاغيون – قد اختلفوا تماما فى تقسيم ألفاظ اللغة بين الحقيقة والمجاز والانحياز الحاسم إلى احد الجانبين أو الأخذ بكليهما ، بل قد اختلفوا أيضا فى دلائل الفرق بينهما فى حديث طويل ليس هنا مجال ذكره .

والسبب فى هذا الاختلاف والاضطراب يعود إلى أن فهم الحقيقة والمجاز لديهم قد قام على أسس هى :

١- افتراض الواضع الأوّل للغة ، أو بعبارة أخرى : افتراض التوقيف فى نشأتها، سواء أكان ذلك المنشيء هو الله أو الأنبياء ، كما هو واضح فى تحديد المعنى السابق لكل من الحقيقة والمجاز .

٢- اعتبار اللغة عصرا واحدا فى تحديد دلالة الألفاظ والاستشهاد بها .

٣- إغفال العنصر الاجتماعى فى تحديد مدلولات الألفاظ ، للتفريق بين الحقيقة والمجاز .

وببيان هذه الأمور الثلاثة – لاغير – من وجهة النظر اللغوية الحديثة تتضح الأخطاء المنهجية فى دراسة الحقيقة والمجاز لدى البلاغيين خاصة والأقدمين عامة ، كما يتضح أيضا ما نزعمه من وجوب دراستهما فى علم اللغة لا فى البلاغة .

---

(١) المزهر فى علوم اللغة جـ ١ صـ ٣٦١ .

– إن القول بالواضع الأول للغة يرتبط بالبحث فى نشأة اللغة التى وجدت من الباحثين القدماء – العرب والأجانب – عناية كبيرة ، فتشعبت الآراء ، وكثرت وجهات النظر ، ولكن منذ القرن الثامن عشر لم يعد لهذا البحث قيمة علمية لدى اللغويين المحدثين إذ كتب Herdar فى هذا القرن يقول فى كتابه : «معجزة نشأة اللغة» لقد اخترعت اللغة بوسائل الإنسان الخاصة ، ولم تبتكر بصورة إلهيّة بطريق التعليمات الإلهية ، لم يكن الله هو الذى اخترع اللغة للإنسان ، ولكن الإنسان نفسه هو الذى اضطر إلى اختراعها بطريق ممارسة قدراته الخاصة .

وأضيف إلى ذلك أنّ اللغة لم تبتكر بطريق التوقيف أياً كان ، فليس هناك واضع أول – إلهى أو بشرى – يتوقف عليه وضع الألفاظ أو دلالتها ، بل إن البحث فى نشأة اللغة – عموما – لايؤذن له الآن بالدخول فى المنهج الحديث ، إذ هو بحث غيبى لايدخل فى إمكان الباحث .

وبتقرير هذه الحقيقة يتبين قيمة الأساس الأول الذى يفترضه علماء البلاغة فى دراستهم للفكرة ، فافتراض الواضع الأول لدلالة الألفاظ – وعلى أساسها تكون الحقيقة وبتغيرها يحدث المجاز – افتراض قد جانبه التوفيق .

– أما اعتبار اللغة عصرا واحدا فى تحديد دلالة الألفاظ وفى الاستشهاد بها مع أنها تمتد آمادا بعيدة فى الجاهلية وفيما تلاها من قرون – هذا المدى الزمنى الطويل لم يدرس بهذا الوصف، بل درس على انه مدًى واحد ، ومرحلة واحدة ، فإذا أخذنا فى الاعتبار مع ذلك أن اللغة ظاهرة اجتماعية تتطور باستمرار ، وان لكل مرحلة منها خصائص مستقلة فى الدلالة وفى غيرها ، قد تكون جديدة تماما أو متجددة عما سبقها تبيّن لنا السبب فى اضطراب منهج الأقدمين ، واعتبارهم الألفاظ كلها حقيقة أو كلها مجازا ، إذ قد يكون للفظ تاريخ مجازى ينسى مع هذا المدى الطويل – ومن هنا جاء القول بأن كل الألفاظ حقيقية – كما يحدث العكس أيضا ، إذ قد يكون للفظ تاريخ مجازى يتذكره بعض العلماء – ومن هنا ما قيل من أن كل الألفاظ مجازية .

والخلاصة أن هذا الأساس الثانى أيضا ممّا أخِذَ فى اعتبار البلاغيين – وغيرهم من علماء اللغة – أساسٌ قد جانبه أيضا التوفيق .

– أما الفكرة الثالثة – وهى العنصر الاجتماعى فى دراسة الحقيقة والمجاز – فقد أغفله البلاغيون العرب ، مع أنه هو أساس الفهم المتطور الحديث لفهم الدلالة ، بل لدراسة اللغة كلها ، ذلك أن فهم الحقيقة والمجاز يرتبط بالفرد الذى يسمع الألفاظ أو يقرؤها ، فهو وحده الحكم فى نوع دلالة اللفظ ، ويعتمد حكمه على تجاريه مع الألفاظ وعلى الوسط الاجتماعى والثقافى الذى يعيش فيه «لأن الحقيقة لاتعدو أن تكون استعمالا شائعا مألوفا للفظ من الألفاظ ، وليس المجاز إلا انحرافا عن ذلك المألوف الشائع ، وشرطه أن يثير فى ذهن القارىء أو السامع دهشة أو غرابة أو طرافة (١) » .

وبالرغم من أن ذلك مرتبط بالفرد ، فإن الأمر لايتوقف عليه فقط ، بل نجد قدرا من الاشتراك فى هذا الأثر النفسى الذى يحدد مستوى الدلالة للألفاظ ، وعلى أساس هذا الاشتراك يكون الحكم العام بحقيقة الألفاظ أو مجازيتها «فإذا ما تبلورت الكلمة ، وتحدد معناها الجديد فى البيئة الخاصة كان لابد لها فى الوقت المناسب أن توسع دائرتها الاجتماعية الخاصة ، حتى تصبح مقررة ثابتة فى الاستعمال العام (٢) » .

فالدلالة تعتمد على الفرد أولا مرتبطا بوَسَطِه الاجتماعى والثقافى، ثم على المجتمع كله بعد ذلك الذى تتحرك الألفاظ فيه ، فهو وحده الحكم فى شيوع هذه الدلالة وإعطاء الألفاظ دلالتها الجديدة .

وتكمل هذه الفكرة بملاحظة فكرة ثالثة وهى التطور المستمر لكل مظاهر المجتمع – ومنها اللغة – وبناء على ذلك تتغير الدلالة الشائعة فى جيل معين وبيئة خاصة إلى دلالة أخرى إذا توفرت لها الظروف الفردية والاجتماعية السابقة «فالمجاز القديم مصيره إلى الحقيقة ، والحقيقة القديمة قد يكون مصيرها الزوال والاندثار ، وتبقى إذا قدر لها البقاء تنتقل من مجال إلى آخر جيلا بعد جيل ، وذلك هو التطور الدلالى (٣) » .

هذا هو فهم اللغوى الحديث لفكرة الحقيقة والمجاز ، وهو فهم يعتمد على طبيعة اللغة الاجتماعية ، وهو أيضا فهم متسامح لا تحكم فيه، يقف به الدارس وراء اللغة فى

---

(١) دلالة الألفاظ ص ١٢٥ .

(٢) دور الكلمة فى اللغة ص ١١٧ .

(٣) دلالة الألفاظ ص ١٢٧ .

عصورها المختلفة لدراستها وفهمها ، ولا يفرض عليها حسما لا تحتمله طبيعتها المتطورة بالاستعمال ، المتغيرة على مدى العصور .

ولا يمكن هنا - فى هذا البحث الصغير - العرض لكل دراسات اللغويين المحدثين عن «تطور الدلالة» - من عوامل تطورها ومظاهرها ، وكيفية تعدد المعنى ، والموازنة بين ذلك وبين دراسات الاقدمين من علماء اللغة والبلاغة ، ولكن حسبى فيما قدمت أنه إشارة إلى الموضع الصحيح الذى ينبغى أن تُدْرَس فيه فكرة الحقيقة والمجاز فى مستواها الدلالى، لتكون دراستها مجدية ومتطورة، وهو «علم الدلالة فى الدراسات اللغوية الحديثة».

ثالثاً علم المعانى ونظام التراكيب فى الدراسات اللغوية

لعل أول تساؤل يرد على الذهن هنا هو : لماذا سمى هذا العلم البلاغى باسم «المعاني» ؟ وما مدى انطباق بحوثه المختلفة على هذا الاسم ؟

وبتصفح مصادر هذا العلم القديمة وتوابعها وتأمل التعريفات التى وردتْ له نجد أن المعانى التى يهتم بها البلاغيون هى الظروف والملابسات التى تحيط بالمتكلم والسامع، حيث تستدعى هذه الظروف طريقة خاصة فى تأليف الجملة ونظام التركيب اللغوى ، وعلى سبيل المثال يذكر المسند إليه لمعان معينة ، كما يحذف لدواع أخرى ، ويُعَرَّف لظروف خاصة ، ويُنَكَّر لأخرى - وهكذا .

والحقيقة ان مادة الدراسة فى هذا العلم ليست هذه المعانى فقط ، بل إن مادته تشمل كذلك - ربما بدرجة أهم - كيفيات التراكيب وطريقة نظمها ، أو بعبارة أوضح : الصور المختلفة التى ترد عليها من توكيد ونفى واستفهام وقصر وفصل ووصل وغير ذلك، فبحوثه إذن موزعة بين هذين الأمرين ، كما جاء فى شروح التلخيص «إنه علم يعرف به المعانى التى يصاغ لها الكلام وهى المدلولات العقلية المسماة بخواص التركيب [١] » أو كما يقول ابن مالك «هو تتبع خواص تراكيب الكلام وقيود دلالته ليحترز بالوقوف عليه من الخطأ فى تطبيق الكلام [٢] »

---

(١) شروح التلخيص جـ ١ ص ١٥١ .

(٢) المصباح صـ ٣ .

وسأقدم هنا – باختصار – الرأى فى كلا الأمرين السابقين اللذين يقوم عليهما هذا العلم ، ليتضح فى ضوء هذا الرأى :

١- قيمة معانى البلاغيين التى جهدوا فيها فى خدمة النصوص الأدبية وتفسيرها

٢- تطور علم التراكيب أو تنظيم الكلام Syntax فى الدراسات اللغوية الحديثة بما يشمل – فيما نزعمه – معظم أبحاث المعانى البلاغية فى تأليف الكلام .

– إن الدراسة الأدبية تبحث عن عناصر الجمال الموجودة فى النص نفسه ، سواء فى جنسه الأدبى أو تجربته أو ما يثار حول التجربة من مشاعر ومعانٍ أو البناء الفنى وما فيه من إمكانيات للنمو بالعمل الأدبى أو تجمده ، والبحث فى ذلك يكون باستشفاف النص نفسه ، ومعايشته وجدانيا .

أمّا دراسة الظروف العامة والخاصة التى تحيط به ، فإنها تعتبر فقط عوامل مساعدة على الفهم والتفسير ، أو بعبارة أخرى : إنها من «العوامل ذات الصلة» .

لكن علم المعانى البلاغى دار كله حول هذه الظروف والملابسات ، والغريب حقا أنها لم تكن ظروفا فنية أو وجدانية ، حتى تقدم للأدب شيئا مفيدا ، بل وصفت فى شروح التلخيص «بأنها مدلولات عقلية» ووصفها ابن مالك «بأنها قيود الدلالات» فهى خاضعة إذن لجفاف العقل وسطوته ، لا لشفافية الوجدان وجماله ، وهى «قيود الدلالات» تمنعها من التفتح والايحاء والرفافة ، يقول الأستاذ ما سينيون فى بحثه بمجلة المجمع اللغوى : «فعلم المعانى الحق ليس المقصود به جلب القلوب بلطائف التعبير بل قبول العقول والأذهان للأفكار الصحيحة . وتصديقها بعد تصورها» .

والبحث فى الأفكار الصحيحة وتصديقها بعد تصورها من خلال الجمل إنما هو من عمل المنطق فى عنايته بالقضية المنطقية وتصورها، وقد كان له – كما سبق بيان ذلك – تأثير كبير فى البلاغيين ودراساتهم .

والإنسان يأخذه العجب حتى الدهشة حين يجد هذه المعاني البلاغية من السذاجة والتكرار وضعف الاستقراء للنصوص الصحيحة إلى الحد الذى تصطنع فيه كل من المعانى والشواهد اصطناعا .

فالمسند إليه يتقدم لأسباب معينة «كالتمكين فى ذهن السامع والتعجيل بالمسرة أو المساءة والتعظيم والتحقير والتبرك وغير ذلك» وتتكرر نفس هذه الأسباب فى تقديم المسند ، بل فى غيره من المواضع .

أما ضعف الاستقراء فيتضح فى افتراض تراكيب لم تحدث فى القرآن والنصوص الصحيحة ، كما فى بحث (تقدم الحال من المتعلقات) وبناء معان على هذه التراكيب المفترضة ، واختلاق أمثلة وشواهد لذلك ، وكذلك فى مبحث (الفصل والوصل) وغير ذلك .

والخلاصة أن هذه المعانى - بما هى عليه لدى البلاغيين - مدلولات عقلية فيها من السذاجة والتكرار وضعف الاستقراء ما يعزلها عن كل من دراسة اللغة والأدب على سواء.

- أما عن الفكرة الثانية فإن علم التراكيب syntax من أهم فروع الدراسات اللغوية الحديثة ، بل هو غاية الفروع الأخرى التى تسبقه فى تحليل النص اللغوى على مستوى الأصوات Phonetics والحروف Phonemes والصرف Morphology ويقابله في دراساتنا التقليدية الآن «علم النحو» .

وهذا الفرع من فروع الدراسات اللغوية مهمته البحث فى خواص التركيب وكلماته من كيفية تأليفها ومواقعها وموقف كل منها من الأخرى من حيث الموقع ، وعلاقة كل منها بالأخرى من حيث الوظيفة ، فيرى أولمان Ullmann أنّ دراسة وظائف الوحدات اللغوية يختص بكل منها علم من العلوم ، والذى يختص بدراسة وظائف التراكيب هو علم النحو، وهذه الوظائف تشمل دراسة التركيب من حيث تأليفه ، وعلاقة الكلمات بعضها بالبعض الآخر .

وإذا نحينا جانبا الفهم الشائع عن نحونا العربى من أنه لدراسة الإعراب وأواخر الكلمات فقط ، فإن هذا الفهم اللغوى الحديث يتفق إلى حد كبير مع واقع ما فى كتب النحو ، ومع الفهم الذى فهمه به كثير من علمائنا الأقدمين .

فمثلا إذا تصفحنا بابا مثل باب المبتدأ أو الخبر نجد أبحاثه الرئيسية تدور حول التطابق بين المبتدأ والخبر من حيث الجنس والعدد، وموضع كل منهما من حيث التقديم والتأخير ووجودهما فى الكلام أو أحدهما ، وتعدد الأخبار .

فمعظم هذه الأبحاث إنما هى فى التركيب اللغوى وأسراره وتكوينه.

وقد فهم كثير من أئمة النحاة القدماء مهمة النحو العربى بهذا المعنى، وعبدالقادر الجرجانى أشهر من أن يذكر بذلك، وقبله أبو عبيدة معمر بن المثنى فى كتابه «مجاز القرآن» ويقول أبو سعيد السيرافى : معانى النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته، وبين وضع الحروف فى مواضعها المقتضية لها، وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير وغيرهما .

– فالنحو فى رأيه يبحث فى الحركات والسكنات والحروف وكيفية تأليف الكلام فمهمته لاتقتصر فقط على ضبط أواخر الكلمات [١] .

بهذا الفهم الموجز المركز لعلم التراكيب فى الدراسات اللغوية ، ومدى اتفاقه مع ما لدينا من تراثنا ، لعلى لا أتجاوز الحقيقة إذ أشير بضم دراسات علم المعانى فيما يختص بنظام الجمل والتراكيب إلى الدراسات اللغوية ، وهى دراسة متطورة نامية يمكن أن تفيد منها أبحاث البلاغيين .

---

(١) الإمتاع والمؤانسة جـ ١ ص ١٢٨ .

المراجع حسب ورودها في البحث

١- قضايا الشعر المعاصر — نازك الملائكة

٢- مقدمة ابن خلدون

٣- شروح التلخيص

٤- المصباح — ابن مالك

٥- الأسلوب — احمد الشايب

٦- بلاغة أرسطو بين العرب واليونان — دكتور ابراهيم سلامة .

٧- النقد الأدبي الحديث — دكتور محمد غنيمي هلال

٨- المزهر في علوم اللغة وأنواعها — السيوطي

٩- دلالة الألفاظ — دكتور ابراهيم انيس

١٠- دور الكلمة في اللغة (أولمان) — دكتور كمال بشر

١١- الإمتاع والمؤانسة — أبو حيان التوحيدي .

القصة التربوية بين الفن والغاية

يتناول الدارسون والنقاد بالدراسة والتحليل أنواع الفنون الأدبية المختلفة من شعر أو مقالة أو خطابة أو قصة . ولكنهم إذا تحدثوا عن القصة قصروا اهتمامهم فى الغالب على القصة فى مجالها الفنى الرفيع ، أو بتعبير آخر : على القصة كما يكتبها الموهوبون فى هذا الفن . وكما يتذوقها دارسو الأدب الذين أوتوا نصيبا عظيما أو ضئيلا من الوعى والتذوق ، وقلما يشير الدارسون إلى نوع آخر من القصص له من الخطورة وعظيم الأثر ما هو بهما خليق باهتمام الدارسين والمنتجين والمربين وهو «القصص التربوى» فهذا النوع من القصص ذو أثر متميّز فى تكوين الجيل الناشىء من أبناء الوطن العربى ، سواء فى ذلك موضوعاته ، ومالها من صلة بالقضايا الإنسانية أو القومية ، أو غاياته ومراميه ، وما تغرسه فى النشء من معانى الخير والجمال أو الأسلوب الذى تؤدى به وماله من صلة فى تكوين اللسان القومى الذى هو وعاء الثقافة العربية ، ووسيلة الصلة الشعورية بين أبناء الوطن العربى .

من حق هذا الموضوع إذن أن ينال نصيبه من العناية ، فالتخصص فيه لايقل بحال عن التخصص فى أدب الكبار إنتاجا ودراسة ، فقد بقيت المدارس عندنا وقتا طويلا تهتم بكتب القراءة التى تعالج موضوعات فكرية مجردة ، ومن واجب المدرسة الحديثة أن تفسح صدرها ووقتها لتجد القصة التربوية طريقها إلى عقول التلاميذ وألسنتهم ، يقول بتزنر : «فقد جاء العصر الحاضر باتجاه جديد : إذ نرى جميع المنظمات التى تعتنى بالتلاميذ .. لابد أن تعرض الأدب فى صورة من صوره فى الساعات المخصصة لإلقاء القصص [1] ، ولكن أقرر بأسف أن هذا الفن الأدبى عندنا

---

(١) الطفل ودراسة الأدب ص ٢١

لايزال متخلفا إلى حد كبير ، فهو مهمل فى قاعات الدرس كما هو مهمل فى المكتبات العامة والخاصة ، وهو مهمل من القصاصين نتيجة إهمال الدارسين والنقاد الإشادة به والدعوة إليه .

وفى هذا المقال محاولة مجتهدة أرسم بها خطوطا عامة عن هذا الفن الأدبى - من القصة التربوية - فى أهدافها - أدبية أو قومية - وموضوعاتها وإطارها الفنى - ولغتها - وأخيرا أقدم نموذجا لقصة تربوية اتخذت منها ومن مثيلاتها تجربة أمدتنى بأفكار هذا المقال .

* * *

من الأهداف المهمة للقصة التربوية بث المثل العليا والروح النظيفة فى الجيل الجديد لتحقق من ذلك روح المقاومة لما يطلق عليه «اللا أخلاقية فى الأدب» فقد شاع فى حياتنا الأدبية - وبخاصة عن طريق القصة - ألوان رخيصة من الأدب السوقى المبتذل - أدب الجنس والجريمة والشذوذ - وقد كانت هذه الألوان الرخيصة أحد العوامل المسؤولة عن إشاعة التخنث والطراوة فى وقت ما بين أبنائنا وبناتنا ، ومقاومة هذا لايمكن أن تتحقق بالإرشاد وإلقاء المواعظ ، وإنما تتحقق مقاومته بتيار مضاد يشع منه الجمال والخير ، ويرسم المثل الطيبة أمام الجيل الجديد ، لأن مقاومة التيارات المدمرة لاتتحقق بالنهى عنها ، الصراخ فى وجهها بالبعد عنها ، وإنما يكون ذلك عن طريق مثل إيجابية أخرى تحملها القصة التربوية ، وتوحى بالفضيلة والنظافة ، مثل الثقة بالنفس وتحمل المسئولية ، وتقدير الواجب ، والتضحية فى سبيل الخير وفى سبيل الحق ، والإخلاص للمبدأ والعقيدة، والأنفه للكرامة الإنسانية ، وفهم الجوانب المضيئة من حياتنا الإنسانية والقومية . «وما لم يرسم المجتمع مثله العليا مثلا دافعة ، باعثة على العمل ، حاضة على الخير ، هادفة لخير المجموع ، فلا يعقل أن يقوم مجتمع صالح يؤدى رسالة ، وينشيء حضارة [1] » ، ولا شك أن القصة التربوية تدخل هنا من أوسع الأبواب ، لأنها بما تحمله

---

(١) معالم الحياة العربية الجديدة ص ٢٥٨ .

من مضمون بناء هادف قادرة على التأثير النظيف فى نفوس النشء» يقول أحد المربين : «إنّ ما يشعر به القراء من المتعة واللذة اثناء المطالعة فى الكتب الجيدة لمن خير ما يعالج به ما فى الذوق السقيم من ميل نحو الكتب الرديئة ، وإذا أمكن أن نبدأ بتربية الناشئين بأن نغرس فيهم عادة الاستمتاع بالأدب الراقى ، ضعفت جاذبية الأدب الرخيص لديهم [١] . والقصة بما تحويه من حركة وصور ومناظر وشخصيات ، كل ذلك ينتج عنه إحساس بالمتعة يصعب على القراء من التلاميذ أن يقاوموا الإغراء الناشىء عنه ، بل يصعب عليهم أن ينسوا مضمونها المثالى الذى لايقدم لهم عن طريق وعظى مباشر ، وإنما عن طريق عمل أدبى ممتع .

والقصة التربوية بما فيها من عنصر التشويق ، ورحيق المتعة تدفع الناشيء دفعا للقراءة ، وإجادة القراءة أمر هام يسعى إليه المربون ، فالشخص القارىء شخص متجدد، يتمتع طول حياته بما يكتشفه من عقول الآخرين وأفكارهم ، وهو بتجدده واطلاعه يضم بين قلبه ووجدانه حياته وحياة وطنه ، وبذلك يتحمل مسؤوليته القومية فى وعى وفهم ، وربما كان له من قراءته - فوق متعته - ما يكون به قائدا لتوجيه الوعى فى أمته ، يقول أحد المربين إذ اكتشف لأول مرة متعته بالقراءة : «قد يكون هذا أخطر حادث فى حياتى كلها ، ولو أخبرتك بالأثر العميق الذى تركه هذا الأمر فىّ لبدت كلماتى مضطربة من شدة التأثر ، أو بالأحرى محمومة ، كان تأثير هذا الحادث على نفسى هائلا ، فقد أدركت أنى اقتحمت عالما هائلا ، كله عجائب ومدهشات [٢]

فالقراءة فن ، فليس المهم أن تقرأ فقط ، وإنما المهم أن تقرأ برغبة، وتفهم بدقة ، وتتذوق بمتعة ، تلك هى القراءة !! وهى بهذه الصفة تحتاج إلى مجهود ومعاناة واستمرار، ولعل هذا ما دفع (جوته) إلى قولته المشهورة : إن هؤلاء الناس الأعزاء لايدركون طول الوقت الذى يتطلبه تعلم القراءة ، لقد قضيت ثمانين عاما أحاول تعلمها ، ولا أستطيع أن أزعم أنى قد وصلت إلى غرضى [٣] . فالقراءة بالصفات التى ذكرناها عمل صعب يعاون

---

(١) اللغة والفكر عند الطفل ص ٤٦ .

(٢) الطفل والقراءة الجيدة ص ١٦ - ١٧

(٣) الطفل ودراسة الأدب صـ ٨٢ .

الناشئين فى التغلب على صعوباته القصص التربوية الشائعة ، لأنها بما تثيره من رغبة فى تتبع أحداثها ، ومجهود لفهم موضوعاتها، ومتعة فى فن عرضها تحقق العناصر الضرورية لتحقيق القراءة المفيدة التى يتعاون على إيجادها كل من عنصرى : التربية والأدب الموجهين فى القصة .

* * *

وعنصر التشويق فى القصة التربوية ، وما له من أثر فى تربية الأفكار النظيفة وقوة الدفع الذاتى للقراءة المفيدة – هذا العنصر ينبغى أن يراعى أيضا فى موضوع القصة الذى يختاره كاتبها ، وماله من علاقة باهتماماته حسب سنى عمره المختلفة – وهى نقطة يفيض فى شرحها علماء النفس والتربية – ولكنا فقط نذكر أن موضوع القصة التربوية ينبغى أن يساعد الناشىء بصورة عامة على فهم نفسه وفهم الآخرين ، وفهم الحياة من حوله .

فمثلا مرحلة الصبا مرحلة يتوق فيها الناشىء إلى فهم الواقع والحقيقة . ويفر فيها من الأفكار المجردة ، وعلى ذلك فاختيار الموضوع ينبغى أن يكون من هذا اللون الذى يثير اهتمام تلك المرحلة .

ومرحلة المراهقة مثلا هى مرحلة المعاناة والشك والقلق ، ولذلك ينبغى أن يكون موضوع القصة متفقا أيضا مع السمات النفسية لأبناء هذه المرحلة ، على معنى أن يعيش مع شخصياتها إحساسا فنيا يتفق مع واقعه النفسى ، بحيث يدعوه ذلك إلى فهم شخصيات القصة ، والاندفاع لملاحقتهم خلال الأحداث ، كما يدعوه فى الوقت نفسه – بطريق غير مباشر – إلى فهم نفسه وفهم الآخرين من حوله .

والخلاصة أن التخطيط المرحلى لموضوعات القصة مما يدخل فى اختصاص علم النفس والتربية ، والذى ندعو إليه فى هذا المقال أن يتناول القاصّ هذه المراحل النفسية ليجسدها فى قصص تربوية توسع فهم الناشىء لنفسه ومن حوله وما حوله من ظروف واقعية واجتماعية وقومية .

* * *

أما الأسس الفنية التى ينبغى أن تتحقق فى إطارها القصة التربوية فهى بصورة عامة نفس الأسس الضرورية لكل عمل قصصى ناجح ، بحيث تحتوى القصة على موقف شعورى موحد ، وان تتلاحكم الاحداث داخل هذا الموقف لتؤدى إلى أزمة القصة وتحقق هدفها ، وبعبارة أخرى : أن يكون نمو الموقف الشعورى فى القصة من خلال الأحداث ، وأن تتحرك الشخصيات وتتحاور من خلال الموقف والأحداث دون أن يفرضا عليها من الخارج ، وإلا أصبحت القصة سردا إخباريا غثاً لاقيمة له ، وبدا فيها الافتعال والتزييف وخلت من التشويق والإثارة .

على أنه لابد أن يراعى مع التزام هذه الأسس الفنية العامة أن تكون القصة التربوية فى مستوى الناشىء الشعورى ، وأن يستطيع ملاحقة الأحداث وفهم الموقف وهو عمل يحتاج إلى قدرة فائقة فى القاصِّ المربى ، بحيث يطبق الأسس الفنية تماما ، وان تكون فى نفس الوقت فى مستوى الصغار وإدراكهم .

* * *

والنقطة الأخيرة من هذه الخطوط العامة للقصة التربوية هى أسلوبها ولغتها . وأقرر أولا رأى علماء اللغة المحدثين فى معرفة اللغة ، إذ يرون أن اللغة من الأمور المكتسبة فليست عملا غريزيًا كالأكل والمشى، كما أنها ليست هبة ربانية وهبها الله حسب الجنس والدم ، ولكن الإنسان يكتسب اللغة بالتعلم والسماع من حوله ، وقد أصبح من المبادىء المشهورة فى الدراسات اللغوية الحديثة (إ اللغة ملك من يتعملها ، لا أثر للوراثة أو الجنس فيها [1]) ويضاف إلى ذلك ان اكتساب اللغة يستمر طول حياة الإنسان ، فهو لايزال يضيف إلى لغته ويعدل فيها دائما ، فهو فى وضع التقبل المستمر حتى بعد قدرته على التفاهم أو الإجادة ،ففى كل دور من أدوار حياته وفى كل تجربة من التجارب الهامة التى يخضع لها يسمع مالم يكن قد سمع ، ولسنا فى حاجة إلى أن نذكر انه فى كل حالة من الأحوال لايسمع مفردات جديدة فحسب ، ولكنه يسمع كذلك تعبيرات جديدة

---

(١) من أسرار اللغة ص ١٩

وطرائق من الكلام حديثة [١] » وهو بهذا السماع للصيغ والتراكيب يمكنه أن يتفاهم ويتعامل ، ويمكنه بعد مرونة كافية أن يقيس مالم يسمع على ماسمع ، وهو فى هذا يلجأ إلى مايسمى فى الدراسات الحديثة «بالصوغ القياسى» .حيث تتخذ الصيغ والتراكيب أنظمة تصبح جزءا من كيانه ، فيقيس مالم يسمع على ما اختزنه لديه – دون شعور – من صيغ وتراكيب [٢] .

والخلاصة أن الإنسان يكتسب اللغة من تجاربه وسماعه ، ومن هذه الزاوية تنظر إلى لغة القصة التربوية التى نحن بصدد الحديث عنها .

لنتذكر أن هذا النوع من القصص هدفه التعليم ، ومن أهدافه تعليم اللغة ألفاظا وتراكيب وتعبيرات ، وتعليم الصحة اللغوية فى النطق ، وعلى ذلك فينبغى أن تكون ألفاظ هذا النوع من القصص سهلة تعبر عن الحقيقة أو الصور المحسوسة ، قوية ذات تأثير أخاذ ، شفافة تعكس المعنى فى وضوح لا غموض فيه ولا تعميم ، وإن تنسج أساليبها عوالم ذات سحر لايقاوم ، وإن يراعى فى ألفاظها الصحة اللغوية ، وفى تراكيبها الصحة النحوية ، فإن المتعة والاهتمام اللذين يتناول بهما الناشىء القصة تجعله فى حالة تقبل عظيم لما يقرؤه من ألفاظ وأساليب ، بل لقد وصل الأمر فى بعض التجارب التى أجريتها إلى أن بعض الطلاب كانوا يحفظون بعض فقرات القصة عن ظهر قلب . وهذه الخاصية للتقبل والاكتساب تضيف مسؤولية أخرى إلى عمل كاتب القصة التربوية . .

ليس معنى ما ذكرت أن هذه السمات حتمية فى كل مراحل تعلم اللغة عن طريق القصة، فإن ذلك يختلف باختلاف مستوى من تقدم إليهم القصص من الناشئين – وهذا ما يفيض فيه علماء النفس والتربية – ولكنى أضع هنا أسسا عامة لما ينبغى أن تكون عليه لغة القصة التربوية ، «لأن هناك فرقا بين ما يستمتع به الناشئون بطلاقة ، وما يعتقد الكبار أنه يجب أن يستمتعوا به ، وهو فارق يقتضى منا دائما درسا وعناية [٣]» وهذا الدرس وتلك العناية يضيفان مسؤوليات جديدة لكاتبى هذا النوع من القصص .

---

(١) اللغة والمجتمع ص ٣٣ .

(٢) انظر : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ١٩ .

(٣) الطفل ودراسة الأدب ص ٩٩ .

* * *

أقدم هنا نموذجا لقصة تربوية . وهى قصة من مجموعة قدمتها فى بطاقات دراسية فى مدرسة اعدادية تجريبية بالقاهرة [١] سنة ١٩٦٠ ، وقد قمت بتدريس كل فروع اللغة العربية عن طريق هذه القصص ، ولمست مدى أهمية هذا اللون من الأدب فى تكوين الناشئين فكريا وذوقيا ولغويا ، وأكرر ما سبق من أن هذه التجربة فى القصة التربوية قد أوحت إلى ببعض الخطوط العامة لاجتهادى فى هذا المقال . والقصة هى :

{{ وديعة الله }}

– من المتحدث ؟ من على الطرف الآخر من الخط ؟

– أنا ... أنا ياشكوت ... تحدث ... مالك مضطربا هكذا ؟ وما الأخبار ؟

– ما تظن ؟ لقد ظهرت النتيجة اليوم ؟ وشاهدتها بنفسى .

– بالله تحدث يا شوكت ، ولا تحطم أعصابى ! ماذا شاهدت ؟ قل .. إنّى مُصْغٍ إليك .

– لاتضطرب ياصديقى ، اطمئن .. إنك لم تنجح .. فقط ، بل نجحت بتفوق عظيم .. فمبروك ، ألف مبروك .

كان الوقت ليلا ، والسكون يملأ الغرفة التى جلس فى أحد أركانها شاب وسيم على مكتبه ، فى وجهه صفاء ورزانة ، وأمامه بضعة كتب مرصوصة ، وفوق رأسه مصباح صغير ، وساعة حائط أنيقة ، وقد تناثرت على المكتب أوراق ومذكرات ، وفى أحد أركان الحجرة بناء عظْمىّ لإنسان وبعض الحيوانات المحنطة .

وحين انتهى هذا الشاب من محادثة صديقه شوكت ، وضع السماعة ، وتهلل وجهه فرحا ، وانطلق صوت الخادمة فى الردهة يعلن النبأ السعيد ، ومن الحجرة المقابلة ناداه

---

(١) مدرسة النقراشى النموذجية الاعدادية .

صوت خافت .. فريد .. دكتور فريد .. تعال .. تعال هنا لأهنئك .

ونهض الشاب من مكانه ، وقطع الردهة بخطوات سريعة ، ودخل حجرة جده ، ومال على جسده الهامد فاحتضنه ، وحينئذ طبع قبلتين عميقتين على جبين حفيده وهو يقول : هذه قبلتى وتلك قبلة أبيك ، إنه لسعيد فى قبره الآن إذ نلت إجازة الطب ، كانت أمنيته أن يعيش ويراك فى هذه الساعة ، ولكن القدر لم يُبْقِهِ .. فذهب .. وليرحمه الله .

واغرورقت عينا الشيخ بالدموع ، واختلط حديثه وهو يقول : نعم لقد حان الوقت وحل الميعاد كى أسلمك الوديعة ، وأقصّ عليك الخبر .

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يتحدث فيها جد فريد عن هذه الأمور ، لقد سمعه كثيرا - وبخاصة فى الأوقات التى كان المرض يهجم عليه فيها بقوة - يتحدث عن الوديعة ... والناس ... والموت ... وإجازة الطب ، وساءل (فريد) نفسه - وجده يعتدل فوق فراشه استعدادا للحديث - ترى ماذا وراء هذا الكهل الوقور ؟ وما هى تلك الأمانة التى سأحملها عنه ، والسر الذى سيفضى إلىّ به ؟ لكم هو مشوق لمعرفة كل شىء الآن.

قال الجد : منذ زمان هبط تاجر شاب إلى هذا الحى الفقير الذى تسكن فيه فى القاهرة ، وافتتح محلا صغيرا لبيع المنسوجات ، وشهد الناس قصة كفاح مجيدة لهذا التاجر الشاب ، وقد اجتهد من ناحيته أن يكسب حب الناس واحترامهم وصداقتهم ، فاشتهر بينهم بالصدق والأمانة والشرف ، فأقبلوا على محله يتعاملون معه ويشترون منه.

وابتسمت له الحياة ، وأسعده الحظ . وبعد أعوام أصبح من كبار التجار ، وتجاوزت شهرته هذا الحى إلى كثير من الأحياء الأخرى، فكثرت بضاعته ، وراجت تجارته، بفضل هؤلاء الناس الطيبين الذين حملوا أخبار أمانته وشرفه إلى كل مكان ذهبوا إليه ، وتحدثوا عنه فى كل منتدى جلسوا فيه ، فقد امتلأت عيناى بدموع الفرح حين سمعت بعضهم يوما يتحدثون عن أبيك «الحاج عبدالرحمن» فيقول :

- إن الحاج عبدالرحمن التاجر رجل فاضل ، إنه يشكر الله فى أمواله ، وكلما زاده من نعمته ازداد إحسانا وأمانة .

- صدق الله العظيم .. لئن شكرتم لأزيدنكم .

– إنه يعاون المحتاجين فى الحىّ ، ويفتح محلات صغيرة لبعض الناس ، وييسّر العمل لكثير منهم كى يكسبوا رزقهم ...

– ياله من رجل ذى مروءة . هكذا يكون الرجال . اللهم زده من نعمتك ، وأكثر من أمثاله .

وقد زاده الله من نعمته أكثر وأكثر ، فنال أعظم ما يتمناه تاجر ناجح : الثراء .. وثقة الناس . وإنقاد له كل شيء ، وأحبه كل شيء ... المال ... والناس ... والعمل ، ولكن والدك لم يكن سعيدا على الرغم من ذلك ... كان له عدو عنيد أجهده وقهره ، وصرعه فى النهاية . كانت بينهما وقائع دامية خرج منها والدك دائما كسير القلب .

– ومن هذا العدو ياجدى ؟ إن والدى لم يحدثنى عنه أبدا .

– إنه عدو جبار لايرحم ، وإنك ستقف حياتك كلها فى ميدان واحد معه ، كانت هذه أمنية أبيك ، وقد تحققت .

– إنى مندهش مما تقول ، لطالما حدثتنى وأنا صغير عن أساطير الجان ، وكنوز سليمان ، ولكن ما تقوله الآن أعجب من كل ما سمعت .

– لا تتعجل وعما قليل ستفهم كل شيء .

– حين كنت طفلا صغيرا ألا تذكر أن كان لك أخت فى ذلك الوقت ؟

– نعم أذكر .. أختى سميرة ، ثم قال فريد كأنما يناجى نفسه : لقد كانت ناضرة كالزهرة المتفتحة .

– لقد دخل أبوك البيت ذات ليلة فوجدها شاحبة الوجه ترتعش ، كانت محمومة وحين حملها بين يديه تعلقت برقبته ، ثم قالت له بصوت متحشرج :

– لماذا لم تحضر لى لعبة كما تعودت يا أبى ؟؟ ألن ألعب غدا ؟

– كلا يابنيتى ، ستلعبين وتمرحين ، ولكن عليك أن تنامى الآن .

– سأنام .. ولكن بعد أن تقص على قصة ... «ست الحسن والجمال»

وقصها عليها والدك ، حتى هدأت ، ونامت ، نامت إلى الأبد ، ولم تلعب فى الغد ولا بعد الغد .

ويومها رأيت والدك يجرى نحوك ، ثم يأخذك فى أحضانه ، وينظر إليك نظرة طويلة لم أفهم معناها إلا بعد ذلك عندما قال لى: أدع الله يا أبى أن يوفق «فريد» ويدخل كلية الطب . ولقد رأيته يأخذك فى أحضانه مرة أخرى ، وينظر لك نفس النظرة الطويلة ويتحدث إلىّ بنفس الحديث : ويطلب منى الدعاء لك عندما اجتاح وباء «الكوليرا» مصر سنة ١٩٤٦ ، وتخطف أصدقاءه فى الحى واحدا بعد الآخر . وقد كنت فتى يتفتح صباك للسنوات النهائية فى المرحلة الثانوية ، هل فهمت الآن ؟ أعرفت عدوك الذى لايرحم ؟

وكاد الدكتور فريد يصرخ ، فقد بدأ يعرف ... غير أن الجد ناوله مفتاحا صغيرا ، وطلب منه أن يفتح به الخزانة الحديدية ويتناول منها وديعة والده التى أوصى بأن تقدم له يوم نجاحه الأخير ، ومنها سيعرف كل شىء ، وقد فتح الصندوق فى لهفة ، وتناول الهدية، لوحتان رائعتان مغلفتان بالحرير .. فجأة تقلصت عضلات وجهه وهو يحدق بقوة فى إحداهما ... كانت صورة لأبيه وهو على فراش مرضه الأخير بوجهه الشاحب ، وابتسامته الهادئة ، ونظراته الحازمة الصارمة ، وقد كتب تحت الصورة بخط يده «هديتى اليك – يافريد – يوم تصبح طبيبا ، علق هذه الصورة أمام عينيك دائما لتتذكر بها هذا العدو القاهر ... المرض .. لقد صرعنى كما صرع أختك من قبل ، وله ضحايا كثيرون بين مواطنيك الطيبين الذين أحببتهم دائما ، وقدمت لهم معونتى وأموالى ، ثم وجهتك أنت لكلية الطب من أجلهم أيضا ، فاجتهد – يابنى – أن تحقق أملى فيك ووديعة الله عندك بأن تكون خبرتك وعلمك من أجل الناس .. مواطنيك الطيبين» .

ورفع بيده صورة أبيه لينظر اللوحة الأخرى ، إنها هدية من أحد أصدقاء الأسرة الرسامين ، وعاد إليه صفاؤه وهو يتأمل فيها صورة أبيه الذى احتضنه فى حنان وهو صغير ، وتتابعت عليه أحداث حياته دفعة واحدة . واستغرقته نوبة حادة من التأثر ... ثم احتضن اللوحتين ، واستدار ليخرج ، فتلاقت ابتسامته مع ابتسامة جده بعد أن عرف كل شىء .

وحين جلس فى حجرة مكتبه فى الصباح كان معلقا أمامه على الحائط لوحتان

فيهما حياته كلها ، إحداهما تسجل ماضيه ، والأخرى ترسم مستقبله ، وتوافد عليه المهنئون : الخدم – والبواب .. وبائع الصحف .. والأقارب ... وزملاؤه .. وسكان العمارة .. وأهل الحى ... وأصدقاء والده من التجار والأعيان ، وحينما كان يمد يده ليصافح أحدهم شاكرا كان يخيل إليه أن أباه يصافحه أيضا ويهتف به ، هؤلاء هم الناس الطيبون الذين أعنيهم ... وتدور عيناه بسرعة فى اللوحتين أمامه وتتسمران عند عبارة أبيه «حقق – يابنى – أملى فيك وديعة الله عندك ، بأن تكون خبرتك وعلمك من أجل الناس .. من أجل الآخرين .

* * *

هذه قصة تربوية من النوع القصير ، وقد ألفتها لطلبة متقدمين فى أعمارهم نوعا ولذلك كان موضوعها الذى جسدته فكرة إنسانية راقية . وهى الاجابة عن سؤال : كيف تتحقق قيمة العلم والثقافة ؟ كما ان هدفها يرتبط بنفس الموضوع ، وقد قدمت القصة موضوعها وهدفها من خلال الأحداث والأشخاص دون صراخ أو وعظ مباشر ، وقد راعيت فى لغتها وعباراتها ماقدمته من سمات .

وبعد :

فلعل مقالى هذا يكون بداية لدراسات أعمق منه فى هذا الموضوع من المتخصصين فيه ، توجه الأدباء والكتاب إلى قيمة هذا الفن الأدبى فى صنع الجيل الجديد فكريا ولغويا ، وهما أحق ما ننميه من حياتنا القومية . ...

المراجع التى ورد ذكرها فى هذا الموضوع

١- الطفل ودراسة الأدب ، تأليف : بتزنر ، ترجمة : دكتور ماهر كامل .

٢- معالم الحياة العربية الجديدة : دكتور منيف الرزاز .

٣- اللغة والفكر عند الطفل ، تأليف : جان بياجيه ، ترجمة : أحمد عزت راجح

٤- الطفل والقراءة الجيدة ، تأليف : بول ويتى ، ترجمة : سامى ناشد .

٥- من أسرار اللغة : دكتور ابراهيم أنيس .

٦- اللغة والمجتمع «رأى ومنهج» : دكتور محمود السعران

٧- اللغة بين الفرد والمجتمع ، تأليف : اوتو جسبرسن ، ترجمة : دكتور عبدالرحمن أيوب .

* * * * *

من دواوين الشعر الحر

* * *

ديوان (حديقة الشتاء) لمحمد ابوسنة

هذا هو الديوان الثانى للشاعر «محمد أبو سنة» بعد ديوانه الأول «قلبى وغازلة الثوب الأزرق» وبين صدور الديوانين مدى زمنى قصير ، ولهذا دلالته بالنسبة للشاعر وشعره ، إذ يواصل الشاعر دوره الواعد ليحتل مكانه بين شعراء جيله الشباب وليؤكد معهم – وفى طليعتهم – حركة الشعر الجديد بعد أن راد طريقه شعراء الجيل الذى سبقه، فتحملوا مسئولية الدهشة والانزعاج والمعارضة التى تلقى بها المثقفون العرب والشعراء التقليديون – بصفة خاصة – الحركة الشعرية الجديدة التى ما زالت فى حاجة حقيقية للإنتاج الأصيل الخصب كديوان «حديقة الشتاء» وإلى الامكانيات المتفتحة الجديدة التى تتأهب وتنطلق وتواصل الإبداع مثل : «محمد أبو سنة» .

ولست أنوى فى هذه الدراسة أن أقدم موازنة بين مرحلتين أو بين ديوانين للشاعر فإن ذلك فى حاجة إلى جهد مستقل لم يحن أوانه بعد ، إذ يقصد به تحديد مراحل تطور الشاعر وفنه ، ومن السابق لأوانه بالنسبة لشاعرنا أن يتحمل الآن هذه الموازنة ، فهو فى بداية رحلته الفنية الغنية تهديه موهبته وثقافته إلى ما يقول ، ومن الظلم أن يقال له الآن (لقد قلت من قبل ولم تقل من بعد) أو العكس ، فما زالت (بعد) بالنسبة له طليقة مملوءة بالضوء ... والآمال ... والوعود .

إنما الذى أنوى أن أقدمه هو حصيلة قراءة يقظة متأنية للديوان ، ثم معاودة القراءة أيضا بنفس اليقظة والتأنى ، مع تنحية الأفكار المسبقة والنظريات والمذاهب التى تلوّن هذه القراءة فتوجهها أحيانا إلى غير ما قصده الشاعر ، حتى أتيح لى أن أتودد إلى شعر الشاعر وان أخالطه ثم أعايشه وأتعرف عليه ، ثم تحدثت عما عرفت فى هذه المقال.

وتتناول هذه الدراسة أمورا أربعة هى على التوالى دور العبارات الجاهزة - الحكم والأمثال - فى الديوان - ومظاهر الانطواء واليأس والخوف فى بعض القصائد - ثم قضايا الشعب وبخاصة حريته الفردية والاجتماعية التى عبرت عنها أورع قصائد الديوان - ، وأخيرا لغة الديوان وأسلوبه ووزنه العروضى .

* * *

هناك بعض التجارب التى يتشابه فى ممارستها الناس والأشياء ، فإذا قدر لأحد الواعين أن يلاحظ تلك المشابهة صاغها فى عبارة واحدة تستخدم كلما جدت ظروف مشابهة حيث تشيع بين الناس فيتناقلونها معجبين بها محتفين ، وربما نُسِيَت ظروفها ومن قالها، وربما لاتنطبق بطريقة حاسمة على كل شيء مشابه ، لكنها مع ذلك تبقى شائعة بين الناس تتناقلها الألسنة ، وتستخدم فى كثير من المواقف والظروف ، وقد أطلق على هذه العبارات فى تراثنا القديم اسم «الحِكَم» وما يزال بعض الأدباء فى عصرنا يؤلف ما يقرب من الأمثال والحكم ليذيل بذلك فكرة قصيرة أو مقالا صحفيا ومن ذلك ما جمعه أخيرا الأستاذ «أنيس منصور» فى كتاب بعنوان «قالوا» ، وهذا ما اخترت له فى الحديث هنا اسم (العبارات الجاهزة) .

وفى «حديقة الشتاء» تتناثر العبارات التى تعبر عنها أحيانا مقاطع كاملة تكون هى الهدف من القصيدة كلها ، وقد يُصَرَّح بتلك العبارات بألفاظها وقد لايصرح بها ولكن لايخطئها التأمل اليسير لبعض القصائد ، فلنقدم أولا نماذج لتلك الطريقة فى الديوان ليستبين لنا الرأى فيها بعد ذلك .

فى قصيدة (آخر أزهار الموسم ص ١١) لقاء حدث مصادفة بين اثنين كان لهما وُدّ قديم ، حيث دارت بينهما أحاديث الوُدّ الأولى ، وفاضت بهما اللهفة والأحلام، لكن ذلك كله فشل فى ابتعاث حرارة العاطفة المبتردة ، حيث غمرها شبح الهجر الأسود والشتاء المظلم ، يقول :

وتوقفنا

كنا مشدودين إلى ظلينا

تعجز فينا الرغبة والأشواق

لايخطو الواحد نحو الآخر

كل يعشق نفسه

لايهب أخاه

أكثر مما يعطيه

فالقصيدة كلها تهدف إلى هذا المقطع بالذات ، ومضمون هذا المقطع أن الود الصادق تدمره (الأنانية والحرص) فكل يعشق نفسه ولا يعطى إلا مقدار ما يأخذ ، وهذا المعنى تلخصه العبارة الشائعة التى تقول (الأنانى من يحب نفسه ، ولا يعطى إلا قدر ما يأخذ) .

وقريب من ذلك ما جاء فى قصيدة أخرى بعنوان (غزاة مدينتنا ص ٢٨) حيث جاء فيها نصا عبارة أخرى شائعة عن الأنانية هى (أنا ومِنْ بَعْدِيَ الطوفان) وهى عبارة مشهورة استخدمت فى القصيدة للدلالة على أحد أسباب التخاذل والفشل الذى يؤدى بالشعب إلى الضعف والخضوع للغزاة – يقول :

حين أجبنا الغرقى بالضحكات

حين جلسنا نصخب فى أعراس الجن

حين أجاب الواحد منا

مادمت بخير

فليُغْرِقْ هذا العالَمَ طوفان

فالبيتان الأخيران هما نفس العبارة المشهورة التى تدل على الأنانية والحرص

على المصلحة الشخصية لولا ضرورة الوزن التى ألجأت الشاعر إلى زيادة بعض الكلمات أو تغييرها ، والأبيات قبلها تحتوى على نفس المعنى ، والمقطع كله هو هدف القصيدة كلها التى أظن - إن لم يجانبنى الصواب - أن الشاعر قالها بعد أن تعشق تلك العبارة ومعناها .

فى قصيدة (حتى يطلع قمر الحب ص ١٤) قدم لها بعبارة «بيرون» (إن هذا العالم شيء تافه إن اكتُسِبَ أو فُقِد) ثم جاءت القصيدة كلها تحت عناوين ثلاثة هى على التوالى (موسيقى الأشياء - الحكمة المنهزمة - ليس صحيحا يابيرون) وقد جاءت القصيدة كلها لتعبر عن عبارات ثلاث شائعة ، أظن أنها - أو قريبا منها - جالت فى نفس الشاعر قبل أن ينظم قصيدته .

يقول فى نهاية المقطع الأول :

فى جوف الأشياء

موسيقى لاتدركها إلا الروح

وهذا معنى العبارة المشهورة (الأشياء بما نحسه نحوها لا بما نراه فيها) .

ويقول فى نهاية المقطع الثانى :

والعالم لا يحفل أبدا بالحكمة

القوة تحكم هذا العالم

وهذا المعنى نتيجة التأمل فى العبارة المشهورة (الحق فوق القوة) ثم معارضتها بعكسها .

ويقول فى نهاية المقطع الأخير :

لكن ليس صحيحا يابيرون

أن العالم شيء تافه

وبه هذا الألم الفادح

فقد عارض كلام «بيرون» بمعنى عبارة أخرى مشهورة هى (لا حياة بلا ألم) .

ومن البين بعد هذا العرض الموجز للقصيدة انها قامت أصلا فى ذهن الشاعر حول عبارات جاهزة مشهورة ، فقدمها شعرا فى قصيدة طويلة استغرقت ثمانى صفحات من الديوان .

وفى قصيدة (مرثية القلب الميت ص ٢٣) تعبير عن صراع مؤسف لقلب تعلق بالأوهام والأمنيات الحلوة، حيث لاتذبل الأشجار ولا تبطىء الأنهار ، ولا تسقط من الليل الأقمار، ولا يكذب الحب أو ينتهى ، لكن الواقع لايتفق مع تلك الأحلام ، فكانت نتيجة الصراع حتمية وهى الهزيمة المرة لها والانسحاق تحت وطأة هذا الواقع ، فعاد القلب أغنية مخنوقة وألما صامتا ، بل ميتا يُرثَّى وقبرا لكل تلك الأحزان القاتلة .

وفى تلك القصيدة المهومة جاءت تلك الأبيات :

كنتَ بريئا لا تدرى أن الأيام

لا تترك من يصعد

تمتلىء يداه بضوء النجم

لا تترك نهرا يجرى متجها نحو مصبه

لا تترك حبا يختبىء سعيدا فى مقلة عاشق

وكما قالوا : لايبقى الراكب فوق جواده

وبيت القصيد هو البيت الأخير ، حيث يعبر عن الحكمة الشعبية (الدنيا ما تخلى الراكب راكب ولا الماشى ماشى) واحتوت تلك الأبيات أيضا حكمة أخرى بنفس المعنى هى (أسهل أن تصعد القمة لكن من الصعب أن تبقى هناك) وأظن الشاعر قد أعجب بهذا المعنى ، فتمثله ثم غناه بتلك القصيدة التى تعبر عن المرارة والألم والضياع .

ويكفى هذه النماذج السابقة للدلالة على مدى استجابة الشاعر لما يعجبه من عبارات جاهزة وإن كان هناك غيرها أيضا ، فقصيدة (أسطورة ص ٥٦) تعبر عن حكمة

معناها (حين نصل لما نريد يفر من بين أيدينا) وقصيدة (مأساة بطل تراجيدى ص ١٠٠) تعبر عن فكرة شائعة أظنها (إما أن آخذ دورى الحقيقى وإما أن أدمر كل شيء) .

لكن ... ماذا فى استخدام هذه الطريقة فى الشعر ؟ ؟

إن بعض الشعراء الجدد – ومنهم أبو سنة – تشيع بينهم فكرة ارتباط الشعر بالناس ... بالجمهور ... بالشعب ، ويترتب على هذا الفهم أن يحاولوا استخدام العبارات الشائعة على ألسنة الناس أو معانيها لتكون موضوعا لقصيدة كاملة أو لمقطع من مقاطعها بقصد التعبير عن أفكار الناس والتودّد إليهم .

وفى هذا بعض الحق ، ولكن المآخذ التى توجه لهذه الطريقة قد تؤدى إلى العكس تماما ، فتبعد الشاعر عن فنه وعن جمهوره جميعا ، لأن الشاعر إذا بدأ بعبارة جاهزة ، فقد صادر نفسه ، إذ يدور حول فكرتها المسلّمة ليصوغها شعرا ، ويبتعد – دون أن يدرى – عن المشاكل الحقيقية الحية لدى جمهور الناس ، ويدفعه ذلك بالطبع إلى التجريد فى صياغة الفكرة ، مادام قد ألزم نفسه بصياغة المعنى المجرد الذى حملته العبارة ، بل يدفعه فى كثير من الأحيان إلى افتعال تجربة ذهنية «مفصلة» على مقاس العبارة ، وكل ذلك يبعد به عن الصدق والارتباط بآمال الناس وآلامهم ، والتأثير فيهم .

فإذا أضفنا لذلك أن العبارات الجاهزة التى لبست ثوب الشعر فى الديوان موضع الدرس كان معظمها مما يتردد على ألسنة خواص المثقفين – كما هو واضح فى النماذج السابقة – ازدادت المسافة اتساعا بين ما قصده الشاعر وما أدى إليه قصده، وكانت حصيلة ذلك كله خسارة أكيدة للجهد وللفن وللناس جميعا .

* * *

النغمة الأسيانة ، والحزن الرقيق أو الغليظ ، والانطواء على النفس والاكتئاب ، والأحلام المجنحة ، والنشيج الهامس أو الصاخب ، واليأس الذى قد يصل إلى حد القنوط، والحديث عن الموت والضياع والأشجان ، ورؤية الأشياء مغلفة بالضباب والسحاب

والدموع ، واستعذاب القلق والألم ، وتوقع الكوارث والفشل - كل ذلك من هموم المراهقة فى حياة الناس - كل الناس - وهى من هموم جيلنا بوجه خاص ، ووراء ذلك طبيعة المرحلة التى يمر بها المراهق ، وما يصحبها من تغير وتطور فى الجسم والنفس جميعا ، ومن تصور وردى للمثل والأحلام ، تلك التى تصطدم فى بلادنا بالواقع الخشن ، والصراع المرّ بين أفراد المجتمع بحثا عن اللقمة والنجاة والأمن ، فى ظل ظروف طبقية بشعة، ونفاق اجتماعى مخيف، وبهلوانات سياسية بضاعتها التزييف والتهريج واستنزاف نخوة الأمة وحيويتها حتى النخاع .

لذلك ، فإنه ليس من الغريب أن يستجيب المرء فى بواكير الشباب لأحزان جيله ، وأن يضيف لذلك من التهاويل ما يصوره له خياله وأوهامه ، فيأسى دون أسى، ويكتئب دون كآبة ، ويتباكى دون بكاء ، وكل ذلك يبقى مقبولا مادام فى إطار مرحلته ، مرحلة الفجاجة والمراهقة والأحلام ، فإذا جاوز هذه المرحلة إلى النضج والفهم ، انحسر ذلك الضباب تحت سطوة الواقع بمرارته وبشاعته وزيفه، فيتعرف طريقه فى زحام الحياة ، ويجالد أسباب إرهاقه وإرهاق مجتمعه، محاولا التغيير ما استطاع وما استطاعت ظروفه، فإن ظل تحت تأثير الكآبة والضياع والأوهام ، فتلك ردة مدمرة وأسلوب صبيانى ردىء .

وديوان (حديقة الشتاء) ديوان ناضج أصيل بصفة عامة ، يحتل به صاحبه مكانه فى الطليعة الواعية الملتزمة ، وقد خَلا من تهاويل المراهقة والأحلام، لولا بقايا متناثرة فيه ترفع رأسها مرة هنا ومرة هناك ، ويرتفع نشيجها أحيانا إلى حد الصراخ ، وأبرز مايدل على ذلك فى الديوان القصيدة التى حمل الديوان كله عنوانها (حديقة الشتاء) وقصيدة أخرى بعنوان (مرثية القلب الميت) .

فالقصيدة الأولى - على سبيل المثال - تصور بأسًى كثيرا من المشاهد الخرساء - الجذور التى تتلوّى ، الجديلة التى تتخاصم عليها الرياح ، والمقعدون الضائعون ، حتى ظلهم قد ضاع أيضا على الحوائط السوداء ، الذكريات الكئيبة ، والبذور الحزينة، والنظرات الحسيرة ، والسُّروة الذابلة ، والأحلام المقبورة .

ومع تكدس هذه المشاهد الكئيبة فإنها تتطلع إلى الربيع الباسم المشمس ليمسح عنها الآلام والأحزان ، لكن هذا التطلع - حتى مجرد التطلع - يموت فى نهاية القصيدة:

لكنّنا هنا

ونحن مقعدون ضاع ظلنا

على الحوائط الكئيبة السوداء

قد ننشد الألوان والضياء

لكننا وفى انتظار من مَضَوا

نظل قابعين عاجزين فى حديقة الشتاء

وقد كان من الممكن أن تنتهى القصيدة قبل هذا المقطع الأخير، بعد أن قدمت تبريرا لكل تلك الأحزان، بانتظار من مضوا من الأهل والرفاق ، والتطلع إلى الربيع وعطائه الوافر من الجمال والسلام ، والتودد إليه بالخجل والمعذرة، قرارا من اللوم والتأنيب، لكن القصيدة استسلمت مرة أخرى لروح الكآبة والعجز التى سيطرت عليها منذ البداية، فغطى نشيجها الأخير على التبرير والرجاء والمعذرة دون مقتض فنى ذى قيمة .

وهنا ينبغى فهم إحساس (الخوف) الذى يواجهنا أكثر من مرة فى قصائد الديوان ، فهناك فرق بين الحديث عن الخوف كاحساس فردى قاتل غائم الأسباب، والحديث عن الخوف كاحساس اجتماعى ممتد نتيجة ظروف متخلفة كالقمع والقهر والتمزق بين المظهر والحقيقة ، وغلبة الغوغاء والجهال والسفهاء بالتحكم فى قيم الناس بالطغيان والجبروت ، حينئذ يوجد الخوف ، وهو خوف معروف الأسباب والظروف والحديث عنه شجاعة والتزام ، وهذا النوع الأخير هو الذى جاء فى الديوان :

حين كذبنا خفنا

وفرحنا بهدايانا من سوق الزيف

هذا قَدَرُ الكذّابين

الخوف ... الخوف

والكذب هنا كذب السلوك والكلام والقيم والناس ، والأشياء ، حتى الأشياء كاذبة !

جوقة مظهرية مهرجة باطشة ، خلفها يعشش الخوف الاجتماعى المُدمِّر .

* * *

لا أدرى لم فضّل الشاعر أن يسمى ديوانه (حديقة الشتاء) وكان الأولى أن يسميه (حديقة الشعب) فإن أروع ما فى هذه الحديقة من أشجار وثمار وأزهار إنما هو للشعب ومن أجل الشعب .

إن هذا الديوان يعد وثيقة إدانة حقيقية لشعبنا وجيلنا ، فهو شعب مظلوم مقهور، ولكنه هو الذى ظلم نفسه ، إنه هو الذى نسج الظلام بيده ، وهو الذى بنى حوائط سجنه وقضبانه ، ثم سجن حياته وحريته فيه ، وزاد فأقام من نفسه سجانا يراقب القضبان ويجلد الحرية .

إن الشاعر ينتقل بنا من موقع لموقع آخر ، ويطل معنا فى كل موقع على العدو الرهيب الذى يغتال أمننا وحريتنا ، ويستنزف حيويتنا ، ثم يشير ويلوّح ويضرب الأرض برأسه وقدميه ، ويلون صوته بالهمس أو بالصراخ ، وبالإفهام أو بالوعيد ، وبالكلام الهادىء أو بالنشيج المخنوق ، باللقطة والصورة والمشهد الكامل ، كل ذلك ليضع أيدينا على جراحنا التى تنزف ، ويطلعنا على سر المأساة التى قادت جيلنا للضياع والهزيمة ، ونضبت منه لباب وجوده لتتركه خاويا شاحبا ، تتخطفه الأنواء والأعاصير .. أضعف الأعاصير .

وهو يلح بصفة خاصة على أثمن قضايا الشعب وهى «الحرية» ولكن أى حرية ! الحرية فى مختلف أشكالها وصورها ، الحرية من الغزاة ومن القهر والطغيان، ومن إسار ضعفنا وأنانيتنا وكذبنا ونفاقنا ، فالحرية التى يقف «أبو سنة» فى صفها هى حرية الشعب كله ، وهى حرية تبدو فى كثير من القصائد مصلوبة بل مفقودة ، وهو يقف مع صاحب الحق فيها - الشعب - فيلوح بيده مهددًا الطغاة الذين أقاموا (الخوف حارس السلطان) مبينا عاقبة الظلم ومداه ، وهو أيضا يتجول بين أولئك الذين سلبت منهم ، فيكشف عارهم وضعفهم وقبحهم ، وكأنما يقول لهم : أنتم لاتستحقون الشفقة ، بل الاحتقار ، فالإنسان بلا حرية خائف ، مهزوم ، موات !! وهو بالحرية شجاع ، منتصر ، حىّ .

ومن أبرز قصائد الديوان التى يتجول فيها الشاعر بين الشعب وحريته (غزاة مدينتنا - الصرخة والخوف - عنكبوت اللحظة السوداء - حلم ملكى - المبارزة - المحاكمة - لا - أسطورة بطل تراجيدى) .

فلنقرأ قصيدة واحدة قصيرة هى (المحاكمة) تقول :

ياسادتى

قد فَضَّ مأتم العزاء

فالميت الذى دفنتموه

قد قام يطلب المحاكمه

ذو المعطف السميك

يقول : إنه القضاء والقدر

وبائع الخمور قال : إنها الحظوظ والمصادفة

وقارىء الكتب

يقول : لم تَرِدْ حكايته

وقال ماسح الحذاء

قد كنت غائبا

ونظرتى قصيرة ولا تجاوز الجدار

لم يكشف الستار مرة لكى أرى

لم يكشف الستار

وقال زارع الحقول

الله يبعث البلاء

لكى يطهر العباد

من آفة الفساد

وقال آخرون : إنها جريمته

تاريخه القيام والوقوع

وظل طولَ عمره لايرفض الخضوع

الخوف قد أذله والجوع

ياسادتى

ما رأيكم فى الميت الذى دفنتموه

تحاولون أن تنسوه

يقول : إنكم جميعكم خدعتموه

فهذه محاكمة من نوع غريب ، ينصب سوقَها ميت مظلوم ، يقوم من جدثه بعد أن مات وشبع موتا ، وانفض العزاء عن مأتمه ، حينئذ ينتصب شبحه أمام ظالميه الذين تقبلوا العزاء فى مأتمه ، ويطالب بتحديد المسؤولية والإدانة ، فيبحث كل منهم عن تعلة كاذبة يحيل عليها مسؤولية ظلمه ، ولكنه يأخذ بخناقهم جميعا ، ويضعهم فى قفص الاتهام ، بعد أن وصمهم بالكذب والضعف والخداع .

والميت فى هذه القصيدة ربما كان رمزا لحيوية الشعب وايجابيته كلها التى ضمرت ثم جفت ، وربما كان رمزا لحريته ونخوته التى تخدرت ثم استنزفت ، وربما كان رمزا لغير هذا وذاك من قيم الشعب وحيواته ، وأولئك الذين جلسوا فى مأتمه هم أنفسهم الذين أودَوا به ، إنهم فئات الشعب كله ، الرأسماليون والتجار والمثقفون وأبناء البلد والفلاحون ، والعجيب أن كلا منهم يحاول إبعاد التهمة عن نفسه ، ليتحملها عنه القدر أو الحظ أو الجهل أو الابتلاء أو استحقاق الجزاء للضعف والخنوع ، ولكن الأمر فى حقيقته غير ذلك كله ، إن هؤلاء الذين يبعدون التهمة عن أنفسهم ليقذفوا بها هنا وهناك هم

وحدهم المداتون المذلون المهانون بضعفهم وكذبهم وأنانيتهم ، تدينهم القيم المهدرة والحرية المضاعة ، وهى قيمهم وحريتهم ، وما ظلمهم أحد ، ولكنهم ظلموا أنفسهم .

* * *

لكن ينبغى أن يفسر هنا الأسلوب الفنى الذى لجأ إليه الشاعر فى عرض ذلك المضمون الناضج فى قصائده الوطنية ، فأهم ما يميز هذه القصائد عموما الصفتان التاليتان :

١- التجريد الذهنى حتى فيما لجأ إليه من رمز .

٢- تكدس الصور اللغوية واللجوء أحيانا إلى اللهجة الخطابية .

- إن شاعرنا يتصور موضوع القصيدة كفكرة تجريدية ، فيرتبها ذهنيا، ثم يلبسها ثوب الشعر، إذ يتعلق بالمعنى المجرد ، ثم يغنيه شعرا ، تماما كما لو كان المرء أمام فكرة عقلية يريد شرحها لقارئه أو سامعه ، وكل الفرق بين الطريقتين هو فى استخدام الصورة فى الشعر والكلام الموضوعى المساوى فى نقل الفكرة نثرا ، «فأبو سنة» يتعشق أفكارا مجردة عن حياة الشعب وسلوكه وأخلاقه ، لكنه لايقدم فى شعره صورا من حياة الشعب النابضة الغنية ، فينقلها حية متحركة مؤثرة ، فتدل على ما يريد دون أن يقوله هو ، ولذلك كانت معظم قصائده الوطنية تأملا عاما لا نماذج حية ، وتجريدا لا حركة ، وفكرة عقلية تفهم لا صورة نابضة تنمو ، وبعد أن يشرح فكرته بالشعر يصيح فى آخرها بصوت جهير مصرحا بهدفه منها .

فقصيدة (الفدائى ص ٧٤) ليست صورة بطل فى مغامرة يتسلل ويغافل ويهجم بما يصحب ذلك من مخاطرة ورعب ومفاجآت واستشهاد ، بل هى حديث عن «معانى الفداء» على لسانه - أو بالأصح على لسان الشاعر - فيقول : انه امتلك مصيره بشجاعته ، وان للمغامرة والخطر لذة أى لذة ، وحين يموت سيحتفى به الأسلاف الذين استشهدوا قبله، ليختم القصيدة بصيحة الفدائى بهدف القصيدة :

لا تشفقوا عليّ

فها أنا الذى خسرت قد كسبت كل شيء

وفى قصيدة أخرى بعنوان (لا : ص ٩٧) تعرض فكرة مؤداها : الرأى الحر عنوان الشموخ الاستسلام دليل الخنوع ، وتجلد بقسوة خسة الإحساس الأخير – الاستسلام – وتسمه بأنه ذلة سببها خوفنا ، وأنه يؤدى لاستعلاء الآخرين على حسابنا وجناية على الأجيال بعدنا ، لتنتهى القصيدة بهدفها فى :

إلا إذا رفعتم الجباه فى طريقهم

السيف فى وجوههم

وأن نقول فى شجاعة المقاتلين : لا

فالذى يتحدث هنا هو الشاعر نفسه بطريقة تجريدية يعبر بها عن فكرته ، وكان من الممكن مثلا أن يقدم صورة حية من صور الشموخ من أولئك المعذبين من شعبنا الذين يتحملون فى جَلَد آلامهم ، ويبصقون فى وجوه جلاديهم ، فنحس ساعة سقوطهم وموتهم أنهم فى قمة الانتصار ، وأنهم أعظم قدرا ممَّن اضطهدوهم .

وحتى عندما لجأ شاعرنا إلى الرمز – وهو فى قصائد قليلة – استخدم أيضا رموزا من صنعه، ثم رتبها ذهنيا لتقول ما يريد، كقصيدة (المحاكمة) التى مر ذكرها وأيضا آخر قصائد الديوان (مأساة بطل تراجيدى) ، فلم يختر مثلا رموزا من التاريخ أو الأساطير الدينية أو الشعبية، لتشف بعرضها شعرا على ما يريد الشاعر دون أن يصرح به .

وخلاصة هذه الفكرة كلها أن قصائد الشاعر الوطنية – فى معظمها – تشرح أفكارا تجريدية بطريقة مفروضة من الخارج – ، دون أن تبنى شيئا جديدا أو تنميه فى القصيدة، إنّها أشبه «بالترادفات اللفظية» وإن كانت صورا شعرية ، وهى دليل على البراعة اللغوية لا أكثر – وفى الديوان حشد هائل من هذه الصور، ولنتأمل هذه الأبيات:

وتساءلنا

أى غزاة جاءوا فى منتصف الليل

رجعوا بالأشجار بعيدا عن مجرى النهر

هدموا أعمدة الضوء

رحلوا بالأزهار إلى مقبرة وحشية

وضعوا سيفا بين شفاه تدنو من عنقود القبلات

داسو بالخيل جبين المعبد

طردوا منه الصلوات

صرخوا فى وجه الفجر

فبعد البيتين الأولين تكدست سبع صور تدل على (الدمار والخراب للمدينة) لكن كل تلك الصور لم تقدم نموا لتجربة القصيدة أو بنائها ، فبقيت الفكرة واحدة تدور فى إطار لغوى فقط .

– كما ترتب على الأفكار التجريدية أيضا أن لجأ الشاعر أحيانا إلى لهة خطابية (عنترية) لاتتفق مع طبيعة الشعر الجديد الذى يسرى إلى الروح فى رفق ، وينساب ساكنا كالضوء ، بعد أن تخلص – كما قالوا – من ضجة الأوزان والقوافى فى الشعر القديم، ومن علوّ الصوت للإلقاء فى المحافل والجموع ، فمن لوازم الخطابة الانفعال والصخب واستخدام أدوات التوكيد والأمر والنهى بصورة اليقين والحسم والزجر ، والتجربة الشعرية الجادة الرصينة لا حاجة بها إلى تلك اللهجة التى انزلقت إليها أحيانا بعض مقطوعات من قصائد الديوان ، فلنتأمل هذا المقطع فى نهاية قصيدة (الجثة الحمراء ص ٩٤) :

فلتخرج الرياح من مغارة الدخان

وليقبل الفرسان

لا تركبوا الخيول إن تناسلت من الكلاب

ولا تعلقوا تعويذة الجبان

على جبين هذه المدينة الكثيرة الأعداء

ولتخرج الغربان من نوافذ القلوب

لتصدح الطيور بالغناء

فلتخبروا الأطفال والنساء

بالكف عن إذاعة الرثاء

فقد نصب الشاعر مهرجانا للشهيد ، ووقف يخطب في هذا المهرجان آمرا وناهيا وزاجرا وداعيا للغارات والفرسان والخيول والغربان والطيور والأطفال والنساء ، مع أن تجربة (الشهادة) لو جاءت في مشهد مواطن عادى يموت في موقف الحفاظ على الأرض أو المبدأ أو الحرية ميتة عادية مؤثرة ، لعمقت في نفوسنا اعتزازا به وباستشهاده أقوى كثيرا من هذه الطريقة الخطابية الزاعقة .

* * *

من أفدح الأخطار التى تهدد الشعر الجديد اليوم ما يعود إلى اللغة والوزن فبعض من يحترفون هذا الشكل الجديد يجهلون هذين الأمرين جهلا شائنا ، فيخرجون على ما يطلق عليه (منطق اللغة) ويقصد به صحة مبنى الألفاظ ومعانيها ، فيستخدمون اشتقاقات غريبة ، حروفها عربية وصورتها لا هى عربية ولا أجنبية ، أو يستخدمون الكلمات العربية بمعان بعيدة كل البعد عن مفهومها الحقيقى ، أو يستخدمون جملا كاملة معناها فى (بطن الشاعر) فقط لاختلال التركيب والإعراب فيها ، أو يستخدمون عبارات كاملة (توليفة) مفهومها غامض غموضا يصل إلى حد الإحالة ، تحت اسم الصور أو الرمز أو ما شئت من الافتراءات ، ناهيك بمن يخرجون عن الوزن العروضى تماما ، أو يخلطون بين التفاعيل بطريقة صبيانية رديئة، يضج منها الخليل ونازك وكل علماء العروض فى القديم والحديث .

ماعلينا ... فهذا حديث آخر ، والمهم هنا أن ديوان (حديقة الشتاء) يكاد يخلو من تلك العيوب تماما ، فهو يستخدم الألفاظ بطريقة سليمة واضحة ، وهو يبنى جمله خالية من الاضطرابات والخطأ ، وصوره محكمة متماسكة لاغموض فيها ولا إحالة إلا ما ندر.

ومن هذا النادر ص ٢٩ :

هل كان القمر صديقا للأشباح

من أوقف زحف الوردة نحو النجم

فالصورة فى البيت الأول غامضة ، وفى الثانى بعيدة عن التصور

* ص ٣٢ عن (الحرية)

حطت صرختك الوردية

فوق ملايين الأشجار

فالصرخة هنا صرخة الحرية الذبيحة ، فهى صرخة الرعب أو الألم ، لكنها غير (وردية) على كل حال .

* ص ٩٨ :

لأننا نضم فى صدورنا

عزائما فى رقة البخار

فهو يقصد بذلك (عزائم خائرة منهوكة) والبخار ليس كذلك ، فهو قوى جدا ، قوة تسير بها القطارات والسفن والطائرات ، فليت لنا مثل هذه العزائم ياصديقى !

وبعد

فلعلنى قد استطعت أن أفهم ما قرأت ، وان أفسر ما فهمت ، وأن أقدم لقارىء هذا الديوان ما يهديه بين مروجه وأدغاله .

* * *

من دواوين الشعر الحر :

* * *

ديوان (البحر موعدنا) لمحمد ابوسنة

فى أوائل الستينيات قرأ الأدباء والمثقفون فى «ملحق الأهرام الأدبي» – وكان له شأن وقُرّاء – قصيدة ذات مذاق رفيع جميل ، لشاعر جديد لم يسمعوا له ولا عنه من قبل، اسمه «محمد ابراهيم أبوسنة» وكان مطلع هذه القصيدة فيما أذكر :

إذا أدارَت الورود وجهها عن اكتئابنا

وباعنا الذين يبسمون فى وجوهنا

نصفر كالجرادة التى تموت فى الربيع

فلفت هذا الشاعر الأدباء إليه بشدة بهذه البداية القوية ، ثم فرض هذا الاسم نفسه وفنّه ، بموالاة إنتاجه ورقيّ شعره وامتلاك أدواته من الموهبة وعمق التجارب والرهافة الموسيقية والأصالة اللغوية مع وضوح هدفه وإخلاصه الصادق له .

وتوالى ظهور دواوينه الشعرية «قلبى وغازلة الثوب الأزرق» و «حديقة الشتاء» ، و«الصراخ فى الآبار القديمة» و «أجراس المساء» و «تأملات في المدن الحجرية» ثم هذا الديوان السادس «البحر موعدنا» الذى نال جائزة الدولة التشجيعية فى عام ١٩٨٥ م ، وقد كان كل من الدواوين السابقة عليه جديرا بالفوز بهذه الجائزة .

هذه الدواوين الستة من (الشعر الحر) إلا ما ندر من قصائدها ، ففى الديوان الأخير – موضع الدراسة – قصيدة من الشعر الموزون المقفى بعنوان «زمان التعاسة» وقصيدة أخرى مترجمة ليست مقفاة ولا موزونة ، بعنوان (الرماد) ولا تحمل من سمات الشعر الا الصور الفنية التى اعتمدت عليها الصياغة النثرية .

هذا الشاعر إذن على قمة «الجيل الثانى» من حركة «الشعر الحر» بعد (السياب)

و (نازك الملائكة) و (صلاح عبدالصبور) و (عبدالرحمن الشرقاوى) و (أحمد حجازى) وشعره جدير بالدراسة الجادة التى تعايشه بصدق وإخلاص ، كما عاشه هو بنفس الصدق والإخلاص .

وهذا المقال عن ديوانه الأخير (البحر موعدنا) فقط ، أما تناول انتاج الشاعر كله بالتفسير والموازنة مع رصد تطوره والتنبؤ بتوقعاته ، فلم يحن وقت هذا بعد ، لأنه ما يزال يواصل رحلته الباهرة المديدة إن شاء الله .

* * *

قارىء ديوان (البحر موعدنا) يجد فيه موقفا فكريا وشعوريا متميزا يكاد يلحظه فى معظم القصائد ، هو موقف «المعاناة والأمل» فالشاعر يبحث عن (مثالٍ عالٍ نبيل) قد يكون «الحرية أو الديمقراطية أو القيم الشريفة النقية» وهو يعانى من فقدان هذا المثل وغيابه عن واقعه الشخصى والوطنى ، بل الواقع الإنسانى كله ، لكنه مشدود إليه ، متعلق به أشد التعلق ، وهو شديد الأسى على غيابه ، ويشتد أساه لوجود ضده من «الانسحاق والضياع والزيف والتشويه» ويخشى على نفسه الرِّضَى والاستسلام لهذه المعانى القبيحة، بل إنه يجلدها بشدة ، إذ تركن إلى «اليأس أو اللامبالاة أو الخنوع أو النسيان».

ومما يدل على أن «محمد أبو سنة» شاعر صاحب قضية تملأ عليه أقطار حياته ، تجلده وتؤرقه أن ديوانه هذا - على غير عادة الشعراء أمثاله - يكاد يخلو من قصائد الغزل الراقى أو الرخيص ، إذ تجاوز فيه ذاته ورغباته الخاصة إلى تلك العوالم العليا من المبادىء والقيم التى تشغل كل الناس فى وطنه وفى غير وطنه ، حيث يعيشها ويعانيها الشعراء المعبرون عن ضمير المجتمع مثله .

أول قصيدة فى الديوان هى (أسئلة الأشجار) محاورة بين الشاعر وتلك الأشجار ولعله يعنى بها - الأشجار - الشموخ الصلب الذى لاينثنى ولا يلين بسهولة فى مواجهة العواصف والتقلبات والأنواء .

وفى الرد على هذه الأسئلة عن الشموخ والنجاة من الفساد يجيب الشاعر صاحب

المبدأ انه لايريد الثمن الرخيص المادى من الدرهم والدينار ، ولكنه يريد الصدق والحرية ، فالجنة لديه هى الإنسان والوطن ومعرفة الله ، أما النار فهى :

خواء الأشياء من المعنى

أن تصبح شيئا كالأشياء

يُشْرى ويباع

والقصيدة كلها تردد هذه المعانى السابقة فى وجهيها الجميل والقبيح ، فلا راحة مع الكذب والخيانة ، والأفق العالى المضىء هو :

لبلاد يسكنها الصدق

وترفرف فوق منازلها

أعلام الحرية والحق

لكن ، مادام الزيف والتشويه يحاصران منافذ الحياة ، والمادية قد تغلبت على كل شىء ، فإن هذا الخطر المحيق المحبط يدعو إلى التحدى والمقاومة بل المجازفة ، وذلك سبيل الخلاص ، ولا سبيل سواه ، وهذا ما تقوله القصيدة التى يحمل عنوان الديوان اسمها (البحر موعدنا) فهى تصوير للخطر المحدق من كل جانب المتمثل فى اليأس والمادية والمنافع الرخيصة ، واختلاط القيم والأشياء ، والإنسان بين ذلك كله كأنه فى بحر لا ساحل له ولا قرار، ولا نهاية تلوح فى الأفق من قريب أو بعيد ، ولا سبيل سوى المجازفة واقتحام الصعب والمجهول ، فالموج لا يرحم الجبان ولا أمان للخائف .

جازف

فإن سُدَّتْ جميع طرائق الدنيا

أمامك ، فاقتحمها ، لاتقف

كى لاتموت وأنت واقف

وهذا الموقف المثالى نفسه تنطق به عدة قصائد أخرى ، منها قصيدة .

(تباريح عاشـق قديـم) ففيها عاشـق لشيء عظيم ، لعله «المبادىء العالية أو الحرية أو النقاء والطهـارة» ، وقد بـرح به العشـق وأضناه، لكنه أضاع معشوقته بتقصيره ، فذهبت لغيره .

أعرف ذنبى

ولا أطلب الآن غفران ذنب جنيت

فها أنت تنتخبين لزينة بيتك غيرى

وقد تاه هذا العاشق وهو يحمل مواجعه وحبه ، ولكنه واثق من شىء واحد هو إخلاصه لمعشوقته وجده فى إعادتها إليه ، صحيح أن غيره من الكذابين والمزيفين يملكها الآن ، لكنها فى أكفهم لا فى قلوبهم ، وهو واثق من انحسار هذا الزيف والكذب ، ليعود حبه النقى البرىء لمحبوبته وتعود إليه .

وحين يظنون أنى ما كنت

قولى لهم : قد أكون

وحين يظنون بى لوثة من جنون

فمدى جذورك فى القلب

مدى عيونك فى السحب

تيهى على الأرض ، إنى أحبك

حتى نهاية هذا الزمان الخئون

ويحمل الشاعر هموم قضيته ويرحل إلى أمريكا ، يفتش هناك عن مُثله المفقودة عامة وعن الحرية والديمقراطية خاصة ، يبحث عن احترام الإنسان فى فكره وأحاسيسه وفنه . لكنه لم يجد شيئا من ذلك كله هناك ، ففى مقطوعة «شاعرة المدينة» من قصيدة «رؤية نيويورك» يصور طغيان المظاهر المادية فى المدينة من الصراخ والأضواء والمساحات الشاسعة فهى :

ما كينة من الحديد والزجاج والأسلاك

تموج فى السوائل الحمراء والخضراء

مدينة الرصاص والأنغام

تهتز فى الدخان والبروق

هذه المظاهرة المادية الصلبة المختلطة الزاعقة المعتمة طَمَرَت المعانى والأحاسيس، فضاعت فى هذا الضجيج والزحام والفخامة الحسية والأبهة ، وحين يسأل الشاعر عن الجمال فى الحدائق الخضراء لايجده ، وعن الربيع يقال له تهكما «فى فندق الشتاء» وعن الأديب «والت ويتمان» لا يعرفه أحد ، فالمعروف لديهم فقط ناطحات السحاب والنقود ، أما الفن والشعر فأمور بعيدة عن اهتمام الناس هناك .

وابتسمت سخرية ناطحة السحاب

وأخرجتْ ماكينةُ عاليةُ الرنين

وريقة خضراء

من فئة الدولار

وقالت الحسناء

تلك هى الأشعار

لقد أغرقت المظاهر المادية – وأسفاه – كل شيء فى نيويورك – فى أمريكا – الجمال والأحاسيس والقيم والشعر .

ويصل العذاب بالشاعر مداه فى المقطوعة الثالثة من هذه القصيدة عن «نصب الحرية» إذ فقد هذا الرمز معناه ، فلم تعد أمريكا نصيرا للحرية ، بل لم تعد تبالى بضياع حريات الآخرين ، ضاع هذا المعنى الرائع النبيل ، وحلت مكانه المباذل الرخيصة والمجون . يقول الشاعر لتمثال الحرية الواقف عند نهر «هدسن» :

سألته ، هل سَئِم العراك

من أجل حق الآخرين

والإجابة :

رأيته يخجل من أسئلتى

ودمعة تلوح فى العيون

وامْرأة ماجنة

تعرض ثديا أبيضا للجائعين

تركته يرنو بلا مبالاة إلى النهر القديم

منطويا ، كأنه يتيم

* * *

تعاطف «محمد أبو سنة» مع وطنه العربى كله يصل إلى حد التبتل والعبادة ، ففرحه طاغٍ جارف بالحرية والتحرر ، وحزنه عميق جياش من العدوان والمهانة، حتى لتخاله يغنى ويرقص فى مهرجان الحرية ، وتجده كيانا حاقدا مسحوقا على ضياع الوطن وكرامة الإنسان .

وقد عبرت عن ذلك كله قصائد عدة فى الديوان ، منها قصيدة (لقاء العريش) ، وهو لقاء مشحون بالعتاب المُرّ والفرحة الطاغية والتطلع للمستقبل .

والعتاب يجىء مع لحظة اللقاء مع العريش التى تحررت بعد سنين طويلة من الفراق عاشتها مع البنادق والخنادق والاغتصاب والوحشة والوحشية ، عاشتها وحدها طعينة جريحة مهانة .

والفرحة الطاغية فى هذا التساؤل الطفولى المتكرر ، تساؤل من لايكاد يصدق عينيه وواقعه ، لتحقق شىء عزيز بعيد المنال .

هل أنت أنت العريش !!

ولم ينسه العتاب ولا الفرح الأمل الذى يتطلع إليه كل عربى لخلاص الأرض المأسورة السجينة ، وفك الحصار عن الموج والريح والبيت ، عن البحر والبر والمدن المقهورة .

فإن سيوفا كثيرة

تسل على القلب

حتى تعود لنا القدس

والوطن المغترب .

لقد جعل «أبو سنة» هذا اللقاء – لقاء العريش – مشحونا بمشاعر الماضى والحاضر والمستقبل عن قضية العرب ، كل العرب .

هذا الشعور بعودة العريش يعدله أسف عميق يعصر القلب يغزو إسرائيل للبنان وتصوره قصيدة (كلّ هذا الظلام) إنه ليس ظلام الليل الذى نعرفه ، إنه ظلام لعين من نوع آخر ، ظلام جاء مع الصبح ، خفافيش سدت الأفق وحطت فوق السنابل ، قنابل تبيد ربيع الأرض ، وتطارد هذه القوافل البائسة من اللاجئين المهاجرين بين فصول الجحيم ، ظلام دامس لا ضياء فيه ولانجوم غير تلك النجوم السداسية المظلمة «طائرات إسرائيل» .

إنه دولة تتخطى الحدود

إنه دولة من دخان حقود

كل هذا الظلام اليهود

لكن ، أن تكون إسرائيل دولة تتخطى الحدود ، وأنها ظلام حقود فهذا لايعطى شيئا جديدا ، ولا يخرج عن تلك الصرخات الإعلامية الزاعقة لوصف إسرائيل بالحقد والظلام والظلم .

لكن في القصيدة شيء جديد ، أمل فى نجاة فلسطين من البلاء مع كل هذا الظلم والظلام ، والنهاية لصاحب الحق ، والعدوان دليل القهر واليأس والضعف ، لا دليل القوة والاطمئنان .

وهذى فلسطين تنجو من القتل

راحت تَمَاوَجُ فى زُرْقَةِ البحر

تخطو إلى العشب

تأخذ شكل التراب وشكل السماء

فمع الظلام المطبق يفتح الشاعر باب الأمل المرتَّجى ، وهذا هو البعد الإنسانى للحب الوطنى الصادق المخلص المتفائل الذى يعلو على كل المحن والآلام . إنه حب برىء خالص لايَعْدِلُه إلا حب الوالد أو الأم للأبناء ، إذ لايتطرق معه إليهما اليأس مهما أحاط بالأبناء من سوء .

هذا التفاؤل نفسه تنطق به قصيدة أخرى بعنوان (وطن يقوم من المنام)

والمقصود : الوطن العربى كله الذى يركن فيه أهله للخمول والبلادة ، وتغط مدنه فى النعاس المريح الدائم ، إذ تجمدت فيها الحركة والحيوية ، كأنها من الحجارة والنحاس فقط ، لايسكنها أحد .

هذه اللوحة المتحجرة الصامتة الهامدة ينفخ فيها الشاعر روح البعث من استلهام الماضى والأمل فى الحاضر ، فالماضى عريق شامخ مجيد :

من يذكر الآن الرماح

تعود بالأسرى وبالمدن البعيدة

والسبايا والقلاع

من يذكر الحق المضاع

كتبت يراعته سيوف المؤمنين

والأمل فى هذا الوطن الآن أن تدب فيه الحياة والثقة ، فينبض بحب الجمال والسعادة والحرية ، والطريق واضحة ، أدواتها الجرأة والعمل الجدّى والكف عن لغو الكلام – فما يؤمله هو :

وطن يفرُّ من الوداعة والإقامة فى الكلام

وطن يفرُّ من الهوان إلى الحِمام

ليغير الدينا ، فينسلخ الضياء من الظلام

إن «محمد أبو سنة» شاعر وطنى ودود ، يهتز كيانه كله بعشق الحرية والتحرر والنضال .

وهو شاعر إنسانى يقاتل بما يملكه من أجل الوصول إلى السعادة والاستقرار وعلاقات الحب والمودة لنفسه ولكل الناس ، وهو يعانى أشد المعاناة من وطأة الظلم والطغاة والتسلط ، وتجبر الأقوياء على الضعفاء .

ويتردد ذلك كله فى ديوانه كلمات تقطر مرارة وتعاطفا ومودّة ، أو عنفا وضراوة وثورة .

* * *

يلفتُ النظر فى هذا الديوان أمران ، ربما منشؤهما واحد هما :

* الشكوى الدائمة من الناس والأشياء

* تردد مظاهر الطبيعة كثيرا فى الكلمات والتعبيرات والصور

– فى بعض قصائد الديوان أو مقطوعات القصائد توجد شكاوى محمومة باكية حزينة ، شديدة الحزن والبكاء ، كل شيءٌ سيىء وأسود وموحش وقتام وخانق .

فقصيدة (زمان التعاسة) وحدها تضم صورا ومعانى سوداوية متعددة ، ومن تلك الصور (الليل الحالك – والأمانى المداسة – وازدهار اليأس – وموت القداسة والورود – وظلام الأكاذيب – وضلال الفراشة – وهروب البراءة – وعلو القبح – والمرايا التى تعكس

الليل) كما تتضح فيها كلمات (الكذب والمهانة والخسة والخيبة والوحشة والنخاسة والسموم والفتك) فهى قصيدة تعسة حقا (ظلمات بعضها فوق بعض) والعجيب أن هذه التعاسة التى وصف بها الزمان ونضحت فى الصور والمعانى ليس لها سبب مفهوم يستدعى كل ذلك أو بعض ذلك .

وفى هذا الديوان أربع قصائد عن القلب الصديع الموجع وأحزانه وأشجانه ، إحداها بعنوان (تحوّلات قلب) يندب فيها الشاعر قلبه المكلوم ، فيتمنى لو كان صخرا قويا أو طائرا محلقا ، لكنه ليس كذلك ، بل هو قلب تحول إلى الموات ، وصار قبرا الدموع، ينطوى على الوحشة وحطام الزهر والأوراق والأغصان وعلى نهر من هشيم الماضى وبحيرات من دموع، هو قلب مطمور فى عمق الثلوج ، إنه راكد هامد صديع لا يؤثر ولا يتأثر :

أيها القلب الذى ضم المطر

وبقايا الأنجم الأولى من العمر القصير

وحطاما من أغانٍ وصور

صرت قبرا مثل آلاف القبور

تزحف الآن إلى باطن أرض لا تثور

وهذا يماثل قصائد الرثاء القديمة تماماً ، تلك التى تبكى الحاضر المفقود وتأسى على الماضى المجيد الذى ولّى وراح ، وهذا – فى حقيقته – إحساس مهزوم بالدمار والبوار ولوم النفس على التقصير أو مظنة التقصير ، مبعثه هواجس محمومة ، قد لاتكون صحيحة على الإطلاق .

– ويصحب الأمر السابق غالبا أمر آخر هو تردد الكلمات (الصخر والطير والغابة والليل والضوء والنجوم والديّم والغيم والعواصف والزهر والأوراق والأغصان والرماد والثلوج والشتاء والربيع والمطر) .

فكثير من صور شعر الديوان مستمدة من تلك المرئيات الحسية ، وربما أدى ذلك

أحيانا إلى الافتعال والإغراب فى الصور والكلمات ، على حساب صدق النفس وبراءة الشعور ومالهما من تأثير صادق وعميق وأخاذ .

ربما كان «محمد أبو سنة» متأثرا فى هذين الأمرين بكثرة قراءاته فى أشعار «الرومانسيين» وقصصهم ، وشدة ارتباطهم بالطبيعة ومظاهرها ، وعشقهم للوحشة والانطواء والأحزان .

وربما كان التكوين النفسى للشاعر مركبا كذلك ، فله مزاجه الخاص الذى تسعده الأحزان وتأمل الكون والطبيعة والتأثر بالمرئيات حوله وفى خياله ، فتنعكس فى شعره كلمات وصورا تتردد كثيرا ، بل تتزاحم فيه دون أن يكون لها دور حقيقى يستدعى تزاحمها أو وجودها أصلا .

* * *

من عيوب الشعر الحر التى تصرف عنه القراء (ظاهرة الغموض) فتكون القصيدة بلا معنى واضح ولا هدف مفهوم ، وإنما هى «تهويمات سديمية» أو «ميتافيزيقا غيبية» بعيدة فى كليهما عن تصور القارىء العادى والمثقف على السواء ، وتزيد البلوى إذا كانت القصيدة من هذا النوع ضعيفة الموسيقى غائمة الصور ، ركيكة التعبير والكلمات ، حينئذ تترك القارىء أو السامع حائرا يضرب أخماسا فى أسداس ، فينصرف عنها وعن الشعر الحر كله ، لفقدان المعنى والإيقاع والفهم والاستمتاع .

وقد برىء ديوان (البحر موعدنا) غالبا من هذا الداء وإن وجدت آثار منه فى بعض قصائده ، ومنها قصيدة (النهر وملائكة الأحزان) فالعنوان غامض بعيد عن تصور القارىء الذى لايكتسب من القصيدة شيئا محددا وإن قرأها وأعاد قراءتها مرات ، وقد تراكمت فيها الصور الغريبة ، فزادتها غموضا ، مثل (لحن من العشق يرحل فى الحلم - انداح فى زمن الجنون - القلب الأملس المنيع المراوغ - جثث العشاق أقنعة من طحالب).

ومن هذا الشعر الغريب قصيدة أخرى بعنوان (قلبى يفر بلا اتجاه) فهو قلب يفر بلا اتجاه ، والقصيدة نفسها بلا اتجاه ، إذ هى أوجاع وتأوهات لا سبب لها ولا هدف ، ويصعب على القارىء أن يعيش بين ضبابها ودخانها ، وقد وجد فيها مع غموض المعنى

كلمات مهومة تزيد الأمر صعوبة ، مثل (السديم . الأمل المثلج – المسافات – الآماد – التخوم – الصخر العقيم – الكهوف – العنكبوت – الجثون) .

هذه قضية تحتاج إلى المراجعة والتوقف ، خصوصا مع هذا الطوفان من قصائد الشعر الحر التى تأخذ شكل الشعر وما هى بشعر ، وهى كلام مطبوع أو مسموع ، لا جدوى منه ولا فائدة ، ويأخذ قيمته من شعارات براقة زائفة ، مثل (الرمزية والسريالية والهمس والإيحاء والموسيقى الداخلية والإحساس بالمعنى) إلى آخر هذا اللغو الغامض أيضا .

يجب أن يدرك الشعراء أن العصر الذى نعيش فيه يعتمد على العلم والفهم والوضوح ، والإغراق فى هذه الظاهرة الشعرية – الغموض – بعدٌ عن روح العصر ، بقدر ما هى بعد عن روح الشعر الراقى الأصيل .

* * *

كلمة أخيرة عن لغة هذا الديوان الفائز بجائزة الدولة .

ناظمه «محمد أبو سنة» مثقف ثقافة لغوية أصيلة ، وهو يعرف قبل غيره قيمة اللغة فى التعبير العادى والراقى على السواء ، لكن تناثرت فى الديوان أخطاء لغوية ونحوية كثيرة ، سببها – بلا شك – الطباعة وسوء التصحيح ، والشاعر بكل تأكيد قادر على تدارك هذا الخطأ وإصلاح ما أفسده الإهمال .

من دواوين الشعر الملتزم :

* * *

ديوان (اللزوميات وقصائد أخرى) لعبداللطيف عبدالحليم

اختار الشاعر هذا العنوان لقصائد ديوانه التي بلغت ثلاثا وثلاثين قصيدة ، وهو اختيار متعمد ، يحدد به اتجاهه المحافظ والتزامه لعمود الشعر التقليدى . بل إنه موغل فى هذا الاتجاه ومتمكن منه ، إذ التزم - كما فعل المعرى من ألف سنة - ما لايلزم فى بعض القصائد التى ينص بأنها من «اللزوميات» .

ولعل الشاعر قصد بهذا العنوان أيضا أن يدفع مزاعم أصحاب «الشعر الحر» بأن الوزن والقافية يعوقان الشاعر المعاصر عن الانطلاق والإبداع ، فدلَّ بهذا الديوان عمليا على أن الشاعر الحق تنقاد له الأوزان والقوافى ، يغنى بها شعره ، وتحمل تجاربه النفسية والعاطفية دون صعوبة أو عسر، وقد ذكر ذلك فى قصيدة له عن «الشعر» فيها:

تتابعنى فيه العروض سماحة ولم أك يوما تابعا لعروض

فللشاعر موقفه الرافض للشعر الحر الذى يسميه «الشعر الكليل الأحدبا» ، ويقول عنه «ماعرفت الشعر حرا ، لا ، ولن أركب البحر المسمى خببيا» .

وقصائد اللزوميات فى الديوان سبع تحت عناوين (الشعر - أمنية - نجوى - رحيل - سيان - كبرياء - آخر كلمات «ابن حزم»)

وفى لزوميته الأولى يوضح ما يعنيه «باللزومية» أو «الالتزام» : يقول :

قوافِيَّ قد أخفيت منك جهادة فإنْ تَجْمَحِى عند اللّزوم تَرُوضِى

فالالتزام فى «القوافى» أن يسيطر عليها الشاعر فلا يبدو فيها تكلف ولا

استكراه، ولا يظهر عليه إجهاد أو إعياء ، فهو يروضها فيسلس له قيادها مع جموحها وشدة أسرها ، ولا يشق عليه الإيغال فيها أكثر مما يطلبه فيها أهل العروض .

وقصيدة (الشعر) التى منها البيت السابق ، التزم فيها حرف الراء قبل حرف الردف (الواو) فى كل أبيات القصيدة ، مع أن هذا فى عرف أهل الصنعة غير لازم .

وفى قصيدة (سيان) التى يحقق عنوانها قوله :

غدوت لا آسى ولا أرتجى　　　سيان عندى من نبا أو عبأ

التزم حرف «الباء» قبل الروى «الهمزة» فى كل القصيدة .

وهكذا يؤكد الشاعر قدرته الشعرية الفائقة على ركوب القوافى الصعبة وتذليل الجموح منها .

ولا يقف تفوقه الشعرى عند القوافى وحدها، بل أيضا فى «البحور» إذ يتعمد النظم من بحور غير مطروقة بكثرة عند الشعراء .

لم يتسلَّ الفؤاد بعدكم　　　عنكم بغير الأحزان والألم

جاءت من بحر «المنسرح» وتفاعيله (مستفعلن مفعولات مستعلن) وعلى هذا البحر نفسه جاءت قصيدة (رحيل) وأيضا رائعته الطويلة عن (العقاد) وعاطفيته (اعتذار) وهو بحر صعب ، ولا يقدر عليه الا أولو العزم من الشعراء .

* * *

تنوعت قصائد الديوان ، فمنها الوطنية والعاطفية والمناسبات والخواطر الذاتية ، لكن أبرزها جميعا اللقطات النفسية الموارة للشاعر ، التى يغلب عليها الوحشة والتشاؤم والتبرم بالناس والأشياء . ففى قصيدة (حالة) يقول عن نفسه :

وإذا بالعيون يطفئها الدمـع　　　وأمتص وحدتى الأبديـه

يا صحابى عفوا مللتم مقامى　　　إن بين الضلوع نارا تَزِيّه

وفى قصيدة (الصدق فى الكذب) يقول :

ويح نفسي تعاف زيف الأماني فعاشت فى لوعة وضياع

أيها الموت . هات كفك وامسح ما بهذا الفؤاد من أوجاع

وهذه النغمة الآسية المؤسية المخنوقة تسرى فى مجموعة من قصائد الديوان حتى الوطنية والعاطفية ، وقصيدته عن (العقاد) شتم موجع لمن أسماهم (الأذلاء) عُبّاد الأصنام الموصومين بالمهانة والدناءة والضآلة ، وهى تذكرنى بقصيدة للعقاد نفسه عن (شبان مصر) إذ جردهم فيها من معانى السمو والرقى والآدمية ، وهذه - فى رأيي - نظرة متعالية مغرقة فى الأنانية والتشاؤم والإحباط .

* * *

«عبداللطيف عبدالحليم» شاعر ذكى ، مثقف ثقافة لغوية وشعرية واسعة ، وقد انعكس ذكاؤه وثقافته اللغوية ومحصوله الشعرى على هذا الديوان .

- تتبدى يقظته الذهنية فى القضايا العقلية التى تدل على كدح الذهن ورشح الجبين والتى تتناثر هنا وهناك بين هذه القصيدة أو تلك . وقد يكون هذا البيت العقلى هو محور القصيدة كلها قِيستَ عليه وصُمِّمَتْ له ، فليست هذه القضايا العقلية وحى البديهة والارتجال بل هى من نتاج القصد والتعمد .

ولست أرضى الحب يافتنة لاترتضى بشامخ الوجد

فهو موازنة بين الشاعر الشامخ الوجد الذى لايرتضى الحب مع من ليست كذلك ، وقد دارت أبيات القصيدة الخمسة عشر كلها حول هذه الموازنة، مع تنويع الصور اللغوية المعبرة عن هذا المعنى المجرد فى كل بيت ، فهى موقف واحد تتزاحم حوله كل أبيات القصيدة ، والمطلوب حقا فى الشعر هو الموقف الواحد الذى ينمو معه الشعور بتنويع النظرة إليه والإحساس به ، وتقييدها فى الصور الموحية واللوحات الجميلة للوصول إلى الكشف المتكامل عن هذا الموقف فى نهاية القصيدة ، ويكون لها تأثيرها الرائع ووقعها الجميل .

والبيت الأخير فى قصيدة (راحة) هو :

أخلد لليأس وهو راحتـــــه   وراحة اليأس دعوة العدم

وهو تلخيص للحكمة القائلة (اليأس أحد الراحتين) ومفهومها أن الراحة الثانية هى «العدم» وهذا ما جاء فى هذا البيت الذى انتهت إليه كل الأبيات قبله وصبت فيه .

– كما تتبدى ثقافة الشاعر اللغوية فى استخدام اللغة الفصحى باقتدار ، من اختيار الألفاظ ، ودقة معناها ، وصحة الجمل ، وتأليفها ، فلغة الديوان – بصورة عامة – نقية سليمة لاتشوبها لُكْنه أو لَحن أو نبوّ أو نشاز .

لكن ضخامة الثروة اللغوية القديمة لدى الشاعر بدا تأثيرها فى استعمال بعض الألفاظ والتعبيرات الغريبة ، البعيدة عن تناول المثقف العادي، مما يبطىء به عن متابعة معانى الأبيات وتسلسل الشعور، ويصرفه عن الفهم والاستمتاع .

ومن هذه الألفاظ والتعبيرات مما ورد فى الديوان – وهو كثير – (خامرت فؤادا – نار نَزيّة – السُدُف – وادياً شَائِهَ الجلد – يرنو لِشَأْوٍ عليّ – المنّ والسَلْوى – أُنْطِيَة – لَعِجُ الأعماق – قريضا صيًّا – يَفتلُون الرِّيح – يُنَاصِى السحبا – خَدِيناً لِلقَوَافى – الناس شكُول – لى منها ثُمٌ لَقْيَان) بل إن قوافى القصائد كلها «قاموسية» مثل قصدة (أمنية) فقوافيها هكذا (الوَسَن – أسَن – رَسَن – لَسَن) وكأنها اختيرتْ عمدا ، لبيان البراعة اللغوية ، لكنها لا تليق بالشعر ، هذا الفن الجميل الرائق .

– وقد ترسّبَتْ فى أعماق الشاعر ثقافته الشعرية الواسعة المدى من القديم والحديث ، وطَفَتْ – ربما بغير قصد – لتظهر فى بعض قصائد الديوان ، وبخاصة شعر الشعراء الذين لهم مكانة عليا لديه مثل «العقاد»

قصيدة (الصدق فى الكذب) التى بدأها بتزيين الكذب ، لأنه بضاعة رائجة عند الناس ، وانتهى منها برفضه ،مع ما يجره الرفض من الآلام والأسى ، بقوله :

ويح نفسى تعاف زيف الأمانى   فعاشت فى لوعة وضياع

هذه القصيدة تأثر فيها بالعقاد فى قصيدة فى ديوانه بنفس المعنى .

وقصيدة (الوحدة المأنوسة) التى تصب فى البيت الأخير منها .

وحدتى – لا عدمتها – يجهل الناس مداها أنس بغير زحام

فيها تأثير بالموروث القديم من قول الشاعر :

خلت أنى فى القفر أصبحت وحدى فإذا الناسُ كُلُهم فى إهابى

– لكن معظم الديوان من القصائد التى تعتبر من نتاج الموهبة الأصيلة ، ومن أروعها (رسالة إلى عابر) وهى مُوَجَّهة لأحد إخْوته الذى عبر سيناء بعد انتظار طويل مرير.

وقصيدة (كبرياء) وهى تسجيل لتجربة عنيفة مع المرض ، وفيها يرفض الشفقة معتصما بالكبرياء – وهذا خلق نبيل كريم .

ومما يلفت النظر أن بعض المقطوعات فى القصائد الطويلة فيها صدق فنى وتحليل نفسى لدقائق الشعور ، فهى بمفردها تثير فى القارىء الأسى أو الإشفاق أو الغيظ أو السرور ، ومنها المقطوعة الأخيرة فى قصيدة (اعتذار) وفيها :

أنا أدرى أننى ضل مسعاى فكيف المُنْتَهَى والقُفول

أنا ضّيعتك فى جمحة اليأس وما غلّ جموحى غلول

فهذه مواجهة مع النفس ، واعتراف صادق ممن أحيط به ، فاستسلم لمصيره ، نافضا يديه من اللّجاجة والإنكار ، ومن الماضى والحاضر جميعا . وقد تكررت هذه المقطوعات الرائعة فى قصائد الديوان .

* * *

إن هذا الديوان صحوة جديدة للشعر الحقيقى الذى حاول بعض المهرجين والأدعياء فى السنوات الأخيرة النيل منه وصرف الناس عنه ، ليروجوا لشعر هزيل جديد غامض الشكل والمضمون لم يجيدوه ، ولم يتقبله منهم حتى الآن كثيرٌ من المثقفين والنقاد عشاق الفن الأصيل .

فهرس

موضوعات الكتاب

مقدمة الكتاب .... (٥-٨)

* كتاب «تجديد النحو» للدكتور شوقي ضيف ٩

عرض وتقديم

* نحو الصنعة ونحو اللغة ٣٧
* النحو العربي بين النظر والتطبيق ٥٥
* مجال الصراع بين اللهجات والفصحى ٧٥
* التأثير الديني واللغوي في الروح القومية ٨٥
* اللغة العربية والنقاد الإعلاميون ١٠٣
* البلاغة العربية بين منهجي اللغة والأدب ١١١
* القصة التربوية بين الفنّ والغاية ١٣٧

من دواوين الشعر الحر

* ديوان (حديقة الشتاء) لمحمد أبو سنة ١٥١
* ديوان (البحر موعدنا) لمحمد أبو سنة ١٦٧

من دواوين الشعر الملتزم

* ديوان (لزوميات وقصائد أخرى) لعبداللطيف عبدالحليم ١٧٩
* الفهرس ١٨٥

كتب المؤلف

اسم الكتاب	الناشر وتاريخ نشر الطبعة الأخيرة
١- النحو المصفى	مكتبة الشباب - القاهرة ١٩٨٩ م
٢- الاستشهاد والاحتجاج باللغة	عالم الكتب - القاهرة ١٩٨٨ م
٣- أصول النحو العربى	عالم الكتب - القاهرة ١٩٨٩ م
٤- قضايا معاصرة فى الدراسات اللغوية والأدبية	عالم الكتب - القاهرة ١٩٨٩ م
٥- الملكة اللسانية فى نظر ابن خلدون	عالم الكتب - القاهرة ١٩٧٩ م
٦- المظاهر الطارئة على الفصحى	عالم الكتب - القاهرة ١٩٨٠ م
٧- المستوى اللغوى للفصحى واللهجات وللنثر والشعر	عالم الكتب - القاهرة ١٩٨١ م
٨- فى اللغة ودراستها	عالم الكتب - القاهرة ١٩٧٤ م
٩- نحو الألفية (أجزاء)	مكتبة الشباب - القاهرة ١٩٨٩ (تحت الطبع)
١٠- الدراسات اللغوية (بالاشتراك)	وزارة التعليم (برنامج تأهيل مدرسى المرحلة الابتدائية للمستوى الجامعى ١٩٨٥ - ١٩٨٩م
١١- النحو - للصف الرابع والخامس والسادس والسابع من التعليم الأساسى (بالاشتراك)	وزارة التعليم ١٩٨٨ - ١٩٨٩ م

رقم الإيداع :٨٩/٧٨٤٤
الرقم الدولى :٣-٠٠١١-٣٧٣-٧

مؤلفات الدكتور محمد عيد

* الاستشهاد والاحتجاج باللغة

« رواية اللغة والاحتجاج بها فى ضوء علم اللغة الحديث »

* أصول النحو العربى

* الملكة اللسانية فى نظر ابن خلدون

* المظاهر الطارئة على الفصحى

* المستوى اللغوى للفصحى واللهجات وللنثر والشعر

To: www.al-mostafa.com